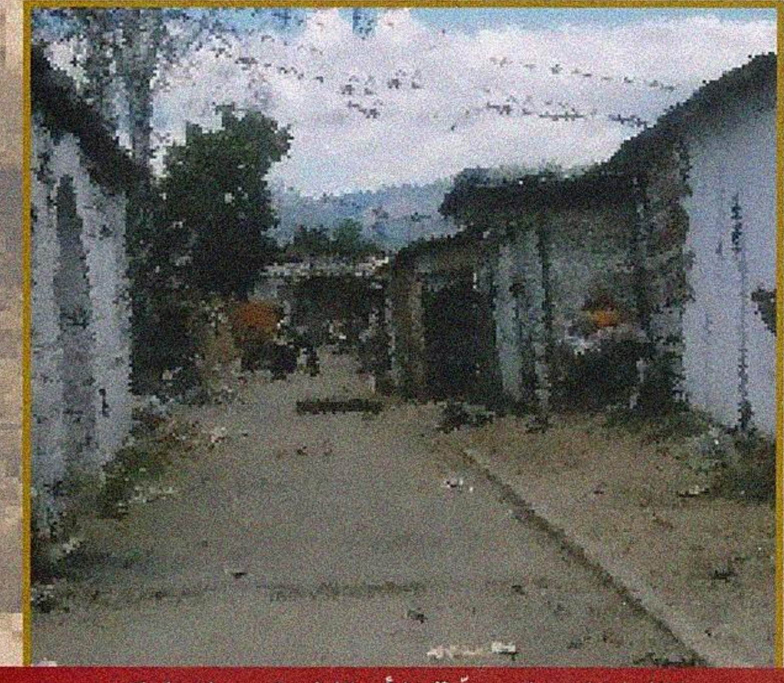
روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية

جون شتاينبيك

شارع السردين المُعلَّب



نقلها إلى العربيّة الأستاذ منير البعلبكي

شارع
السردين المعلَّب

كنوز القصص الإنساني العالمي

للقاصّ الأميركي الكبير

جون شتاينبيك

الفائز بجائزة نوبل لعام ١٩٦٢

نقلها إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

شارع
السردين المعلَّب

دار العلم للملايين

شارع مار إلياس - بناية متكو - الطابق الثاني
هاتف: 306666 1 (961)+ فاكس: 701657 1 (961)+
ص. ب.: 1085 - 11 بيروت 2045 8402 - لبنان
internet site: www.malayin.com
e-mail: info@malayin.com

Original English title: Cannery Row
by John Steinbeck

طبع في لبنان

شارع السردين المعلَّب

شارع السردين المعلَّب في مونتيري من أعمال ولاية كاليفورنيا هو في الحق قصيدة، ونتانة، وضجة ذات صرير، ودرجة من الضوء، ونغم، وعادة، وحنين إلى الوطن، وحلم من الأحلام في آنٍ معًا. أنه جُماع ما التقى وما تفرّق من الصفيح والحديد والصّدأ والخشب الموصَّل، ومن الأرصفة المتشققة وقطع الأرض المعشوشبة وأكوام النُّفايات من ورق وخِرَق ومعادن وزجاج، ومصانع تعليب السردين المُنشأة من صفائح الحديد المتغضّنة، والحانات الرخيصة، والمطاعم، وبيوت البغاء، ومخازن البقّالين المزدحمة بعض الشيء، والمختبرات، والفنادق الحقيرة. وسكان هذا الشارع، كما قال الرجل يومًا، هم «بغايا، وقوادون، ومقامرون، وأبناء كلاب» يعنى بذلك كلّ إنسان. ولو قد نظر الرجل من ثَقْبِ بابٍ عَبْرَ ذلك الذي نظر من خلاله إذن لكان من الممكن أن يقول إنَّ سكان ذلك الشارع هم «قديسون، وملائكة، وشهداء، ورجال أطهار» ثم لا يتغير المعنى في قليل أو كثير.

وفي الصباح، بعد أن يكون أسطول السردين قد فاز بصيده، تتهادى الشباك الطويلة في تثاقل، نحو الخليج، نافخة بصفّاراتها. وتقترب المراكب المثقلة بأحمالها إلى الساحل حيث تغمس مصانع التعليب أذنابها في الخليج. وليس من ريب في أنّ الصورة مختارة في رويّة، لأنه لو غمست

تلك المصانع أفواهها في الخليج إذن لكان السردين المعلَّب المنبثق من الناحية الأخرى خليقًا بأن يكون، مجازيًّا على الأقلّ، أدعى إلى الرعب والإخافة. ثم تزعق صفّارات مصانع التعليب، فيهرع الرجال والنساء في طول البلدة وعرضها إلى ملابسهم وينطلقون راكضين إلى الشارع للالتحاق بأعمالهم. وبعد ذلك تُقبل السيارات المتألقة مُقِلَّةً رجال الطبقات العليا: المدراء، والمحاسبين، والمالكين الذين يختفون في مكاتبهم. ثم يتدفق من البلدة الإيطاليون والصينيون والمتحدرون من أصل بولندي، رجالًا ونساءً يرتدون سراويل متباينة، وسترات مطاطية، ومآزر من قماش مشمّع. إنهم يَفِدون عَدْوًا لينظفوا السمك ويقطّعوه ويوضّبوه ويطبخوه، ويعبّئوه في العلب. إنّ الشارع كلّه لَيُدَمْدِمُ ويئنّ ويزعق ويصرّ فيما تنصبّ أنهار السمك الفضية من القوارب، وفيما ترتفع القوارب أعلى فأعلى فوق سطح الماء حتى تفرغ. وتهدر مصانع التعليب وتصرف وتصرخ حتى ينظَّف السمك، آخِرَ الأمر، ويقطَّع ويُطبخ ويعبّأ في علب الصفيح، وعندئذٍ تزعق الصفّارات كَرّةً ثانية، ويخرج الإيطاليون والصينيون والبولنديون المتعَبون، الراشحون، العابقة رائحتهم، هائمين على وجوههم ويتخذون سبيلهم في إعياء مصعّدين في الكثيب نحو البلدة. ويصبح شارع السردين المعلّب نفسُه هادئًا سحريًّا، كَرّةً أخرى. إنّ حياته السويّة لَتُعاوِده. فالمتبطّلون الذين خلوا إلى أنفسهم تحت شجرات السرو السوداء ينطلقون ليقعدوا على البراميل الصدِئة في قطعة الأرض الخالية. والبنات المشتغلات في بيت البغاء الذي تديره «دورا فلاد» يخرجن التماسًا لقليلٍ من الشمس إذا كان ثَمَّة شمسٌ ما. ويوسع «دوك» الخطى من «المختبر البيولوجي الغربي»، ويعبر الشارع إلى دكان البقّال «لي تشونغ» من أجل الحصول على زجاجتين من الجعة. ويمضي هنري الرسّام مستروحًا مثل كلب من الكلاب السلوقية عَبْرَ رُكام النُّفايات في قطعة الأرض ذات العشب بحثًا عن قطعة من خشب أو معدن يحتاج

إليه لإكمال القارب الذي يبنيه. ثم إنّ الظلمة تشتدّ، ويضيء مصباح الشارع أمام بيت دورا ـ المصباح الذي يلقي ضوء قمر سرمديًّا في شارع السردين المعلّب. وينتهي الزائرون إلى «المختبر البيولوجي الغربي» ليروا «دوك»، فيجتاز هو الشارع إلى دكان «لي تشونغ»، طلبًا لخمس زجاجات من الجعة تتسع كلٌّ منها لربع غالون.

ولكن كيف السبيل إلى تصوير هذه القصيدة والنتانة والضجة ذات الصرير ـ درجة الضوء، والنغم، والعادة، والحلم، تصويرًا حيًّا على الورق؟ إنك حين تجمع ضروب الحيوانات البحرية تقع على بعض الديدان المسطّحة البالغة الدقة بحيث يتعذر عليك التقاطها كاملةً، لأنها تتقصّف وتتمزق بمجرد اللمس. من أجل ذلك تجدك مضطرًّا إلى أن تدعها تجري وتدبّ على هواها فوق شفرة سكين، لِتَرْفَعَها بعدُ في رفق إلى زجاجتك الملأى بماء البحر. ولعلّ هذه هي الطريقة الفُضلى لتأليف هذا الكتاب ـ أن تفتح الصفحة وتدع القصص تجري بنفسها.

- 1 -

كانت دكان «لي تشونغ»، على الرغم من أنها ليست نموذجًا في النظافة، معجزةً من معجزات التموين. كانت صغيرة حاشدة، ولكن ضمن جدران الغرفة الوحيدة التي تتألف منها كان في استطاعة المرء أن يجد كلَّ ما يحتاج إليه لكي يحيا ويتمتع بالسعادة ـ الثياب، والطعام من طازج ومعلّب، والخمر، والتبغ، وأدوات الصيد، وضروب الآلات، والزوارق، وحبال السفن، والقبّعات، وأضلاع الخنزير. ليس هذا فحسب، بل كان في مَيْسورك أن تشتري من دكان «لي تشونغ» مشاية للغرفة، ورداءً حريريًا فضفاضًا، وزجاجة ويسكي، وسيجارًا. والسلعة الوحيدة التي لا توجد عند «لي تشونغ» يمكن أن تُلتمس عَبْرَ قطعة الأرض الخالية، عند دورا.

كانت الدكان تفتح أبوابها مع الفجر ثم لا تُغلقها إلا بعد أن تُنفقَ آخر قطعة مطوَّفة مستهترة من فئة العشرة السنتات، أو تؤوي إلى مضجعها. وليس مردّ ذلك إلى أن «لي تشونغ» كان طمّاعًا شَرِهًا. لا، إنه لم يكن كذلك، ولكن إذا كان ثَمَّةَ من يرغب في إنفاق المال فإنه رهنُ خدمته. والحق أنّ مكانة «لي» في ذلك المجتمع أدهشَتْهُ إلى أقصى حدود قدرته على الدَّهَش. فعلى مرّ السنوات انتهى كلّ امرئ في شارع السردين المعلّب إلى أن يصبح مدينًا له بشيء من المال. ولم يكن لِيُلْحِفَ على زبائنه في اقتضاء الديون. ولكن

كان من دأبه إذا ما تضخّم حساب امرئ بأكثر مما ينبغي أن يمتنع عن تلبية طلباته. وعندئذٍ يسارع الزبون إلى دفع حسابه، أو يحاول ذلك حتى لا يجشم نفسه عناء الذهاب إلى البلدة مصعّدًا فوق الكثيب.

كان «لي» مُدوَّرَ الوجه، دمث الأخلاق، وكان يتحدث بإنكليزية فخمة غيرَ مستعملٍ حرف الراء البَتَّة. وحين نشبت الحرب بين الأحزاب الصينية في كاليفورنيا، وجد «لي» أنّ مبالغ من المال كانت تُعيَّن، بين الفَيْنة والفَيْنة، مكافأة لمن يقبض عليه حيًّا أو ميتًا، فكان ينطلق سرًّا إلى سان فرانسيسكو ويدخل أحد المستشفيات حتى تهدأ ثائرة الفتنة. أمّا ما الذي كان يصنعه بالمال فذلك ما ليس يعلمه أحد. لعلّه لم يكن يحصل عليه. ولعلّ ثروته كانت منحصرةً في الفواتير غير المدفوعة. ولكنه كان يعيش عيشًا رغدًا، وكان يحظى باحترام جيرانه جميعًا. وكان من عادته أن يثق بزبائنه إلى أن تغدو الثقة ضربًا من البلاهة. وكان يرتكب، في بعض الأحيان، أخطاء تجارية، ولكنه كان يحوّل هذه الأخطاء نفسها لمصلحته في رضًا وطيب نفس إن لمْ يفعل ذلك بطريقة أخرى. وهذا ما وقع له، مثلًا، في قضية البناء الموسوم بـ «بالاس فلوبهاوس وغريل». فليس من ريب في أنّ أيّما رجل آخر، غير «لي تشونغ»، كان خليقًا به أن يعتبر هذه الصفقة خاسرةً مئة بالمئة.

وكان من عادة «لي تشونغ» أن يتخذ موقفًا له، في الدكان، خلف المنصّة الخاصة بعلب السيجار. وكانت الآلة المسجِّلة لِقِيَم المبيعات النقدية قائمة دائمًا إلى يساره، والعدّاد ذو الحلقات إلى يمينه. وفي داخل الصندوق الزجاجي كانت تحتشد ضروب السيجار الأسمر، ولفائف التبغ، بينا تقوم خلفه على رفوف الجدار زجاجات الشراب كـ «النهر العتيق الأخضر» و«نُزُل البلدة القديم»، و«الكولونيل العجوز»، والصنف المفضّل ـ «أولد تنيسّي» وهي ويسكي مزيجٌ عمرها أربعة أشهر على الأقلّ، تمتاز برخصها البالغ، وتُعرَف في تلك المحلّة باسم «أحذية التنس العتيقة». والواقع أنّ «لي

تشونغ» ما كان يقف بين زجاجات الويسكي وبين الزبون لغير ما سبب. فقد حاولت بعض العقول العملية أن تصرف انتباهه في بعض المناسبات إلى جزء آخر من الدكان. وكانت ترابط في سائر نواحي الدكان مجموعة من أبناء عمّه، وأبناء أخته، وأولاده، وكنائنه، ولكن «لي» ما كان ليغادر مكانه عند منصّة السجاير. وكان يتخذ من أعلى الصندوق شبه طاولة له، فهو يُريح يديه المسطحتين الرقيقتين على الزجاج، محرّكًا أصابعه مثل «نقانق» صغيرة قلقة. وكان خاتم الزواج الذهبي العريض في وسطى يده اليسرى هو حلْيَته الوحيدة، وكان يخفق به على الغطاء المطّاطي الواقي المتهرّئ منذ عهد بعيد. وكان فم «لي» مليئًا خيّرًا، وكان إيماض الذهب فيه، حين يبتسم، سخيًّا دافئًا. وكان يصطنع نظّارتين نصفيّتين. وإذ كان ينظر إلى كلّ شيء من خلالهما فقد كان يتعيّن عليه أن يميل رأسه إلى الوراء لكي يرى إلى المدى البعيد. وكان يُجري عمليات الفائدة والحسم والجمع والطرح على العدّاد مستعينًا بأصابعه النقانقية الصغيرة القلقة، فيما كانت عيناه السمراوان الأنيستان تطوفان حول الدكان، وفيما كانت أسنانه تبرق في وجوه الزبائن.

وذات مساء، وقف «لي تشونغ» على رُكامٍ من الصحف رغبةً في تدفئة قدميه، وأنشأ يفكر في دعابة وحزن، في صفقة أُنجزت ذلك الأصيل ثم أعيد إنجازها من جديد ذلك الأصيل نفسه. فأنت إذا ما غادرتَ الدكان وسرت عَبْر الأرض المعشوشبة، مواصلًا سبيلَك بين البراميل الضخمة الصدِئة الملقاة خارج مصانع التعليب، انتهيت إلى مجازٍ يكتنفه العشب البرّي. أُسلك هذا المجاز، متخطّيًا شجرة السرو، عَبْرَ الخط الحديدي، ومصعِّدًا نحو حظيرة يسرح فيها الدجاج، تصلْ آخِرَ الأمر إلى بناء منخفض طويل اصطُنعَ فترةً طويلة من الزمن مستودعًا لمسحوق السمك المجفّف الذي يُتخذ منه طعام للحيوان وسمادٌ للأرض. كان مجرّد سقيفة كبيرة يملكها رجل مرهَق يدعى هوراس آبيفيل. وكان لهوراس هذا زوجتان وستة

أولاد. ولقد وُفّق طَوالَ سنوات وسنوات إلى أن ينشئ، من طريق التوسل والإقناع، دَينًا لم تعرف دكان «لي تشونغ» بل لم تعرف بلدة مونتيري كلّها ضريبًا له. وكان قد وَفَدَ ذلك الأصيلَ على الدكان فأجفل وجهه المتعَب الحسّاس لَدُنْ رأى إلى شبح الصرامة الذي يطفو على وجه «لي»، وخفقت إصبع «لي» البدينة على الغطاء المطّاطي، فوضع هوراس راحةَ يده على منصّة السجاير واجتزأ بالقول:

ـ «أحسب أني مدينٌ لك بكثير من المال.»

ويرقت أسنان «لي» تقديرًا منه لاتجاه جديد يختلف كلَّ الاختلاف عمّا اعتاد سماعه من قبل. لقد هزّ رأسه في رصانة ولكنه تمهّل ريثما تستتمّ الحيلة.

وبلّل هوراس شفتيه بلسانه وقال:

ـ «أنا أكره أن يظلّ ذلك الدَّيْن مُصلتًا فوق رؤوس أطفالي. وأنا على يقينٍ من أنك لن تسمح بإعطائهم قليلًا من روح النعناع منذ اليوم.»

وأقرّ وجه «لي تشونغ» هذا الاستنتاج، وقال:

ـ «أجل، كثير من المال.»

وأردف هوراس:

ـ «أنت تعرف بيتي ذاك القائم عَبْر الخط الحديدي حيث يُخزن مسحوق السمك المجفف.»

وهزّ «لي تشونغ» رأسه علامة الموافقة. فقد كان ذلك المسحوق مِلكهُ هو.

وقال هوراس في حرارة:

ـ «لو أعطيتك ذلك البيت فهل أفيك دَيْنَكَ عليّ؟»

وأمال «لي تشونغ» رأسه إلى الوراء، وحدّق إلى هوراس من خلال نظّارتيه النصفيّتين، فيما شرد عقلُه في غمرة الحسابات، وامتدّت يمناه في قلق إلى العدّاد. لقد فكّر في حالة البناء الواهنة، وقطعة الأرض الجديرة بأن تغدو ثمينةً إذا ما رغب مصنع من مصانع حفظ السردين في التوسّع. فقال:

ـ «شو.»

ـ «حسنًا، استخرِج الحسابات ولسوف أوقّع لك صكًّا يؤذن بأني بعتك ذلك المنزل.»

لقد بدا هوراس مستعجلًا.

فقال «لي»:

ـ «لا حاجة إلى الأوراق. سوف أعطيك ورقة تبرئة ذمة.»

وأتمّا الصفقة في أُبّهة، وفتح «لي تشونغ» زجاجةً من «أحذية التنس العتيقة». ثم إنّ هوراس آبيفيل سارع إلى اجتياز الأرض الخالية مارًّا بشجرة السرو وقضبان السكة الحديدية، ومصعِّدًا نحو حظيرة الدجاج، لينتهيَ آخِرَ الأمر إلى المنزل الذي كان ملْكه قبل لحظات، وأطلق الرصاص على نفسه فوق رُكام من سحيق السمك المجفّف. وعلى الرغم من أنّ ذلك لا علاقة له بهذه القصة، فإنّ أيًّا من أطفال آبيفيل ـ بصرف النظر عمّا إذا كان من أبناء هذه الزوجة أو تلك ـ لم يَشْكُ فقدان إصبع من أصابع روح النعناع بعد ذلك قَطّ.

ولكن لنرجع إلى تلك الليلة. كان هوراس مسجًّى على صقالات الخشب وإبرُ التحنيط في جسده، وقد جلست زوجتاه على سُلّم بيته ويد كلٍّ منهما تطوّق جسم الأخرى (فقد كانتا صديقتين إلى ما بعد الجنازة،

حتى إذا ووريَ زوجهما الثرى اقتسمتا الأولاد ولم تعد إحداهما تتكلم مع الأخرى، على الإطلاق.) ووقف «لي تشونغ» خلف منصّة السجاير وقد استدارت عيناه إلى باطن، في حزن صينيّ هادئ سرمديّ. لقد أدرك أنه ما كان في وسعه أن يدفع ذلك القضاء، ولكنه تمنى لو عرف بأنّ شيئًا من مثل هذا كان على وشك أن يقع، وإذن لَكان من الجائز أن يَحولَ دون وقوعه. لقد كان «لي» يؤمن ـ وذلك جزء من دماثة خلُقه وإدراكه ـ أنّ حقّ المرء في أن يقتل نفسه مقدّس لا يجوز أن تُنتهك حرمته، ولكنّ في مَيْسور الصديق في بعض الأحيان أن يجعله غير ضروري. وأيًّا ما كان فقد تعهد «لي» بدفع نفقات الجنازة، وأرسل مقدارًا صالحًا من الموادّ الغذائية إلى الأسرتين المفجوعتين.

إنّ «لي تشونغ» لَيَمْلِكُ الآن بناء آبيفيل ـ سقف حسن، وأرض حسنة، ونافذتان، وباب. إنه مشحون بسحيق السمك المجفف، وإن رائحته لَقويّة حادّة. وارتأى «لي» بادئ الأمر أن يتخذ منه مستودعًا لبضائعه، ولكنه ما لبث أن صرف النظر عن هذه الفكرة، فقد كان قصيًّا جدًّا، وإنّ في مَيْسور أيّ امرئ أن يَلِجَه من النافذة. وإنما كان يخفقُ غِطاء المطّاط بخاتمه الذهبي ويقلّب المشكلة على وجوهها عندما فُتح الباب ودخل ماك. وكان ماك هذا هو الزعيم، والمستشار، وإلى حدٍّ ما المستثمر لجماعة صغيرة من الرجال يجمع ما بينهم قاسمٌ مشترك هو كونهم لا أُسر لهم، ولا مال عندهم، ولا أمانيّ وراء الطعام، والشراب والسعادة. ولكنْ فيما يُتلف أكثر الناس أنفسهم سعيًا وراء السعادة ثم يسقطون في الطريق يهدّهم الكلال والإعياء قبل أن يبلغوا غاياتهم، كان من دأب ماك وأصدقائه أن يلتمسوا السعادة اتفاقًا، في هدوء، وأن يتشربوها بأناة ولطف. وكان ماك أكبر هذه العصبة سنًّا، وكان هو و«هاتزل» ـ وكان شابًّا ذا قوة عظيمة ـ و«إيدي» الذي كان يعمل مساعدًا في بار «لا إيدا»، و«هيوغي»، و«جونز» اللذان يجمعان بين الفَيْنة والفَيْنة ضفادع

وقططًا للمختبر البيولوجي الغربي ـ كانوا جميعًا يعيشون في تلك البراميل الضخمة الصدِئة القائمة في قطعة الأرض المجاورة لدكان «لي تشونغ». يعني أنهم كانوا يعيشون في البراميل حين تسوء حالة الجوّ، أمّا في أيام الصحو الجميلة فكانوا يعيشون في ظلّ شجرة السرو السوداء الراسخة عند ناصية الأرض. كانت الأغصان تلتفّ فتنشئ رفرفًا يستطيع المرء أن يضطجع تحته ويشرف على نشاط شارع السردين المعلّب وحيويّته.

وتصلّبت أوصال «لي تشونغ» بعضَ الشيء عندما دخل ماك، وكانت عيناه تطوفان طوافًا خاطفًا بأرجاء الدكان لكي يتأكد من أنّ «إيدي» أو «هاتزل» أو «هيوغي» أو «جونز» لم يُقبلوا معه وينتشروا في مواطن مختلفة من الدكان.

وكشف ماك أوراقه في صراحة وجدّ، قائلًا:

ـ «لي! لقد سمعتُ أنا و«إيدي» وسائر الصحاب أنك تملك بيت آبيفيل.»

فحنى «لي تشونغ» رأسه وانتظر.

ـ «لقد خطر لي ولرفاقي أن نسألك ما إذا كان في استطاعتنا أن ننتقل إلى هناك. سوف نحافظ لك على العقار. ولن ندع أحدًا يكسر شيئًا أو يخرب شيئًا. إنّ الأولاد قد يحطمون النوافذ، كما تعرف.. بل إنّ المنزل قد يحترق إذا لم تكن ثَمَّةَ عين تسهر عليه.»

وأمال «لي» رأسه إلى الوراء، وتطلّع إلى عيني ماك من خلال نظّارتيه النصفيّتين. وخفّفَت إصبع «لي» الخافقةُ سرعتها فيما كان يوغل في التفكير. كانت عيناه ترشحان بالودّ، وبرغبة في ادخال السعادة على قلب كلّ إنسان. وإذن، فلمَ استشعر «لي» أنه مطوّقٌ بعضَ الشيء؟ وإذن فَلِمَ اتخذ

عقلُه سبيلَه بمثل الدقة التي تصطنعها الهرة وسط الصبّار؟ لقد سُئِل ذلك في عذوبة، وبروحٍ تكاد تكون ناضحةً بالإحسان ومحبّة البشر. ووثب عقل «لي» إلى الإمكانيّات ـ لا، إنها مجرّد احتمالات. وتباطأت ضربات إصبعه أكثر فأكثر. لقد تخيّل نفسه وقد رفض سُؤْلَ ماك، وتمثّل زجاج النافذتين المهشّم. وعندئذٍ يتقدّم ماك بعرض جديد للإشراف على عقار «لي» وحراسته، حتى إذا رفض «لي» كرَّةً ثانية كان في مَيْسوره أن يستروح الدخان، وأن يرى إلى اللهب يتسلق الجدران ـ وهنا يسعى ماك ورفاقه إلى المساعدة على إخماد النار. وانتهت إصبع «لي» إلى راحة رفيقة فوق الغطاء الواقي. لقد غُلب. إنه يعرف ذلك. ولم يبقَ أمامه غير إمكانيّة إنقاذ كرامته، ولقد كان ماك خليقًا بأن يكون سخيًّا في هذا المضمار. وأخيرًا قال «لي»:

ـ «تريدون أن تدفعوا إليّ أجرة المنزل؟ أتريدون أن تعيشوا هناك وكأنكم في فندق؟»

فابتسم ماك ابتسامة عريضة، وكان سخيًّا، وصاح:

ـ «هذه فكرة! طبعًا. كم تريد؟»

وفكّر «لي». كان يدري أنّ ما قد يطلبه لن يقدّم أو يؤخر. إنه لن يحصل عليه، بأية حال. وإذن ففي استطاعته أن يجعل منه مبلغًا ينقذ الكرامة حقًّا. وهكذا قال:

ـ «خمسة دولارات، كلَّ أسبوع.»

وتابع ماك تمثيل الرواية حتى نهايتها. فقال في تردّد وارتياب:

ـ «ينبغي أن أتحدّث إلى الشباب في ذلك. ألا تستطيع أن تجعل الأجرة أربعة دولارات أسبوعيًّا؟»

فأجابه «لي» في جزم:

ـ «خمسة دولارات.»

ـ «حسنًا، سأرى ما الذي يقوله الإخوان.»

وعلى هذه الشاكلة تمّت المسألة. وكان كلّ امرئ سعيدًا بها. وإذا ظُنّ أنّ خسارة بالغة قد أصابت «لي تشونغ» فهذا لا ينفي أنّ عقله هو، على الأقلّ، لم يتخذ هذا المجرى من التفكير. فالنوافذ لم تحطّم، والنار لم تشبّ. صحيحٌ أنّ أجرًا ما لم يُدفع إليه قَطّ، ولكنّ المستأجرين كانوا ـ إذا ما حصلوا على مالٍ ما، وكثيرًا ما يحصلون ـ لا ينفقونه إلا في دكان «لي تشونغ». ذلك بأنهم كانوا زبائن نشيطين، تكمن في نفوسهم القدرة على الشراء. ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحدّ. كان يكفي أن يستنجد «لي تشونغ» بمستأجري بيته ـ إذا ما أحدث سكّيرٌ شغبًا في الدكان، أو إذا ما أقبل حشدٌ من الصبية، من «نيو مونتيري» ابتغاء السلب والنهب ـ حتى يهرع هؤلاء إلى نجدته. ورابطةٌ أخرى أحدثَتْها سُكنى الشباب في ذلك المنزل ـ إنك لا تستطيع أن تسرق مَن أحسن إليك. ومن هنا عاد الوَفر الذي حقّقه «لي تشونغ» من تعفّف الشباب عن علب اللوبياء والطماطم والحليب والبطيخ الأحمر التي في دكانه ـ عادَ عليه ذلك الوَفْر بأكثر من قيمة الإجارة. وإذا كانت دكاكين البقّالين في نيو مونتيري تعاني تناقصًا فجائيًّا متعاظمًا في بضائعها فليس ذلك من شأن «لي تشونغ» البتة.

ودخل الشبّان البيت، وخرج مسحوق السمك المجفّف منه. وليس يدري أحدٌ من ذا الذي سمّى ذلك البيت بالاسم الذي عُرف به منذ ذلك الحين: «بالاس فلوبهاوس غريل». إنهم ما كانوا في حاجة، يومَ عاشوا في البراميل وفي ظلّ شجرة السرو، إلى أثاث، ولم يكن ثَمّةَ متّسَعٌ لشيء من مثل ذلك وغيره من الطُّرَف الصغيرة التي هي ميزة حضارتنا بل حدودها الفاصلة. أما وقد نزلوا الـ «بالاس فلوبهاوس» فقد شرعوا يؤثثونه. وهكذا

نبعَ هنا كرسيّ، وبرز هناك سرير، ثم كرسيٌّ آخر. وزوّدهم مخزنٌ للخردوات بعلبة من الدهان الأحمر، من غير أن يتبرّم أو يتذمّر، لأنه لم يحسّ بوجودها قَطّ، فما تكاد تظهر في ذلك «القصر» طاولة جديدة أو موطئٌ منخفض حتى يُدهَن فيستعيد جماله وجِدّته، ويتنكّر في الوقت نفسه إلى حدٍّ ما، فلا يتبيّنه مالكُه السابق. وكذلك أخذ «بالاس فلوبهاوس غريل» يعمل. لقد صار في مَيْسور الفتيان أن يجلسوا تجاه بابه، ويُشرفوا عَبْرَ الخط الحديدي وعَبْرَ الأرض الفضاء، وعَبْرَ الشارع، إلى نوافذ «المختبر البيولوجي الغربي». صار في مَيْسورهم أن يسمعوا الموسيقى المنبعثة من المختبر في موهن من الليل. وكانت أعينهم تتبع «دوك» عَبْرَ الشارع، وهو يقصِد إلى دكان «لي تشونغ» طلبًا للجعة.

وقال ماك:

ـ «دوك هذا فتى طيب. ينبغي أن نعمل شيئًا من أجله.»

- 2 -

الكلمة رمزٌ وبهجة. إنها تمتصّ الناس والمشاهد والأشجار، والنباتات، والمصانع، وأبناء بكين. عندئذٍ يصبح «الشيء» هو «الكلمة» ثم يعود شيئًا من جديد، ولكنه محرّف ومنسوج على نمطٍ وهميّ غريب. فقد امتصّت «الكلمة» شارع السردين المعلّب، وتمثّلته، ثم قاءته، فاتخذ الشارع لمعان العالَم الأخضر والبحار العاكسة للسماء. إنّ «لي تشونغ» هو أكثر من بقّال صينيّ. وينبغي أن يكون كذلك. لعلّه الشرّ يوازنه الخير ويُمسك به ـ كوكب آسيوي سيّار يُبقيه في فَلَكه جَذْبُ لاوتسي(*)، وتقصيه عن لاوتسي قوةُ العدّاد والآلة التي تسجِّل قيَم المبيعات، المُبْعِدة عن المركز ـ وهكذا تأرجح «لي تشونغ»، منفتلًا في سرعة، بين بضائع البقّال وبين الأشباح. إنه رجلٌ صعب القياد تجاه علبة من اللوبياء المحفوظة، سهلٌ رقيق الفؤاد أمام عظام جدّه. ذلك بأنّ «لي تشونغ» نبش القبر في «البقعة الصينية» فوجد العظام الصفر، والجمجمة. وكان الشعر الأشيب الشبيه بالحبال لا يزال لاصقًا بها. وجمع «لي» العظام وعظمي الفخذين وقصبتي الساق، ووضع الجمجمة

(*) فيلسوف صينيّ Lao-tse، ولد حوالى 604 ق. م. ويُفترَض أنه مؤسّس الديانة الطاويّة Taoism. (المعرِّب)

في كثير من العناية، في وسط صندوق، وأحاطها بعظم الحوض والترقوة، راصفًا الأضلاع على الجانبين جميعًا. ثم إنّ «لي تشونغ» أرسل جدّه الهشّ المعبّأ في صندوق إلى ما وراء البحر الغربي ليرقد آخِرَ الأمر في تربةٍ جعلها أسلافُه مقدّسة.

وكذلك يدور ماك ورفاقه الفتيان في أفلاكهم. إنهم «فضائل» جنون مونتيري المشوِّهِ العاجل، و«نِعَمهُ» و«جَمالاته»، مونتيري الكونية حيث الناس، بِسائقٍ من الخوف والجوع، يُفسدون مِعَدَهم في القتال من أجل الحصول على شيء من طعام، وحيث الناس الظمأى إلى الحب يفسدون كلّ محبّب جميلٍ في نفوسهم. أجل، إنّ ماك وصَحْبَه الفتيان هم «الجمالات»، و«الفضائل» و«النِّعم». ففي عالَم يهيمن عليه أنمارٌ مصابة بقرحة في المعدة، ويشقّ تُلومه ثيرانٌ مصابةٌ بتضيُّق، وينظّف شوارعه بناتُ آوى مصابة بالعمى، يتعشّى ماك وصَحبه الفتيان، في رقة ودقة مع الأنمار، ويغنّجون العجول الهائجة، ويجمعون الفُتات ليُطعموا طيور النَّوْرس في شارع السردين المعلّب. وأيّ فائدة يمكن أن يجنيها المَرْءُ من الاستيلاء على العالَم كلِّه إذا كان يواجه ممتلكاتِه بقرحةٍ في المعدة، وتضخّم في البروستاتا، ونظارتين مزدوجتين للرؤية القريبة والبعيدة؟ إنّ ماك وصحابه لَيجتنبون الشَّرَك، ويدورون حول السُّمّ، ويطأون على الحبائل، في حين يصرخ في وجوههم جيلٌ من الرجال والنساء المسمومين الواقعين في الأشراك ويدعونهم جماعةَ لا خير فيهم ـ جماعةً فاشلين هم عار على البلدة ـ ولصوصًا، ومحتالين، وأفّاقين متبطّلين. وليس من شكّ في أنّ أبانا الذي في الطبيعة، والذي خلعَ هِبَةَ البقاء على الذئب، والقطة السمراء، والدوريّ الإنكليزيّ، والذبابة، والعثّة ـ ليس من شكّ في أنه يحب حبًّا عظيمًا غامرًا جماعةَ الذين لا خير فيهم، والذين هم عار على البلدة، والأفّاقين المتبطّلين وسائر الصحاب. فضائل ونِعَمٌ وكسلٌ ومتعة بالغة. أبانا الذي في الطبيعة!

- 3 -

تقوم دكان «لي تشونغ» إلى يمين قطعة الأرض الخالية (أمّا السبب الذي من أجله وُصفت بهذا النعت على الرغم من أنها تغصّ بالمراجل العتيقة والبراميل الصدئة والأخشاب الضخمة المربعة، وأكداسٍ من علب الصفيح التي تتسع كلٌّ منها لخمسة غالونات فسرٌّ مستغلق على القوم جميعًا). وفي مؤخرة الأرض الخالية يمتدّ خطّ السكة الحديدية وينهض «قصر فلوبهاوس». ولكن إلى تُخومها اليسرى ينتصب ماخور دورا فلاد الصارم المَهيب ـ إنه ملهى على الطراز القديم، لائق، نظيف، مستقيم، يستطيع المرء أن يحتسي فيه كأسًا من الجعة مع أصدقائه، لا بؤرة من تلك البؤر الرخيصة غير المسؤولة التي تقدّم إلى زبائنها الأفيون والمُسكِرات المحرّمة. إنه منتدّى فاضلٌ صلب العود، أسَّسَته وأشرفت عليه دورا فلاد التي سلخت خمسين عامًا كفتاة وصاحبة بيت للبغاء استطاعت خلالها ـ من طريق اللباقة والأمانة والإحسان وشيء من الواقعية ـ أن تكسب احترام الأذكياء والمثقفين وأضرابهم. وهي لهذه الصفات نفسها بغيضة إلى قلوب بنات جنسها الفاسقات المتزوجات اللواتي يحترم أزواجهن بيت الأسرة، ولكنهم لا يحبونه كثيرًا.

ودورا امرأة ضخمة ـ امرأة ضخمة كبيرة ذات شعر برتقاليّ ملتهب وولوعٌ بأثواب السهرة الخضراء الضاربة إلى الزُّرقة. إنها تُدير بيتًا قديمًا ذا سعر موحّد، فهي لا تبيع المُسكِرات الحادّة الشديدة الإسكار، ولا تجيز الأحاديث الصارخة أو المبتذلة في بيتها. وثَمَّةَ بين بناتها مَن غدوْن عديمات الفعالية، بسببٍ من ارتفاع السنّ والعجز الجسماني، ولكنّ دورا لا تسرّحهن، على الرغم من أنّ بعضهنّ، كما تقول هي، لا يُغوين ثلاثة غلمان كلَّ شهر، ومع ذلك فهنّ ما يفتأن يتناولن ثلاث وقعات من الطعام كلَّ يوم. وفي لحظة من لحظات الحب المحلّيّ سمّت دورا محلّها «رستوران بير فلاغ». وهو يضمّ في العادة اثنتي عشرة بنتًا ـ فيهنّ العجائز ـ وطاهيًا يونانيًا، ورجلًا يدعونه الحارس، ولكنه ينهض في الواقع بمختلف ضروب المهامّ الدقيقة والخطيرة، فهو يضع حدًّا للمشاجرات ويطرد السكارى، ويلطّف من حدّة الهستيريا، ويداوي الصداع، ويساعد في البار. إنه يضمّد الجراح وآثار اللكَمات، وينفق ساعات النهار مع رجال الشرطة . وإذ كان نصف البنات من المؤمنات بـ «العلم المسيحي»(*)، فقد كان يتلو عليهنّ في صوت عالٍ نصيبَه من كتاب «العلم والصحة» صباحَ الأحد. والواقع أنّ سَلَفه ـ وكان دونه اتزانًا ـ انتهى إلى مصير بشع كما سنفصّل بعدُ، ولكن ألفرد انتصر على بيئته ورفع من مستواها. لقد عرف أيّ الرجال ينبغي أن يكونوا هناك، وأيّ الرجال ليس ينبغي أن يكونوا هناك. وهو يعرف عن حياة مواطني مونتيري العائلية أكثر مما يعرفه أيُّما رجل آخر في البلدة.

أمّا دورا فهي تحيا حياة مجازفة صعبة. وإذ كانت تعمل ضدّ القانون، أو ضدّ حرفيته على الأقلّ، فقد تعيّن عليها أن تخضع للقوانين ضعفَ

(*) نظام في التعليم الديني مَبنيّ على الكتاب المقدَّس، وهو يقول بمعالجة الأمراض بالطرائق العقلية والروحية. وقد أسّسَته حوالى سنة 1866 السيدة ماري بايكر إيدي. (المعرِّب)

خضوع أيّما شخصٍ ثانٍ. ينبغي أن لا يكون ثَمَّةَ سكارى، ولا شِجار ولا ابتذال وإلا أغلقوا أبواب محلّها. ليس هذا فحسب. بل لقد كانت، باعتبار نشاطها غير الشرعي، مضطرةً إلى أن تصطنع الإحسان وتغلو فيه. كان كلّ امرئ يقسو عليها. فلو أنّ رجال الشرطة نظّموا حفلة راقصة تعزيزًا لصندوق تقاعدهم واكتتب كلّ إنسان بدولار واحد فإنهم كانوا يفرضون على دورا أن تدفع خمسين دولارًا. وحين عمدت غرفة التجارة إلى تحسين حدائقها أسهمَ كلٌّ من التجار بخمسة دولارات أمّا دورا فطُلِب إليها أنه تُسهم بمئة، ففعلت. والشيء نفسه يصحّ في كلّ شيء آخر، ففي التبرّعات للصليب الأحمر، وصندوق الإسعاف، ومنظمة الكشّاف تتوَّج اللوائح كلُّها بأجور الخطيئة القذرة، الوقحة، غير المُذاعة، وغير المطنطَن بها. ولكنَّ الضربة كانت أشدّ وأقسى في سنوات الأزمة والضيق. فبالإضافة إلى المبرات المألوفة عُنيت دورا بأمر أطفال شارع السردين المعلّب الجائعين وآبائهم العاطلين عن العمل، وأمهاتهم اللواتي ركبهنّ الهمّ، وسددت فواتير البقالين ذات اليمين وذات الشمال طَوالَ سنتين كاملتين، وكادت تُفلس حقًّا بسببٍ من ذلك. وبنات دورا سائغات مدرّبات تدريبًا حسنًا. إنهن لا يتحدّثن أبدًا إلى رجل في الشارع، وإن يكن قد قضى الليلةَ البارحةَ عندهنّ.

وقبل أن يتقلّد آلفي، الحارس الحالي، مهامّ عمله وقعت مأساة في الـ «بير فلاغ» أحزنت القوم جميعًا. فقد كان الحارس السابق يدعى وليم، وكان رجلًا داكن الوجه تبدو عليه أمارات التوحد. كان يضجر من رفقة البنات في ساعات النهار حين تقلّ مهامُّه. ومن خلال النوافذ كان يرى إلى ماك والغلمان قاعدين على البراميل وسط الأرض الخالية، وقد تدلّت أقدامهم في عشب الخُبّازى، ونعمت أجسادهم بأشعة الشمس، فيما هم يتطارحون في بطء وتفلسفٍ أشياء قد تكون ذات إمتاع ولكنها ليست بذات شأن. وبين الفَيْنة والفَيْنة، كان يراهم يتناولون زجاجةً من «أحذية التنس

العتيقة» ويمسحون عنقها على أردانهم، ثم يكرعون منها الشراب واحدًا بعد واحد. ومع الأيام صار وليم يتمنى لو يكون في مَيْسوره الالتحاق بتلك العصبة الطيّبة. وذات مرّة انطلق من بيت دورا وجلس على أحد البراميل. فتعطّل الحديث وران على الجماعة صمت قلقٌ بغيض. وبعد لحظة انقلب وليم يائسًا محزون الفؤاد إلى مقرّ عمله؛ ومن خلال النافذة رأى إلى الحديث يُستأنف من جديد، فزاده ذلك حزنًا على حزن. كان ذا وجه داكن بشع، وفم لواه الإمعان في التأمل.

وفي اليوم التالي التحق بالجماعة كَرَّةً ثانية، ولكنه حمل معه هذه المرة زجاجة من الويسكي. وشرب ماك والغلمان الويسكي، ولم يتكشّفوا عن خبل، على أيّة حال، ولكنَّ حديثهم لم يَعُدْ قولهم «نتمنى لك حظًّا سعيدًا» وما شابهها.

وبعد فترة يسيرة رجع وليم إلى بيت دورا وراقب الغلمان من النافذة، فسمع ماك يقول بصوت عالٍ:

ـ «ولكن لعنها الله. إني أُبغض القوّاد!»

وواضحٌ أنّ ذلك لم يكن صحيحًا، على الرغم من أنّ وليم ما كان يعرف هذا. كلّ ما في الأمر أنّ ماك وصحبه الفتيان لم يحبّوا وليم.

وانكسر فؤاد وليم. إنّ الأفّاقين المتبطّلين لا يرحّبون بإلمامه بساحتهم. إنهم يشعرون أنه دونهم قدرًا، دونهم بمراحل كثيرة. وكان وليم، عمرَه كلَّه، انطوائيًّا متهِمًا لذاته. فوضع قبّعته على رأسه ومضى على شاطئ البحر حتى انتهى إلى المنارة. وهناك وقف في المقبرة الصغيرة الأنيقة حيث تستطيع أن تسمع الأمواج تقرع طبولها أبدًا. وطافت في رأس وليم أفكار سوداء قانطة. إنّ أحدًا لا يحبّه، وإنّ أحدًا لا يُعنى بشأنه. قد يَدْعونه حارسًا، ولكنه في الواقع قوّاد ـ قوّاد قذر، أحطّ شيء في الدنيا. وعندئذٍ فكّر في أنّ له الحق في

أن يعيش، وفي أن يكون سعيدًا كأيّ امرئ آخر. فانقلب على أعقابه غاضبًا. ولكنّ غضبه تلاشى حين انتهى إلى بيت دورا، ورَقِيَ درجات سُلَّمِه. كان المساء قد هبط، وكان الفونوغراف يتغنّى بأسطوانة «حصاد القمر».وتذكّر وليم أنّ أوّل صائدة ألقت إليه بصنّارتها كانت تحبّ تلك الأغنية قبل أن تُطلق ساقيها للريح وتتزوج وتختفي. وأوقعت الأغنية أعمق الحزن في قلبه. وكانت دورا في حجرة الاستراحة الخلفيّة تشرب فنجانًا من الشاي عندما دخل عليها وليم. فقالت له:

ـ «ما بالُك، أمريضٌ أنت؟»

ـ «لا. ولكن ما الفائدة؟ أنا أحسّ أني وضيعٌ خسيس. وإني خليق بأن أقتل نفسي.»

وكانت دورا قد عرفت، في زمانها، عددًا كبيرًا من صرعى الأمراض العصبية، وكان من دأبها أن تسخر منهم. وهكذا قالت لوليم:

ـ «حسنًا، إفعل ذلك في الوقت المناسب لك، وحذارِ أن توسّخ ثيابك البالية!»

ورانت على فؤاد وليم غمامة قاتمة رطبة، فانسحب في تؤدة ومضى ليطرق الباب على إيفا فلانغان، وكانت ذات شعر أحمر، تقصد للاعتراف كلَّ أسبوع. كانت فتاةً تقيّة جدًّا، وكان لها عدد كبير من الإخوة والأخوات، ولكنها كانت تعاقر الخمر في بعض أحوالها المفاجئة. وكانت تطلي أظافرها وتلطّخها تلطيخًا رديئًا عندما دخل عليها وليم، وكان يعرف أنها حامل ودورا لا تجيز للبنت الحامل أن تعمل. كانت أصابعها مصقولة حتى المفصل الأول وكانت غاضبة، فلم تكد تراه حتى قالت:

ـ «ما الذي يتأكّلك؟»

فعصف الغضب بوليم أيضًا، وقال في ضراوة:

ـ «سوف أقتل نفسي!»

فصرخت إيفا في وجهه:

ـ «هذه خطيئة قذرة خسيسة نتنة. ألست تستطيع أن تنتظر حتى أتمكّن من القيام برحلة إلى «إيست سانت لويس»؟ إنك ابن زنا لا تصلح لشيء...»

وكانت لا تزال تعنّفه عندما صفق وليم الباب خلفه ومضى إلى المطبخ... لقد تعب من النساء، وليس من ريب في أنه سوف يجد رَوْحًا عند الطاهي اليوناني.

وكان اليوناني في مئزره الضخم، وقد رفع رُدْنَيْه إلى أعلى، يقلي شرائح من ضلع الخنزير في مقلاتين واسعتين، وكان يقلّبها بمعول من معاول تكسير الثلج. فما إن رآه حتى رحّب به قائلًا:

ـ «هالو كيتس! كيف حالك؟»

وفحّت أضلاع الخنزير وخشخشت في المقلاة.

فقال وليم:

ـ «لست أدري... إني أفكّر في بعض الأحيان أنّ خير ما أصنعه هو أن أحتزّ حنجرتي.»

ووضع اليوناني مِعْوَلَه الثلجيّ على الموقد وغالى في رفع رُدْنَيْه إلى أعلى، وقال:

ـ «سأخبرك ماذا أسمعه يا كيتس. أنا أسمع أنّ الرجل الذي يتحدث عن مثل هذه الأمور لا يُقدم عليها أبدًا.»

وامتدّت يد وليم إلى المِعول فأمسكت به. وحدّقت عيناه إلى عيني اليوناني الداكنتين، فرأى الشكّ والمتعة الهازئة. وفيما كان يحدّق، رانَ القلقُ على عيني اليوناني ثم عصف بهما الهمّ. ولاحظ وليم ذلك التطور ـ رأى أولًا كيف أدرك اليوناني أنّ في مَيْسوره أن يُقدم على قتل نفسه، ثم رأى كيف أدرك أنه على وشك أن يُقدم على ذلك. ولم يكد وليم يشهد هذا كلَّه في عيني اليوناني حتى أيقن أنّ من المحتّم عليه أن يخطوَ الخطوة الحاسمة. لقد لفّه الحزن، لأنَّ المسألة بدت الآن سخيفة. وارتفعت يده، وأُغمِد المعول في قلبه. والحقّ أنّ السهولة التي شقّ فيها طريقه إلى هناك كانت مذهلة. لقد كان وليم هو الحارس قبل أن يأتي ألفرد. وإنّ كلَّ امرئ لَيُحبّ ألفرد. كان في مَيْسوره أن يقعد على البراميل مع ماك وسائر الرفاق ساعةَ يشاء بل لقد كان يزورهم في الـ «بالاس فلوبهاوس» أيضًا.

- 4 -

وفي المساء، عند الغسق تمامًا، وقع حادث عجيب في شارع السردين المعلّب. لقد وقع في الفترة الممتدة ما بين غروب الشمس وإضاءة مصباح الشارع. وتلك فترة قصيرة مربدّة. لقد هبط الكثيب، مجتازًا الـ «بالاس فلوبهاوس» إلى حظيرة الدجاج، ومن ثَمّ إلى قطعة الأرض الفضاء، رجلٌ صينيٌّ عجوز. كان يلبَس قبّعة من القشّ مسطّحة، وثوبًا أزرق من نسيج قطنيّ مقلّم، وسترة وبنطلونًا، وحذاءً ثقيلًا كانت فردةٌ منه غير محكمة الربط بحيث كانت تصفع الأرض صفعًا وهو يمشي. وبيده كان يحمل سلّة خوصيّة مغطّاة. كان وجهه شاحبًا قاتمًا، بقدر ما كان متوترًا متشنّجًا، وكانت عيناه داكنتين. حتى بياضهما كان داكنًا غائرًا إلى درجة بدتا معها وكأنهما في حفرتين عميقتين. لقد أقبل مع الغسق تمامًا، واجتاز الشارع ومضى عَبْرَ الفُرجة القائمة بين المختبر البيولوجي الغربي ومصنع هيديوندو لحفظ السردين في العلب. ثم إنه عَبَرَ الساحل الرمليّ الصغير واختفى بين أعمدة الفولاذ التي تدعم رصيف الميناء. ولم يره أحدٌ بعد ذلك قَطّ، حتى مطلع الفجر.

ولكن ما إن ارتفع الضحى، في ذلك الوقت الذي يُطفأ عنده مصباح الطريق ويكون ضوء النهار لمّا ينبثق بعد، حتى دبّ الصينيّ العجوز من

خلال الأبنية وعَبَرَ الساحل الرمليّ والشارع. كانت سلّته الخوصيّة مُثقلة نديّة، وكانت تتدلّى من يده. وصفقت فردة حذائه الرخوة على حصباء الطريق. وتسلّق الكثيبَ إلى الشارع الثاني، واجتاز بابًا في سياج خشبيّ عالٍ، ليختفيَ عن الأبصار حتى يهبط المساء. وكان الناس يسمعون، وهم نيام، طقطقة حذائه المنحلّ الرباط، فيُفيقون من سُباتهم لحظة. لقد تكرّر ذلك طَوالَ سنوات، ولكنَّ أحدًا لم يألفه قَطّ. وخالَ بعض الناس أنه الله، وظنّ العجائز الطاعنون في السنّ أنه الموت، على حين قدّر الأطفال أنه صينيّ عجوز ظريف إلى أبعد الحدود، ولا عجب في ذلك فالأطفال يحسبون كلّ كائن عجوز وغريب ظريفًا مضحكًا. ولكنَّ الأطفال ما كانوا يسخرون منه أو يصيحون في وجهه كما ينبغي لهم، ذلك بأنه كانت ترافقه حيثما وجدوه، غمامة صغيرة من الهول والرعب.

إنّ غلامًا واحدًا ليس غير اجترأ على أن يعترض سبيل الصينيّ العجوز، يومًا. كان ذلك الغلام شجاعًا جميلًا، في العاشرة من سنيه، يُدعى آندي، من بلدة ساليناس. وكان آندي، في زيارة لمونتيري، فرأى إلى العجوز وأدرك أنّ من الحتم عليه أن يصرخ في وجهه إبقاءً على احترامه الذاتي. ولكن حتى آندي ذو الفؤاد الجريء، استشعر شيئًا من الخوف عند رؤيته. وراقبه آندي يمضي لسبيله ليلةً بعد ليلة، فنشأ في ذات نفسه صراع ما بين واجبه وخوفه. وأخيرًا حزم آندي أمره، ذات مساء، وسار خلف الرجل العجوز منشدًا في صوت جهوري: «بينا كان رجل صينيٌّ قاعدًا على خطّ السكة الحديدية، أقبل رجل أبيضُ وقطع ذَنَبَه...»

ووقف الرجل العجوز، والتفت إلى وراء. ووقف آندي. وحدّقت العينان السمراوان العميقتان إلى آندي، وتحرّكت الشفتان الهزيلتان المطبقتان. أمّا ما حصل بعد ذلك فلم يكن في مستطاع آندي أن يشرحه قَطّ أو ينساه. ذلك أنّ العينين انتشرتا حتى لم يعد ثَمّة رجل صينيّ. ثم

غدتا عينًا واحدة ـ عينًا ضخمة داكنة كبيرة مثلَ باب كنيسة. وتطلّع آندي إلى ذلك الباب اللامع الشفّاف فرأى من خلاله ريفًا موحشًا ينبسط أميالًا وأميالًا لينتهيَ عند سلسلةٍ من جبالٍ غريبةٍ انتصبت على شكل رؤوس بقر وكلاب، وخيام ونبات فطر. وكان يوشّح السهلَ عشبٌ خشِنٌ دانٍ، وكانت هنا وههناك هضبة صغيرة. وكان يجلس على كلّ هضبة حيوان صغير مثل خنزير الأرض. وأعول آندي لدن رأى إلى توحّد البقعة ووحشتها الباردة، لأنه لم يكن ثَمَّةَ إنسان آخر غيره. وأغمض عينيه لكي لا يرى ذلك المشهد كَرَّةً أخرى. وحين فتحهما ألفى نفسه في شارع السردين المعلّب وقد اتخذ الصينيّ العجوز، منذ لحظات، سبيله المألوف مصفقًا بفردة حذائه الرخوة ما بين المختبر البيولوجي الغربي ومصنع هيديوندو لحفظ السردين في علب الصفيح. كان آندي هو الغلام الأوحد الذي أقدم على ذلك الصنيع، ثمّ لم يعد إلى مثله بعد ذلك قَطّ.

- 5 -

كان «المختبر البيولوجي الغربي» ينْهض عَبْرَ الشارع مباشرةً، تجاه قطعة الأرض الخالية، القائمة إلى يمينها دكان «لي تشونغ» والقائم إلى يسارها بيت دورا. وإنما يُعنى «المختبر البيولوجي الغربي» بالسلع العجيبة الجميلة. فهو يبيع حيوانات البحر الحلوة، والإسفنج، والزقّيّات، والدَّيسم، ونجوم البحر، وذوات الأصداف المزدوجة، والبرنقيل أو الأطوم، والديدان، والأصداف، وأزهار البحر الحية المتحركة، والحلازين الجميلة الملوّنة غير ذات الأصداف، والحلازين المغطّاة الخياشيم، وقنافذ البحر ذوات الإبر، والسراطين وأنصاف السراطين، والتنانين الصغيرة، وجراد البحر الكبير، وجراد البحر الشبحيّ ذا الشفافية البالغة التي تجعله لا يلقي ظلًّا ما، أو يكاد. والمختبر البيولوجي الغربي يبيع الخنافس، والحلازين، والعناكب، والأفاعي المجلجلة، والقطط، والنحل، والجراذين الكبيرة السامّة. ليس هذا فحسب. بل هنالك أيضًا أجنّة بشرية لم تولد، بعضها كامل وبعضها مقطّع شرائحَ هزيلة منشورة على ألواح من الزجاج. ولطلاب المدارس توجد قروش(*) استنزِفت دماؤها وأُفرغت في

(*) جمع قرش وهو شبيه بكلب البحر.

أوردتها وشرايينها سوائل صفراء وحمراء لكي يكون في مَيْسورك أن تتابع الحركة الدموية بواسطة المِبضع. وهناك قطط مصبّغة الأوردة والشرايين وضفادع مثلها. وجماع القول أن في مَيْسورك أن تلتمس كلّ شيء حيّ، في «المختبر البيولوجي الغربي»، فتفوز به عاجلًا أو آجلًا.

إنه بناء منخفض مواجه للشارع. فأمّا الدور الأرضي فمستودع ذو رفوف، رفوفٍ ملأى حتى السقف، مثقلة بقوارير الحيوانات المحفوظة من الفساد. وفي هذه الدور بالوعة وأدوات للتحنيط والتلقيح. ثم إنك تجوز الفِناء الخلفي إلى سقيفة ذات دعائم. وهنا تلقى صهاريج للحيوانات الكبرى، للقروش وضروب الأسماك الغضروفية المسطّحة والأخطبوط. وفي مقدمة البناء سُلّم وباب يقود إلى مكتب تقوم فيه منضدة يعلوها ركام من صحف ورسائل لمّا تُفتح بعد، وخزائن ذوات أدراج خاصة بالمصنّفات، وصندوق حديدي بابه مفتوح ومدعّم بسِنادٍ يحول بينه وبين الانغلاق. ذلك بأنّ الصندوق أُغلق ذات يوم، سهوًا، فلم يعرف أحدٌ تلك الأرقام التي بها يُفتح قفله. وكانت في الصندوق الحديدي علبة سردين مفتوحة وقطعة جبن من نوع روكفور. وقبل أن يتيسّر الحصول على «كلمة السر» من صانع القفل عرف الصندوق بعض المتاعب. وعندئذٍ استنبط «دوك» وسيلة للانتقام من أحد المصارف إذا ما رغب أيُّما امرئ في ذلك. فقال في ذات نفسه: «إستاجرْ صندوقًا حديديًا من صناديق المصرف ذوات المفتاحين، ثم ضَعْ فيه سمكة كاملة طازجة من النوع المعروف بحوت سليمان وغِبْ ستة أشهر كاملة.» حتى إذا سُوّي أمر القفل لم يَعُدْ من الجائز حفظ الطعام هناك، البتة. لقد صار يُحفظ منذ ذلك الحين في أدراج الملفّات. وتقوم وراء المكتب غرفة تعجّ بأحواض فيها ضروب الحيوانات الحية. وهناك أيضًا المجاهر ورُقاقات الزجاج وخزائن العقاقير، وصناديق تنطوي على أدوات المختبر الزجاجية، ومقاعد العمل، والمحرِّكات الصغيرة، والموادّ الكيميائية. ومن

هذه الغرفة كانت تنبعث روائح متباينة ـ روائح الفورمالين والسمك النجميّ المجفَّف، وماء البحر، والمانتول، وحامض الكربوليك، وحامض الخلّيك، وروائح ورق الصرّ الأسمر، والقشّ، والحبال، وروائح الكلوروفورم والأثير ـ روائح الأوزون الفائحة من المحرّكات، وروائح الفولاذ الخالص والدهان الرقيق المنطلقة من المجاهر، وروائـح خلّات الأميل وأنابيب المطّاط ـ روائح الجوارب الصوفية الآخذة في الجفاف، والأحذية الطويلة الساق، ورائحة الأفاعي المجلجلة الحرّيفة الحادّة، ورائحة القطط الكريهة المفزعة. ومن خلال الباب الخلفي كانت تنبعث رائحة أعشاب البحر والبرنقيل أو الأطوم في حال الجزْر، ورائحة الملح ورشاش الماء في حال المدّ.

وإلى يسار المكتب بابٌ يقود إلى المكتبة. كانت ثَمَّةَ خزائن كتب مرتفعة حتى السقف، وصناديق محشوّة بالكراريس والكتب على اختلافها من معاجم وموسوعات ودواويـن شعر ومسرحيّات. وكـان يقوم إلى جانب الجدار فونوغراف ضخم ومئات من الأسطوانات مركومة غير بعيد منه. وتحت النافذة سرير مصنوع من ألواح الشجر المعروف بـ «الخشب الأحمر». وعلى الجدران وخزائن الكتب عُلِّقت صورٌ معادةٌ لـ «دوميه» و«غراهام» و«تيتيان» و«ليوناردو» و«بيكاسو» و«دالي» و«جورج كروسز»، عُلِّقت بدبابيس هنا وهناك، وعلى مستوى النظر، بحيث تستطيع أن ترى إليها إذا رغبت في ذلك. وفي هذه الغرفة الصغيرة كراسيُّ ومقاعد، وفيها السرير طبعًا. ولقد اتسع هذا المكان ذات مرة لأربعين شخصًا اجتمعوا فيه في آنٍ واحد.

ووراء هذه المكتبة، أو قاعة الموسيقى، أو سمِّها ما شئت، كان المطبخ وهو غرفة ضيّقة ذات فرن غازيّ وسخّانة للماء، وبالوعة. ولكن فيما كان بعض الطعام يُحفظ في أدراج الملفّات بالمكتب، كانت الصحون ودهن الطبخ والخُضر تُحفظ في خزائن كتب ذات بيوت مستقلة وواجهات زجاجية

في المطبخ. ولم تُمْلِ ذلك غرابة في الأطوار خاصة. لا. لقد حدث مصادفة واتفاقًا. ومن سقف المطبخ كانت تتدلى قطعٌ من لحم الخنزير المقدَّد، والنقانق، «وخيار البحر» الأسود. وخلف المطبخ كان كنيفٌ وحمّام. ولقد ظلّ جهاز الماء في الكنيف يرشح خمس سنوات بكاملها حتى أصلحه ضيف بارع ظريف بقطعة من اللبان أو العلك.

و«دوك» هو صاحب «المختبر البيولوجي الغربي» ومديره، وهو ضئيل الجسم ـ ضئيل الجسم إلى حدٍّ خادع لأنه صلب العود وقويّ جدًّا، ولأنه ما إن يعصف به الغضب حتى يغدو ضاريًا. إنّ له لحية، وإنّ له لَوَجْهًا نصفه مسيح، ونصفه رجل تتأكّله الشهوة الجنسية. ووجهه ذاك يقول الحقيقة. ويزعمون أنه أنقذ كثيرًا من الفتيات من بعض المتاعب ليُدخلهن في متاعب جديدة. ولـ «دوك» يدا طبيب مختصّ بجراحة الدماغ، وعقلٌ مروٌ يمور بالحياة. إنه يرفع قبّعته احترامًا للكلاب حين يمرّ بها قائدًا سيارته، فتتطلع الكلاب إليه وتبسم في وجهه. وفي مَيْسوره أن يقتل أيّما شيء بسائق الحاجة، ولكنه أعجز من أن يجرح حتى الأحاسيس والمشاعر بسائق المتعة. إنه يعاني خوفًا كبيرًا واحدًا ـ هو أن يبلّل الماء رأسه، ومن أجل ذلك تراه يلبس، في أيام الصيف والشتاء، قبّعة واقية من المطر. إنه يخوّض في مياه البحر حتى الصدر منْ غير أن يستشعر الرطوبة، ولكن نقطة من المطر كافية، إذا ما وقعت على رأسه، لأن تجعل الذعر يلفّه من أطرافه.

وطوالَ سنوات عديدة مكّن «دوك» لنفسه في شارع السردين المعلّب إلى حدٍّ لم يكن هو نفسه يتوقعه. لقد غدا ينبوع الفلسفة والعلم والفن. ففي المختبر سمعت البنات العاملات عند دورا الأغاني الكنسية والموسيقى الغريغورية أوّلَ ما سَمِعْنَها. وأصاخ «لي تشونغ» فيما كانت قصائد «لي بو»(*)

(*) شاعر صيني من أهل القرن الثامن بعد الميلاد (حوالى 700 - 762). (المعرّب)

تُتلى عليه بالإنكليزية. وهناك استمع هنري الرسام، أولَ مرة، لكتاب الموتى فهزّهُ إلى درجة جعلته يغيّر مادّة أصباغه. كان يرسم بالغِراء وصدأ الحديد وريش الدجاج الملوّن، ولكنه ما لبث أن اطّرحها ورسم صورَهُ الأربع التالية بصنوف مختلفة من قشر الجوز. وكان من دأب دوك أن يستمع إلى أيّما ضرْب من الهراء ويحوّله لك إلى ضرْب من الحكمة. كان عقله لا أفق له، وكانت مشاركته الوجدانية لا التواء فيها. وكان في مَيْسوره أن يتحدث إلى الأطفال قائلًا لهم أشياء عميقة جدًّا فلا يجدون عسرًا في فهمها. لقد عاش في عالم من العجائب، والإثارة. وكان شَبِقًا كالأرنب. لطيفًا كالجحيم. وكان كلّ من عرفه مَدينًا له، وكلّ من يفكّر فيه يُتبع تفكيره بالقول: «يتعيّن عليّ أن أعمل شيئًا حسنًا من أجل دوك.»

- 6 -

كان دوك يَصيد الحيوانات البحرية في «بركة المدّ والجزْر الكبيرة» القائمة في قنّة شبه الجزيرة. إنه موقع أسطوري. ففي لحظات المدّ يبدو أشبه شيء بحوض تمخضه الأمواج، فيطفو على سطحه الزبد، وقد ألهَبَتْه بسياطها أمواجٌ طويلة متمعّجة كانت تتدحرج من العوّامة الصافرة فوق سلسلة الصخور. حتى إذا بدأ الجزْر أصبح عالَم الماء الصغير هادئًا محبّبًا إلى القلب. فالبحر رائق جدًّا، والأعماق رائعة إلى أبعد الحدود بما تتكشّف عنه من حيوانات مسرعة، متقاتلة، طاعمة، متناسلة. كانت السراطين تندفع وسط الأعشاب البحرية. وكانت الأسماك النجمية تجلس القرفصاء على الحيوانات الحلزونية المزدوجة الأصداف، وضروب البطلينوس، وتُفرز ملايين مصاصاتها الصغيرة، ثم تجذب إلى أعلى جذبًا بطيئًا بقوة لا تصدَّق حتى تنفصل الفريسة عن الصخرة. وعندئذٍ تنبثق مِعَد الأسماك النجمية وتغلّف طعامها. وكانت الحلازين البرتقالية والمرقّشة والمثلّمة العارية الخياشم تنزلق رقيقةً فوق الصخور، وقد تماوجت حواشيها مثل أردية الراقصين الإسبان. وكانت جماعة الحنكليس الأسود تُطلع رؤوسها من الشقوق وتنتظر الفريسة. وكان جراد البحر (القريدس) المنقضّ ببراثنه الشبيهة بزناد البندقية يفرقع مدوّيًا. لقد غُطِّيَ العالم الملوّن البديع بصفحة

من الزجاج. فالسراطين المتنسّكة تعدو فوق الرمل القاعيّ كزُمرة من الأطفال الهائجين. حتى إذا رأى أحدُها إلى صدفة حلزون فارغة أعجَبَتْه أكثر من التي عنده دبّ معرّضًا جسده الناعم للعدوّ لحظة من الزمن ليندسّ بعد ذلك في الصدفة الجديدة. وتثب موجة فوق الحاجز، وتَمْخُضُ الماء الزجاجيّ لحظةً، وتثير حشدًا من الفقاقيع في البركة ما تلبث أن تخبو، فإذا بالموقع الأسطوري ذاك ينقلب ساكنًا حلوًا قاتلًا، كَرّةً أخرى. فههنا سرطانٌ ينتزع من جسد أخيه رِجلًا. ويتمدّد دَيْسَمُ البحر الشعاعيّ مثلَ أزهارٍ رقيقة ساطعة، داعيًا أيّما حيوان متعَب أو مرتبك إلى أن يضطجع لحظةً على ذراعيه. حتى إذا قَبِل سرطان صغير ما أو أحد متهزي الفرص في البركة تلك الدعوة الحمراء والأرجوانية، صفّقت البتلات، وغرزت الخلايا اللاسعة إبرًا مخدِّرةً صغيرة في جسم الضحية فيدبّ إليها الضعف، وقد يأخذها النعاس، فيما تذيب الحوامض الهضمية الكاوية المجفّفة جسدها وتقضي عليه.

ثم إنّ الفاتك الزاحف ـ الأخطبوط ـ يُقبل في تؤدة واحتراس، متحركًا مثل غمامة رمادية، متظاهرًا حينًا بأنه عشب، وحينًا بأنه صخر، وحينًا بأنه كتلة من لحمٍ عَفِن، فيما تراقب عيناه الشرّيرتان الشبيهتان بأعين المِعزى كلّ شيء، مراقبةً باردة. وما هي إلا لحظة حتى ينسلّ نحو سرطانٍ شَغَله الطعام. وفيما هو يقترب منه تتّقد عيناه الصفراوان، ويَحول جسدُه ورديًّا بلون التوقّع والثورة النابض. وفجأة يجري خفيفًا رشيقًا على رؤوس أذرعه، في مثل ضراوة قطة مهاجِمة بعنف. إنه يثب على السرطان، في وحشية، فيندلق منه سائل أسود، وتغيب الكتلة المناضلة خلف السحابة السمراء الداكنة، بينا يفتك الأخطبوط بالسرطان. وعلى الصخور المنبثقة من الماء كان الأطوم يقبق خلف جدرانه الموصدة، والبطلينوس يجفّ. ويهبط الذباب الأسود على الصخور ليأكل كلّ ما يقع عليه هناك. وتملأ الهواء رائحة اليود الحادّة المنبعثة من الطحلب البحري، ورائحة الكلس المنبعثة من الأجساد الجيرية،

ورائحة البروتيين القوية، ورائحة بيوض الأسماك. وعلى الصخور المكشوفة يلقي السمك النجميّ المنيّ والبيض من بين أذرعه. وتُثقل الهواء روائح الحياة والخصب، روائح الموت والتمثّل، روائح الفساد والولادة. ويندفع الرشاش المالح من فوق الحاجز حيث ينتظر المحيط قوة مدِّهِ الطامية ليسمح له بالعودة من جديد إلى «بركة المدّ والجزْر الكبيرة». وعلى الذروة تخور العوّامة الصافرة مثل ثور صابر حزين.

وفي تلك البركة تعاون دوك وهاتزل على العمل. وكان هاتزل يعيش في «بالاس فلوبهاوس» مع ماك والغلمان. وإنما فاز هاتزل باسمه هذا مصادفةً واتفاقًا، كما قد عاش عمرَهُ بعد ذلك مصادفةً واتفاقًا. وتفصيل ذلك أنّ أمّه المهمومة أنجبت سبعة أولاد في ثماني سنوات. وكان هاتزل هو الثامن، ولقد التبس على أمّه أمر ذكورته أو أنوثته عند ولادته. كانت متعبة منهوكة القوى على أيّة حال بسببٍ من انهماكها الموصول بتأمين الغذاء والكساء لسبعة أولاد ووالدهم. لقد جرّبَتْ كلّ طريقة ممكنة لاكتساب المال ـ الأزهار الورقية، ونبات الفطر في البيت، والأرانب للإفادة من لحومها وفرائها ـ فيما كان زوجها يقدّم إليها، من على كرسيّه القِنّبي، كلّ مساعدة تستطيع نصيحته وتفكيره وانتقاده أن تقدمها. وكانت لها عمة ذات شأن تدعى هاتزل، وكانت قد طارت لها شهرة بأنها تحمل وثيقة تأمين على الحياة. ولقد دُعِيَ الطفل الثامن «هاتزل» قبل أن تدرك أمُّه أنه غلام، وكانت قد ألِفتْ، خلال ذلك، هذا الاسم فهي لا تجشّم نفسها عناء تغييره. وترعرع هاتزل وشبّ ـ قضى أربع سنوات في مدرسة أوّليّة، وأربعًا أخرى في إحدى الإصلاحيّات فلم يتعلم أيّما شيء في أيٍّ من المعهدين. والإصلاحيّات يُفْتَرَض فيها أن تعلّم الرذيلة والإجرام، ولكن هاتزل لم يكن كثير الانتباه لدروسه. فخرج من الإصلاحيّة بريئًا من الرذيلة، براءتَهُ من الكسور والقسمة الطويلة. وكان هاتزل يحبّ سماع الحديث، ولكنه لم يكن يصغي

إلى الكلمات ـ بل إلى مجرّد جَرْس الحديث. كان يسأل أسئلة، لا ليسمع الأجوبة ولكنْ رغبةً في إبقاء المحادثة على تدفّقها ليس غير. وكان في السادسة والعشرين من العمر ـ داكنَ الشعر، حلو النفس، قويًّا، مَرِحَ الفؤاد، مخلصًا. وكثيرًا ما كان ينطلق مع دوك لجمع الحيوانات البحرية. ولقد كانت براعته في ذلك تتجلى واضحة حالما يدرك المهمة التي تُناط به. وعندئذٍ تنسلّ أصابعه مثل الأخطبوط، وتتخطّف وتنشب أظفارها مثل دَيْسم البحر. كان راسخ القدمين فوق الصخور الزَّلِقة، محبًّا للصيد. وكان دوك يعتمر بقبّعته الواقية من المطر ويلبس حذاءه المطّاطيّ الطويل الساق أثناء العمل، أمّا هاتزل فكان يخوّض في الماء لابسًا حذاء تنسٍ وبنطلونًا أزرق ليس غير. كانا يجمعان السمك النجميّ، بعد أن طلب أحد زبائن دوك تزويده بثلاثمئة سمكة منه.

والتقط هاتزل سمكة نجميّة أنيقة ضاربًا لونُها إلى الأرجوان، من قاع البركة، ودسّها في كيسه الخيشيّ الذي يكاد يمتلئ. ثم قال:

ـ «عجبًا لهؤلاء الناس... ما الذي يفعلونه به؟»

فسأله دوك:

ـ «ما الذي يفعلونه بماذا؟»

فقال هاتزل:

ـ «السمك النجمي. أنت تبيعه. ولسوف تملأ به برميلًا. ولكن ما الذي يفعله الناس به؟ إنه لا يؤكل.»

ـ «إنهم يدرسونه.» كذلك قال دوك في رباطة جأش وقد تذكّر أنه أجاب هاتزل عن هذا السؤال عشرات المرات. ولكن دوك كانت له عادةٌ عقلية لم يُوفّق إلى التغلب عليها. فما يكاد أحد يوجّه إليه سؤالًا حتى يظن

أنه راغب في معرفة الجواب. ذلك كان أسلوب دوك. فهو لم يسأل قَطّ عن شيء إلا إذا رغب في أن يعرف، ولم يكن قادرًا على أن يتخيّل أنّ ثَمّةَ عقلًا قد يسأل من غير ما رغبة في المعرفة. ولكن هاتزل، التائق إلى مجرّد سماع الأحاديث، كان قد طوّر طريقة تمكّنه من جعل الجواب عن سؤال ما أساسًا لسؤال آخر، وهكذا يظلّ الحديث دائرًا.

وأردف هاتزل:

ـ «وأيّ شيء يدرسونه فيه؟ إنه مجرّد سمك نجميّ. وهناك ملايين منه حولنا. في استطاعتي أن آتيَك بمليون سَمكة منه.»

فقال دوك في لهجة شبه دفاعية:

ـ «إنها حيوانات معقّدة طريفة. وفوق ذلك فهذه الأسماك سوف تذهب إلى الغرب الأوسط بناءً على طلب الجامعة الشمالية الغربية.»

واصطنع هاتزل حيلته، فسأل:

ـ «أليس عندهم سمك نجميّ هناك؟»

فقال دوك:

ـ «ليس عندهم أوقيانوس، هناك.»

ـ «اوه!» قال هاتزل ذلك وأجال بصره في ما حوله، بقنوط، بحثًا عن دبّوس يعلّق به سؤالًا جديدًا. كان يكره أن تخبو جذوة الحديث على هذه الشاكلة. ولم يكن سريع الخاطر. ففيما كان هو يبحث عن سؤال وجّه دوك إليه سؤالًا. وكَرِهَ هاتزل ذلك، فقد كان معناه التنقيب في عقله عن جواب، والتنقيب في عقل هاتزل أشبه ما يكون بطوافك متوحّدًا في متحف مهجور. ذلك بأنّ عقله كان يغصّ بجمهرة ضخمة من الأشياء والوثائق غير المفهرسة. إنه ما كان ينسى شيئًا البتة، ولكنه لم يجشّم نفسه، يومًا، عناء ترتيب ذكرياته

وتنسيقها. كان كلّ شيءُ يلقى به إلقاءً بعضه فوق بعض، مثل أدوات الصيد في قعر سفينة شراعية، حيث تختلط الصنانير والثّقالات والخيوط والأطعام والخطاطيف جميعًا.

وسأله دوك:

ـ «كيف تجري الأمور عندكم في ذلك القصر؟»

وأمرّ هاتزل أصابعه من خلال شعره الداكن وراح يحدّق إلى الأكوام المتراكبة في عقله، ثم قال:

ـ «لا بأس. إنّ ذلك الغلام، غاي، سوف يسكن معنا، في ما يبدو لي. ذلك أنّ زوجته تضربه ضربًا مبرِّحًا، وهو لا يجد في ذلك أيَّما بأس حين يكون يقظان، ولكن زوجته تنتظره حتى ينام ثم تُقبل لضرْبه. وهو يكره ذلك. لأنه يضطرّ إلى أن يُفيق من رُقاده، ويضربها، حتى إذا انقلب إلى فراشه عادت إلى ضرْبه من جديد. إنه لا يعرف طعم الراحة، ومن أجل ذلك يعتزم أن يعيش معنا.»

فقال دوك:

ـ «هذه طريقة جديدة. لقد كانت من قبل تستصدر تفويضًا باعتقاله والزجّ به في السجن.»

فقال هاتزل:

ـ «ياه! ولكن ذلك إنما كان قبل أن يبنوا السجن الجديد في ساليناس. في السابق، كان غاي إذا سلخ ثلاثين يومًا وراء القضبان تحرّق إلى الإفلات من محبسه. أمّا بعد أن بُني السجن الجديد ـ راديو في المخزن، ومقاعد جيّدة، ومدير رقيق دمث الأخلاق ـ فقد صار غاي يدخل إلى هناك ويأبى الخروج. لقد أحبّ ذلك المكان حبًّا عظيمًا حتى لقد أقلَعت امرأته عن

استصدار تفويض باعتقاله. وهكذا استنبطَتْ هذه الطريقة الجديدة فهي تضربه أثناء نومه. وهو شيء يحطّم الأعصاب، كما يقول. وأنت تعرف بقدر ما أعرف أنّ غاي لم يجد في يوم من الأيام متعةً ما في ضربها. لقد أقدم على ذلك إبقاءً على احترامه الذاتي ليس غير. ولكنه ملّ ذلك الآن. وأحسب أنه سوف ينضمّ إلينا وشيكًا.»

وتصدّر دوك. كانت الأمواج قد أخذت تثب فوق حاجز «بركة المدّ والجزْر الكبيرة». كان المدّ قد بدأ، وكانت أنهار صغيرة منبثقة من البحر قد شرعت تجري فوق الصخور. وهبّت الريح منعشةً مثيرةً العوّامة الصافرة. وأقبلت أُسود البحر نابحةً من مكان قريب. وردّ دوك قبّعته الواقية من المطر إلى مؤخّر رأسه، وقال:

ـ «لقد جمعنا مقدارًا كافيًا من السمك النجميّ.»

وسكت لحظة ثم أردف:

ـ «أُنظر يا هاتزل. أنا أدري أنّ في قعر كيسك ستة أو سبعة حلازين «آبالون» أصغر من الحجم العاديّ. ولست أشكّ في أنّك سوف تقول ـ إذا اعترض سبيلنا مراقب الصيد ـ إنّها لي، وإنّك جمعتها بإجازتي أنا، أليس كذلك؟»

فقال هاتزل:

ـ «حسنًا...»

فقال دوك في لطف:

ـ «أُنظر. لنفرض أنّ بعض زبائني سألني أن أقدّم إليه شيئًا من حلازين الآبالون، وأنّ مراقب الصيد اعتقد أنني أستعمل إجازة الجمع الخاصة بي أكثر مما ينبغي. لنفرض أنه أعتقد أني آكلها.»

فقال هاتزل:

ـ «حسنًا ـ إلى الجحيم.»

ـ «إنه مثل مجلس المُسكرات. إنّ لهم عقولًا مرتابة. فهم يحسبون دائمًا أنني أشرب الخمر. بل هم يحسبون كلَّ امرئ يشرب الخمر.»

ـ «حسنًا، ألا تشربها؟»

فقال دوك:

ـ «لست أسرف في الشراب. إنّ لتلك المادّة التي يُدخلونها على الخمر لَطَعْمًا فظيعًا، وإنّ اعادة تكريرها لَمُهِمّة صعبة.»

فقال هاتزل:

ـ «ليست تلك المادّة رديئة إلى هذا الحدّ. لقد تنشّقنا ريحها، أنا وماك، ذلك اليوم. ما الذي يضعونه فيها؟»

وكان دوك على وشك أن يجيب عندما أدرك أنّ السؤال لا يعدو أن يكون حيلة من هاتزل هذه المرة أيضًا، فقال:

ـ «فلنمضِ في سبيلنا.»

ورفع كيس السمك النجمي إلى كَتِفِه. وكان قد نَسِيَ حلازين الآبالون غير الشرعية التي في قعر كيس هاتزل.

وتبعه هاتزل بعيدًا عن بركة المدّ والجزْر، وارتقيا المجاز الزَّلِق إلى الأرض الصلبة. وفرّت السراطين الصغيرة من طريقهما، واستشعر هاتزل أنّ من الخير له أن يفرش طبقة من الإسمنت على ضريح مسألة الآبالونات هذه. فقال:

ـ «لقد رجع ذلك الشخص الرسّام إلى قصر فلوبهاوس.»

فقال دوك:

ـ «نعم؟»

ـ «ياه! لقد عمل صُوَرَنا جميعًا من ريش الدجاج، وهو يقول إنه ينبغي أن يُعيد رسْمَها كلَّها بقشر الجوز. يقول إنه قد غيّر أُسـ... أُسـ... لوبه.»

وضحك دوك ضحكة مكتومة:

ـ «ألا يزال يبني مركبه؟»

فقال هاتزل:

ـ «طبعًا. لقد أدخل عليه تغييرات أساسية. إنه الآن مركب من نوع جديد. وأغلب ظني أنه سوف يفكّكهُ ويعيد بناءه من جديد. دوك، أهو أبله؟»

ووضع دوك كيسه الثقيل، المليء بالسمك النجمي، على الأرض، ووقف لاهثًا بعض الشيء. وتساءل:

ـ «أبله؟ أوه، أجل، أظنّ ذلك. أبله بقدر ما نحن بُلَهاء، ولكن بطريقة مختلفة.»

إنّ شيئًا مثلَ هذا لم يقع لهاتزل قَطّ من قبل. كان يعتبر نفسه بركةً بلَّوْرِيّة من الصفاء، ويرى إلى حياته وكأنها زجاجة عَكِرةَ من فضيلة أسيء فهمها. من هنا آذته كلمات دوك الأخيرة بعض الشيء، فصاح:

ـ «ولكن المركب... لقد سلخ في بناء ذلك المركب سبع سنوات على وجه التأكيد، ولعلّه سلخ أطول من هذه المدة. لقد بليت البكرات، فصنع بكراتٍ من الإسمنت. وكلّما أوشك أن ينجز بناء المركب عمد إلى تغييره وبدأ العمل من جديد. أنا أحسب أنه أبله. سبع سنوات في بناء مركب!»

كان دوك قاعدًا على الأرض يخلع حذاءه المطّاطيّ. فقال في لطف:

ـ «أنت لا تفهم. هنري يحبّ المراكب، ولكنه يخشى الأوقيانوس.»

فسأله هاتزل:

ـ «وما حاجته إلى المركب إذن؟»

فقال دوك:

«هو يحبّ المراكب. ولكن لنفرض أنه أنجز صنع مركبه. ألا يقول الناس حالَ إنجازه: «لماذا لا تُنزله إلى الماء؟» ولكي يُنزله إلى الماء يتعيّن عليه أن يمتطيَ مَتْنَه، وهو يكره الماء. وهكذا ترى أنه لن ينجز عمل المركب أبدًا، حتى لا يضطرّ في يوم من الأيام إلى أن يقذف به في الماء.»

وكان هاتزل قد تابع هذا المنطق إلى نقطةٍ ما، ولكنه ما لبث أن أقلع عن ذلك وأنشأ يبحث عن طريقة يستطيع بها تغيير الموضوع. فقال في ركاكة:

ـ «أحسب أنه أبله.»

وعلى التربة السوداء التي أزهر فيها «نبات الجليد» دبّت مئات من الخنافس السوداء النتنة. وكانت جمهرة كبيرة منها رافعة أذيالها في الهواء. فقال هاتزل شاكرًا للخنافس وجودها هناك:

ـ «أنظر إلى هذه الخنافس النتنة.»

فقال دوك:

ـ «إنها ماتعة.»

ـ «حسنًا، ولماذا ترفع أذيالها في الهواء على هذه الشاكلة؟»

ولفّ دوك جوربه الصوفيّ ووضعه في الحذاء المطّاطيّ. ثم أخرج من جيبه جوربًا جافًّا وحذاء رقيقًا مصنوعًا من جلد الأيِّل، وقال:

ـ «لست أدري. لقد رأيت ذلك منذ قريب. وعلى أيّة حال فهي حيوانات مألوفة جدًّا، ومن أكثر عاداتها شيوعًا أن ترفع أذنابها في الهواء. وليس في جميع الكتب أيُّما إشارة إلى هذه الحقيقة أو شرح لها.»

وقلب هاتزل إحدى الخنافس النتنة بمقدّم حذاء التنس الرطب الذي يلبسه، فناضل الجُعَل الأسود اللامع نضالًا جنونيًّا، وبأرجل متخبّطة، لكي يصحّح وضعه المقلوب.

ـ «حسنًا، وما تعليل ذلك في رأيك أنت؟»

فقال دوك:

ـ «أظنّ أنها تصلّي.»

وأجفل هاتزل، وصاح:

ـ «ماذا؟!»

فقال دوك:

ـ «الشيء العجيب ليس كونها ترفع أذيالها في الهواء. الشيء العجيب إلى حدّ لا يُصدَّق حقًّا هو أننا نجد ذلك عجيبًا. نحن لا نستطيع إلا أن نتخذ أنفسَنا مقاييس للأشياء. وحين نقوم بشيء غريب لا تعليل له فأغلب الظن أننا نكون في حال الصلاة آنذاك ـ وهكذا فلعلّ الخنافس إنما تؤدي، إذ ترفع أذيالها، فروض الصلاة!»

فقال هاتزل:

ـ «فلنعجّل في الفرار من هذا المكان!»

- 7 -

لم يعرف ذلك البناء الموسوم بـ «بالاس فلوبهاوس» تغيُّرًا فجائيًّا. وفي الحقّ أنّ ماك وهاتزل وإيدي وهيوغي وجونز عندما انتقلوا إليه اعتبروه مجرّد ملجأ يعصمهم من الريح والمطر، أو أكثر قليلًا. لقد رأوا فيه مكانًا يأوون إليه في وقت أوصِدت فيه الأبواب كلّها، وغدت كلمة الترحيب هزيلة ذابلةً بسببٍ من الإفراط في الاستعمال. عندئذٍ لم يكن القصر غير غرفة طويلة عارية ذات نافذتين صغيرتين تضيئانها بنور قاتم، وجدرانٍ من خشب غير مدهون تفوح منها رائحة سحيق السمك المجفّف القوية. والحقّ أنهم لم يحبّوا مسكنهم ذاك آنئذ. ولكن ماك أدرك أنّ ضربًا من التنظيم كان ضروريًّا، وبخاصّةٍ وسط هذه الجماعة من الفرديّين النَّهِمين.

إنّ الجيش المدرّب غير المزوّد بالبنادق والمدافع والدبّابات خليق به أن يلجأ إلى البنادق الاصطناعية والشاحنات التنكّرية لكي يوهم نفسه والناس أنه يلبس درعًا تخريبية كاملة. وإن جنوده الآخذين بأسباب القسوة لَيعتادون بنادق الميدان بأن يضعوا الأحطاب فوق الدواليب..

وهكذا رسم ماك بقطعة من الطباشير خمسة مستطيلات على أرض الغرفة، طولُ كلٍّ منها سبعة أقدام وعرضه أربعة، وكتب في كلّ مستطيل

اسمًا. تلك كانت الفُرُش الزائفة. وكانت لكلّ امرئ من الجماعة حقوق مِلكيّةٍ لا تُنتهَك حرمتُها ضمن نطاق رقعته. كان من حقّه الشرعيّ أن يقاتل أيًّما إنسان يعتدي على مقاطعته. أمّا سائر الغرفة فكان مِلكًا مشاعًا للجميع. وإنما كان ذلك في الأيام الأولى عندما قعد ماك وصحبه الشبان على الأرض، ولعبوا بالورق وهم مقرفصون، وناموا على ألواح قاسية من الخشب. ولعلّهم كانوا خليقين، لولا تغيّر الجوّ، بأن يظلوا عائشين على هذا النحو. وأيًّا ما كان فقد هطل مطر غير مرتقب تهطالًا دام شهرًا ونيّفًا فحملهم على تعديل ذلك كلّه. وإذ امتطوا متن البيت فقد ملّوا القعود القرفصاء على الأرض. وأوذيت أعينهم من أخشاب الجدران العالية. ولكن المنزل آواهم بعد تشرُّد، ومن هنا غدا أثيرًا لديهم. وكان من حسناته أنه لم يعرف قطّ، في عهدهم، وجهًا لمالكٍ مغضَب. ذلك بأنّ «لي تشونغ» لم يقْرَبْهُ على الإطلاق. وما هي إلا فترة، حتى أقبل هيوغي، ذاتَ أصيل، ومعه سرير خفيف نقّال من سُرُر الجند، ممزّق الخيش. وسلخ ساعتين كاملتين وهو يرتق الفتق بخيط من خيوط صيد السمك. وفي تلك الليلة رأى سائر الرفاق، وكانوا مضطجعين على الأرض في مستطيلاتهم الخاصة، إلى هيوغي وهو يستلقي في خفّة ورشاقة على سريره النقّال، وسمعوه يتنهّد في ارتياحٍ بعيد القرار، ويغفو ويغطّ قبلهم جميعًا.

وفي اليوم التالي صعّد ماك في الكثيب، لاهثًا متقطّع النَّفَس، وقد حمل مجموعة صدئة من النوابض(*) عثر عليها في عربة من عربات الحديد المهشّم، ومن ذلك الحين دالت دولة الخمول. وتنافس الغلمان في تجميل قصر فلوبهاوس حتى لقد غدا بعد بضعة أشهر، إذا جاز التعبير، متخمًا بالأثاث. كانت ثَمّةَ بُسُط عتيقة على الأرض وكراسيُّ ذات مقاعد وغير

(*) جمع نابض وهو الرفّاص.

ذات مقاعد. ولقد جاء ماك بكرسيٍّ طويل (شيز لونغ) من خُوصٍ ذي لون أحمر زاهٍ. وبرزت إلى جانب ذلك أيضًا طاولات وساعة أثرية لا وجه لها ولا آلات. ليس هذا فحسب، بل لقد طُرشت الجدران بالكلس فإذا هي خفيفة رشيقة أو تكاد. وأخذت الصور تبدو للعيان ـ ومعظمها تقاويم تمثّل شقراوات وجميلات إلى حدٍّ بعيد الاحتمال يُمسكن بزجاجات الكوكاكولا. وكان هنري قد قدّم إلى الزمرة صورتين ترجعان إلى عهده القديم الذي كان يرسم فيه بريش الدجاج الملون. وكانت تقوم في إحدى الزوايا رزمة مذهبة من حشيشة ذنب الهرّ، وحزمة من ريش الطاووس عُلّقت على الجدار إلى جانب الساعة الموغلة في العتق.

ولقد التمسوا موقدًا، برهةً من الزمن. حتى إذا وقعوا على طِلبتهم ـ وهو مارد مزخرف بالفضة ذو أفرانٍ مرصعة بنقوش على شكل أزهار، ومقدَّم يشبه حديقة توليب مطليّة بالنيكل ـ لم يكن من اليسير عليهم أخذه. كان أكبر من أن يُسرق، وكان صاحبه قد أبى أن يتنازل عنه للأرملة المريضة ذات الأطفال الثمانية التي اخترعها ماك وانتصر لها في آنٍ معًا. لقد طلب صاحب الموقد دولارًا ونصف، ولم يُنزل السعر إلى ثمانين سنتًا طَوالَ ثلاثة أيام. ولم يتزحزح الفتية عن الثمانين سنتًا وقدّموا اعترافًا خطّيًّا إلى المالك بأنهم مدينون له بالقيمة، ولعلّه لا يزال يحتفظ به إلى الآن. وإنما تمّت هذه الصفقة في «سيسايد». وكان الموقد يزن ثلاثمئة رطل. واستنفد ماك وهيوغي، طَوالَ عشرة أيام، كلَّ إمكانيّة من إمكانيّات الشدّ والجذب. ولم يَشْرَعا في حمله إلا بعد أنْ أدركا أن أحدًا لم يكن راغبًا في أن ينقله لهما إلى المنزل. ولقد اقتضاهما نقله إلى شارع السردين المعلّب، على مبعدة خمسة أميال، أيامًا ثلاثة. حتى إذا انتهيا به إلى هناك رابَطا إلى جانبه طَوالَ الليل. ولكنهما لم يكادا يقيمانه في قصر فلوبهاوس حتى غدا هو المجدَ والبيتَ ونقطة الدائرة.

كان سنّ «القصر» الذهبية. وكان إذا ما أُضرمت فيه النار يدفّئ الغرفة الكبيرة. وكان فرنه رائعًا. ففي استطاعتك أن تقليَ بيضة على أجفانه السوداء اللامعة.

لقد أقبل الفخر مع الموقد الكبير، ومع الفخر أمسى «القصر» بيتًا. وزرع «إيدي» بعض العرائش المعروفة بـ «مجد الصباح» لكي تنتشر فوق الباب، وأتى هاتزل ببعض النباتات الفسخية النادرة مزروعة في صفائح من ذوات الخمسة غالونات، مما أضفى على المدخل مظهرًا احتفاليًّا مضطربًا بعض الشيء. وأحبّ ماك والغلمان «قصرهم»، بل لقد ذهبوا إلى حدّ تنظيفه قليلًا، في بعض الأحيان. وفيما بينهم وبين أنفسهم سخروا من أولئك المشرَّدين الذين لا منزل لهم يأوون إليه. وفي غمرةٍ من اعتزازهم ذاك كانوا يُنزلون بين الفَيْنة والفَيْنة صديقًا ما ضيفًا عليهم يومًا أو يومين.

وكان إيدي يعمل مساعدًا تحت التجربة في حانة «لا إيدا» فهو ينهض بعبء المشرب حين يكون هوايتي، المكلّف الأصيل، مريضًا وهو وضعٌ كثيرًا ما كان ينشأ ما أَمِنَ هوايتي أن يعاقبه سيده. ولكن بضع زجاجات كانت تختفي كلّما حلّ إيدي محلّ هوايتي، ومن هنا لم يكن في مَيْسوره أن ينهض بهذا العبء مرّاتٍ كثيرة، ومع ذلك فقد كان هوايتي يحبّ أن يَشْغَلَ إيدي مكانه لاقتناعه، ولعلّه كان مصيبًا، بأنّ هذا الغلام لن يحاول الاحتفاظ بوظيفته تلك إلى الأبد. والواقع أنَّ أيّما إنسان تقريبًا كان في استطاعته أن يثق بـ «إيدي» إلى هذا الحدّ. ولم يكن إيدي في حاجة إلى أن يأخذ كثيرًا من الشراب. ذلك بأنه كان يحتفظ بإبريق يتسع لغالون واحد تحت المشرب، وكان على فم الإبريق قمع. فأيُّما شيء تبقّى في كؤوس الشراب صبّه إيدي في القمع قبل أن يغسل تلك الكؤوس. حتى إذا دارت مناقشة أو أغنية في «لا إيدا»، أو انتهت رفقة طيبة إلى نتيجتها المنطقية في ساعة متأخرة من الليل فعندئذٍ يُفرغ إيدي الكؤوس، نصف ملأى حينًا وشبه كاملة الامتلاء حينًا، في قمع الإبريق. وكان الشراب الناشئ عن ذلك والذي اعتاد إيدي

أن ينقلب به إلى «القصر» ماتعًا دائمًا، باعثًا على الدهَش في بعض الأحيان. كان يتألف على نحوٍ موصول من الويسكي والجعة والبوربون والسكوتش والخمر والروم والجنّ. ولكنّ زبونًا فاقد القوى قد يطلب بين حينٍ وآخر مزيجًا من البراندي وشراب ما، أو شرابًا نُقعَ فيه بزر اليانسون، أو شرابًا فيه نكهة من قشر ليمون كوراساوو المرّ، فإذا بهذه المقادير الطفيفة تضفي على الشراب صفة متميزة. وكان من دأب إيدي أن يضع قليلًا من مقوّي الآنغوستورا المرير في الإبريق، قبل أن يمضي إلى المنزل. والواقع أنه كان يفوز، في بعض الليالي الطيبة، بثلاثة أرباع الغالون. وكان مما يوقع في نفسه الارتياح أنّ أحدًا ما كان يخسر شيئًا. فقد لاحظ أنّ الرجل يتعتعه السكر من نصف كأس بقدر ما يتعتعه من كأس مترعة، يعني إذا كان في مزاج يساعده على أن يغدو صريع الراح بأية حال.

وكان إيدي من نزلاء قصر «فلوبهاوس» المرغوب فيهم إلى حدٍّ بعيد. ومن هنا لم تسأله الجماعة في يوم من الأيام أن يشارك في تنظيف المنزل. ولقد غسلَ هاتزل ذات مرة أربعة أزواج من جوارب إيدي.

وفي تلك الظهيرة، عندما كان هاتزل يجمع مع دوك حيوانات البحر في بركة المدّ والجزر الكبيرة، كان الغلمان قاعدين في «القصر» يرتشفون آخر ثمرة من ثمرات نشاط إيدي. وكان غاي هناك أيضًا، وهو آخر عضو من أعضاء الجماعة. ورشف إيدي الشراب، في تأمل وتفكير، من كأسه، وأنشأ يتمطّق قائلًا:

ـ «من الطريف أن يفكّر المرء كيف تتدفّق الطلبات في بعض الأحيان. خذوا الليلة البارحة مثلًا. كان ثَمَّةَ عشرة أشخاص على الأقلّ طلبوا شراب «المانهاتانز». مع أنه قد تمرّ بك أحوال لا يُطلب فيها شيء من «المانهاتانز» ولو مرّتين في الشهر. إنّ الغرانادين هو الذي يعطيه ذلك الطّعم.»

وذاق ماك مقدارًا غير يسير منه، وملأ كأسه كَرَّةً ثانية، ثم قال في كآبة:

ـ «أجل، الأشياء الصغيرة هي التي تُحدث الفرق.»

وأجال بصره في ما حوله ليرى كيف يتلقّى رفاقه هذه الدُّرّة. ولم يدرك أحدٌ أثرها الكامل غير غاي الذي قال:

ـ «مؤكد. هل ...»

وتساءل ماك:

ـ «أين هاتزل اليوم؟»

فقال جونز:

ـ «لقد انطلق مع دوك ليجمع بعض السمك النجمي.»

فحنى ماك رأسه في ترصّن وقال:

ـ «دوك ذاك ولدٌ طيّب إلى حدٍّ جهنّميّ. إنه خليق بأن يقدّم إليك ربع غالون في أيّما لحظة. وحين جرحت نفسي كان يضمد جرحي بعصابة جديدة كلَّ يوم. ولدٌ طيب إلى حدٍّ جهنّميّ.»

وحنى سائر الرفاق رؤوسهم موافقين موافقة تامة.

وأردف ماك:

ـ «منذ مدة وأنا أتساءل ما الذي نستطيع أن نعمله من أجله؟ أيّ شيء يمكن أن يحبه ويجد قبولًا لديه؟»

فقال هيوغي:

ـ «لعلّه يرغب في امرأة.»

فأجابه جونز:

ـ «إن لديه ثلاث أربع نساء. في استطاعتك أن تعرف ذلك دائمًا عندما يغلق الستائر الأمامية، ويدير ذلك النوع من موسيقى الكنيسة على الفونوغراف.»

فوجّه ماك كلامه إلى هيوغي مؤنبًا:

ـ «ألِمجرد أنه لا يطارد النساء مطاردة مكشوفة في الشوارع وفي وضح النهار، تحسب دوك رجلًا أعزل(*)»

فسأله إيدي:

ـ «وماذا تعني بكلمة أعزل؟»

فقال ماك:

ـ «من لا يستطيع أن يحصل على النساء.»

وقال جونز:

ـ «أظن أنه يفضل نوعًا من الحفلات الساهرة.»

وران الصمت على الغرفة. وغيّر ماك موضع كرسيّه الطويل. وأنزل هيوغي رِجْلَي كرسيّه الأماميّتين إلى الأرض. وتطلّعوا إلى المدى، ثم حوّلوا أنظارهم جميعًا إلى ماك.

وقال ماك:

ـ «همْمْ!»

(*) حرّف المؤلف كلمة **celibate** ومعناها «عزب، غير متزوج» إلى **celebrate** لكي يصوّر مقدار جهل هؤلاء الفتية للغة. وقد رأينا أن نجاريَه في ذلك فجعلنا كلمة «أعزل» محلّ «عزب» أو «أعزب» حرصًا منا على إتمام الصورة التي قصد إليها المؤلف. (المعرّب)

وتساءل إيدي:

ـ «أيّ نوع من الحفلة الساهرة أحبّ إلى قلب دوك في رأيك؟»

فأجابه جونز:

ـ «وهل ثَمَّةَ غير نوع واحد؟»

ففكر ماك، ثم قال:

ـ «دوك لن يحبّ هذه البضاعة التي يحتوي عليها إبريقنا هذا.»

فسأله هيوغي:

ـ «وكيف عرفت؟ إنك لم تقدّم إليه شيئًا من محتويات ذلك الإبريق في يوم من الأيام.»

فقال ماك:

ـ «أوه، أنا أدري. لقد كان طالبًا في الكليّة. ومرة رأيت سيدة تلبس سترة من فراء تذهب لزيارته. ولكنني لم أرها تخرج قَطّ. وكانت الساعة الثانية عندما تطلّعتُ آخِرَ الأمر، فإذا موسيقى الكنيسة لا تزال دائرة. لا ـ ليس في استطاعتك أن تقدّم إليه شيئًا من هذه البضاعة.»

وملأ كأسًا أخرى.

فقال هيوغي في إخلاص:

ـ «إن طعمها يُمسي لذيذًا جدًّا بعد الكأس الثالثة.»

فاعترض ماك:

ـ «لا. هذا ليس صحيحًا بالنسبة إلى دوك. يجب أن نقدّم إليه ويسكي. ذلك هو الشيء المناسب.»

فقال جونز:

ـ «هو يحبّ الجعة. فنحن نراه دائمًا يذهب إلى دكان «لي» لكي يشتري الجعة، وأحيانًا في منتصف الليل.»

فقال ماك:

ـ «يخيل إليّ أنك حين تشتري الجعة إنما تشتري كثيرًا من الزؤان. أنت تأخذ ثمانية بالمئة من الجعة ـ وتنفق دراهمك من أجل اثنين وتسعين بالمئة من الماء والأصباغ وحشيشة الدينار وأشياء مماثلة.»

وسكت لحظة ثم أضاف:

ـ «إيدي، هل في إمكانك أن تحصل من «لا إيدا» على أربع خمس زجاجات ويسكي في أقرب فرصة يمرض فيها هوايتي؟»

فأجابه إيدي:

ـ «حتمًا. سوف أحصل عليها حتمًا. ولكن ذلك معناه النهاية. وعندئذٍ لن نفوز بعدُ بأيّ بيضة ذهبية أخرى. وأحسب أنّ جوني قد بدأ يرتاب، على كلّ حال. فلقد سمعتُه يقول ذلك اليوم: «إني أشمّ ريح فأرة تُدعى إيدي!» وكنت على وشك أن أنحني وآتي بالإبريق لحظةً واحدة.»

ـ «ياه! حَذارِ أن تخسر تلك الوظيفة. إذا ما وقع شيء لهوايتي ففي استطاعتك أن تحلّ محلّه طَوالَ أسبوع أو نحو ذلك حتى يجيئوا بشخص آخر. يبدو لي أنكم إذا أقمتم حفلة لدوك فيتحتّم علينا أن نشتري الويسكي شراء. بكم يبيعون غالون الويسكي؟»

فقال هيوغي:

ـ «لست أدري. أنا لم أشترِ في يومٍ من الأيام أكثر من نصف بِنتْ(*) دفعة واحدة ـ أقول دفعةً واحدة. ويخيَّل إليّ أنك إذا حصلت على ربع غالون تكاثر عليك الأصدقاء، أمّا إذا اشتريتَ نصف بِنتْ ففي استطاعتك أن تشربها قبل أن تحيط بك جمهرةٌ من الناس.»

فقال ماك:

ـ «سوف تكلّفنا دعوة دوك إلى حفلة ساهرة مبلغًا من المال. وإذا كنا راغبين في إقامة حفلة ما على شرفه، فينبغي أن تكون حفلةً جيّدة. يجب أن نُعِدّ كعكة حلوى كبيرة. تُرى، متى يقع عيد ميلاده؟»

فقال جونز:

ـ «لستَ في حاجة إلى عيد ميلاد لكي تحيي حفلة ساهرة.»

فأجابه ماك:

ـ «لا، ولكنه جميل. ويتراءى لي أننا في حاجة إلى عشرة دولارات أو اثني عشر دولارًا لكي نقيم لدوك حفلة لا نستحي بها.»

وتطلّع بعضهم إلى وجوه بعض في تفكّر، واقترح هيوغي:

ـ «إنّ مصنع هيديوندو للتعليب يستأجر عمّالًا.»

فسارع ماك إلى القول:

ـ «لا. إنّ لنا سمعة طيبة ولسنا نريد إتلافها. وكلّ واحد منّا يحتفظ بوظيفته، حين يحصل عليها، شهرًا أو أكثر. وهذا هو السبب الذي من أجله نستطيع أن نجد وظيفة كلّما احتجنا إلى ذلك. لنفرض أننا قبلنا عملًا يومًا أو

(*) البنت مكيال للسوائل والجوامد يتّسع لِثمْن غالون. (المعرِّب)

يومين فعندئذٍ نخسر شهرتنا في البقاء والاستمرار. وإذا ما احتجنا إلى وظيفة ما، بعدها، لم يرضَ أحد أن يشغّلنا عنده.»

وحنى سائر الرفاق رؤوسهم، في سرعة، معلنين موافقتهم على ما ذهب إليه.

ثم قال جونز:

ـ «يتراءى لي أني سوف أشتغل شهرين اثنين: تشرين الثاني وجزءًا من كانون الأول. وهذا ما يساعدنا على أن ننعم بالمال حوالى عيد الميلاد. في استطاعتنا أن نطبخ ديكًا روميًّا هذا العام.»

فقال ماك:

ـ «في استطاعتنا وحقِّ الإلٰه. أنا أعرف مكانًا في «كارميل فالي» حيث يوجد خمسمئة ديك في سرب واحد.»

فقال هيوغي:

ـ «فالي. لقد جمعت لدوك بعض الحيوانات هناك. سلاحف وسراطين وضفادع.. وكنت أحصل على قطعة من النيكل(*) لقاء كلّ ضفدعة من الضفادع.»

وقال غاي:

ـ «وأنا كذلك. لقد جمعت في أحد الأيام خمسمئة ضفدعة دفعةً واحدة.»

وهنا قال ماك:

(*) خمسة سنتات. (المعرّب)

ـ «إذا كان دوك راغبًا في الضفادع فتلك مسألة هيّنة. في استطاعتنا أن نمضي إلى نهر كارميل في رحلة صغيرة من غير أن نُخبر دوك القصد من ذلك. وعندئذٍ ندعوه إلى حفلة جهنّميّة!»

وساد قصر فلوبهارس هيَجانٌ هادئ. والتفت ماك إلى غاي وقال:

ـ «ألقِ نظرة من الباب وأخبرنا ما إذا كانت سيارة دوك أمام منزله أم لا.»

ولبس غاي نظارتيه ومضى. وبعد لحظة قال:

ـ «لم تأتِ بعد.»

فقال ماك:

ـ «حسنًا، لا بدّ أن يرجِعَ بين دقيقة ودقيقة. والآن، هكذا ينبغي أن ندبّر المسألة...»

- 8 -

في نيسان 1932 انفجرت بعض الأنابيب في المِرجَل الخاصّ بمصنع هيديوندو لتعبئة السردين للمرة الثالثة خلال أسبوعين، فقرر مجلس المدراء المؤلَّف من مستر راندولف وأحد كتّاب الاختزال أنّ شراء مِرجَل جديد خيرٌ للمصلحة وأرخص من الاضطرار إلى إغلاق المصنع مرة بعد مرة. وما هي إلا فترة حتى أقبل المِرجَل الجديد ونُقل المِرجَل العتيق إلى قطعة الأرض الفضاء القائمة بين دكان «لي تشونغ» و«رستوران بير فلاغ»، حيث أقيم على قطع من الحطب ريثما يهبط الوحي على مستر راندولف بفكرة تمكّنه من أن يكسب به بعض المال. وشيئًا بعد شيء جرّد المهندس الميكانيكيّ المِرجَل القديم من أنابيبه جميعًا ليُفيد منها في ترقيع بعض الأدوات المتهرّئة في مصنع هيديوندو. وهكذا بدا المِرجَل أشبه ما يكون بقاطرة عتيقة من غير دواليب. كان له باب ضخم في منتصف أنفه، وبابٌ للنار منخفض. وشيئًا بعد شيء غدا أحمر هشًّا بفضل الصدأ، ونبتت أعشاب الخُبّازى من حوله يغذّيها الصدأ المتساقط. وتسلّق الآس المنوّر جوانبَهُ، وعطّر اليانسون الهواءَ المطيفَ به. ثم إنّ شخصًا ما ألقى جذر داتورة(*)، فإذا بالشجرة الكثيفة

(*) جنس من النباتات من الفصيلة الباذنجانية. (المعرِّب)

البدينة تنمو هناك. وإذا بالأجراس الكبيرة البيضاء تتدلّى فوق باب المرجل. وعند المساء كان عبير الحب والهيجان يتضوّع من الأزهار، وإنه لعبيرٌ حلو مثيرٌ إلى حدٍّ لا يصدّق.

وفي سنة 1935 انتقل مستر سام مالُوْيْ وقرينته إلى المرجل. كانت الأنابيب كلُّها قد نُزعت منه، وكان قد أمسى مقصورة واسعة جافّة آمنة. صحيح أنك إذا ما وَلَجْتَه من باب النار اضطررت إلى أن تركع على يديك وركبتيك، ولكن ما إن تفعل ذلك حتى يرتفع السقف ارتفاعًا يمكّنك من السير في غير انحناء. وعلى أيّة حال فأنت لن تطمع بمكان تؤوي إليه يكون أكثر جفافًا وأشدّ دفئًا. لقد أقحما حشيّةً من خلال باب النار، واستقرّ بهما المقامَ. وفي الحق أنّ مستر مالُوْيْ كان سعيدًا راضيًا بمأواه ذاك. وكذلك كانت مسز مالوي طَوالَ فترة صالحة من الزمن.

وتحت المِرجَل، على الكثيب، كان عددٌ من البراميل الضخمة التي اطّرحها مصنع هيديوندو أيضًا. وفي أواخر عام 1937 تعاظم محصول الصيد، وأخذت مصانع التعبئة تعمل وقتًا كاملًا، ونشأت أزمة بيوت حادّة. وعندئذٍ نزع مستر مالوي إلى تأجير البراميل الأكثر ضخامة لإيواء الرجال غير المتزوجين، لقاء أجر شكليّ إلى أبعد الحدود. فكان الرجل يضع قطعة من الورق المطليّ بالقطران عند طرف البرميل، ورقعة بساط مربّعة في الطرف الآخر ويتخذ منه غرفة نومٍ مريحة، على الرغم من أنه تعيّن على الرجال المتعوّدين النومَ في تجعّد والتفاف أن يغيّروا عاداتهم أو يبحثوا لهم عن مأوى آخر. وكان هناك أيضًا أولئك الذين زعموا أنّ صدى غطيطهم المرتجع إليهم من جدران البراميل كان يوقظهم من سُباتهم. ولكن مستر مالوي نجح على الجملة في استغلال هذه التجارة الصغيرة المطّردة، وكان سعيدًا.

وظلّت مسز مالوي مطمئنة راضية إلى أن أصبح زوجها صاحب أملاك يؤجّرها، وعندئذٍ تبدّلت حالُها. لقد اشترت أول الأمر بساطًا، ثم قصعةً للغسيل، ثم مصباحًا ذا طيفٍ حريريّ. وأخيرًا دخلت المِرجَل ذات يوم، على يديها وركبتيها، وانتصبت قائلةً وهي تلهث بعض الشيء:

ـ «إنّ محلّ هولمان يعرض بعض الستائر للبيع. ستائر أصليّة موشّاة، ذات أهداب زرقاء وقرنفلية. وثمن «الطقم» دولار وثمانية وتسعون سنتًا مع قضبان خاصّة مُقحمة في الستائر.»

وجلس مستر مالوي على الحشيّة. وتساءل:

ـ «ستائر؟ وما حاجتنا، وحقّ الإلٰه، إلى الستائر؟»

فقالت السيدة مالوي:

ـ «أنا أحبّ الأشياء الجميلة. لقد طالما وَدِدت أن أراك تحبّ الأشياء الجميلة.»

وأخذت شفتُها السفلى ترتجف.

فصاح سام مالوي:

ـ «ولكن، يا عزيزتي، ليس بيني وبين الستائر عداء ما، أنا أحبّ الستائر!»

فقالت مسز مالوي وقد تهدّج صوتُها:

ـ «دولار وثمانية وتسعون سنتًا فقط. أنت تضنّ عليّ بدولار وثمانية وتسعين سنتًا.»

وأجهشت للبكاء، وأخذ صدرها يصعد ويهبط.

فقال مستر مالوي:

ـ «أنا لا أضنّ عليكِ بذلك. ولكن، يا عزيزتي، أخبريني كرامةً للمسيح ما الذي سوف نعمله بالستائر؟ ليس عندنا نوافذ!»

فبكت مسز مالوي، وبكت، وطوّقها سام بذراعيه وسرّى عنها.

وتنهدت السيدة وقالت:

ـ « كلّ ما في الأمر أنّ الرجال لا يفهمون كيف تحسّ المرأة. الرجال لا يحاولون أبدًا أن يضعوا أنفسهم موضع المرأة!»

وقعد سام إلى جانبها، وفرك ظهرها فترةً طويلة قبل أن تُغمض عينيها وتنام.

- 9 -

عندما رجعت سيارة دوك إلى المختبر اختلس ماك ورفاقه النظر إلى هاتزل وهو يساعد في نقل كيسي السمك النجمي. وما هي إلّا دقائق حتى صعد هاتزل عبر حظيرة الدجاج إلى «القصر». كان بنطلونه مبلّلًا بماء البحر حتى الفخذين، وكانت حلقات الملح الأبيض تتشكل في مختلف أجزائه الآخذة في الجفاف. ولم يكد يبلغ «القصر» حتى انطرح في إعياء على كرسيّه الهزّاز ونزع حذاء التنس الرطب الذي كان ينتعله.

وسأله ماك:

ـ «كيف حال دوك؟»

فقال هاتزل:

ـ «رائع. أنت لا تستطيع أن تفهم كلمة مما يقول. هل تعرف ماذا قال عن الخنافس النتنة؟ لا ـ من الأفضل أن لا أخبرك.»

فسأل ماك:

ـ «وهل كان مزاجه وُدِّيًّا لطيفًا؟»

فقال هاتزل:

ـ «مؤكد. لقد جمعنا متني سمكة نجميّة أو ثلاثمئة. كان على خير ما يرام.»

فتساءل ماك:

ـ «لست أدري، لعلّ من الخير أن نذهب كلُّنا إليه؟...»

ثم أجاب نفسه بنفسه:

ـ «لا. يُخيَّل إليّ أنّ من الخير أن يذهب واحد منّا فقط. فقد يرتبك إذا ما ذهبنا جميعًا إليه.»

فسأله هاتزل:

ـ «لست أفهم ما تقول؟»

فقال ماك:

ـ «لقد وضعنا بعض الخطط. سوف أذهب بنفسي حتى لا يصيبه الذهول. أمّا أنتم أيّها الإخوان فابقوا هنا، وانتظروا. لن أغيب أكثر من بضع دقائق.»

ومضى ماك في سبيله، هابطًا حظيرة الدجاج في خطوات مضطربة، مجتازًا خطّ السكة الحديدية. حتى إذا انتهى إلىٰ أملاك مستر مالوي وجده جالسًا على آجرّةٍ تجاه مِرجَله.

وسأله ماك:

ـ «كيف أنت، يا سام؟»

ـ «لا بأس.»

ـ «وكيف السيدة؟»

فقال مستر مالوي:

ـ «في خير. هل تعرف أيّ نوع من الغراء يمكن أن يلصق القماش بالحديد؟»

ولو كان الظرف عاديًّا إذن لاستغرق ماك، من غير ما رويّة، في المشكلة. ولكنه خليق، الآن، بأن لا يُصرَف عمّا هو بسبيله. فقال:

ـ «لا!»

ومضى عَبْرَ الأرض الفضاء، واجتاز الشارع، ودخل إلى المختبر. كان دوك قد نزع قبّعته الآن، لأنه لم يكن ثَمّةَ خطر من أن يتبلّل رأسُه إلا إذا انفجر برميل من البراميل. وكان منهمكًا في إخراج السمكات النجمية من الكيسَين النديَّين وتنسيقها على أرض المختبر الإسمنتية الباردة. وكانت تلك السمكات ملويّة متشابكة، وذلك بأنّ السمك النجميّ يحبّ أن يتعلق بشيء ما، وطوالَ ساعة كاملة لم تجد تلك السمكات ما تتشبّث به غير أنفسها. ورتّبها دوك صفوفًا طويلة، وفي أناة بالغة استعادت استقامتها حتى لقد انتثرت آخر الأمر نجومًا متناسقة على الأرض الإسمنتية. وكانت لحية دوك السمراء المحدّدة نديّةً بالعرق فيما هو منهمك في العمل. ولقد بدت عليه أمارات العصبية، بعضَ الشيء، حين دخل ماك. ولم يكن ذلك لأن المتاعب تأتي دائمًا مع ذلك الفتى، ولكن لأن شيئًا كان يدخل معه دائمًا.

وقال ماك:

ـ «كيف أنت، دوك؟»

فأجابه دوك في شيء من الضيق:

ـ «حسن.»

ـ «هل سمعتَ بما حصل لفيليس ماي هناك في بيت دورا؟ لقد ضربت رجلًا سكران فدخلت سنُّهُ في جُمع كفِّها، وأصابها الأذى حتى مِرفقِها. لقد أرَتْني السنّ. كانت سنًّا اصطناعيّة. هل السنّ الاصطناعيّة سامّة، دوك؟»

فكان جواب دوك أن قال محذِّرًا:

ـ «أحسب أنّ كلّ ما يخرج من الفم البشريّ سامّ. هل ذهبَتْ إلى الطبيب؟»

فقال ماك:

ـ «لقد عُنِيَ بأمرها الرجلُ المكلّف بطرد الأوباش من المطعم.»

ـ «سوف أحمل إليها بعض السالفا.» قال دوك ذلك، وتوقّع أن تنفجر العاصفة. فقد كان يدري أنّ ماك إنما أقبل لغرض ما، وعرف ماك أنه قد عرف.

وقال ماك:

ـ «دوك، هل أنت في حاجة إلى أيّ نوع من الحيوانات الآن؟»

فتنفس دوك الصعداء، وتساءل في احتراس:

ـ «لماذا؟»

وهنا كشف ماك عن دخيلة نفسه:

ـ «أحبّ أن أقول لك، دوك، إنني ورفاقي في حاجة إلى شيء من المال ـ يجب أن نحصل على شيء من المال. وما ذلك إلا لغرض صالح، بل إن في استطاعتك أن تقول إنه غرض جليل.»

ـ «من أجل ذراع فيليس ماي؟»

ولمح ماك الفرصة، ورازها، ثم أهملها، وقال:

ـ «حسنًا. لا، إنه أهمّ من ذلك بكثير. ليس في استطاعتك أن تقتل عاهرة. لا. هذه مسألة مختلفة. كنت أفكر أنا والغلمان قائلين: إذا احتجت إلى شيء ففي إمكاننا أن نأتِيَك به، وبهذه الطريقة نكتسب بعض الدراهم.»

وبدا العرض سهلًا بريئًا. وصفّف دوك أربع سمكات أخرى. ثم قال:

ـ «أنا في حاجة إلى ثلاثمئة ضفدعة أو أربعمئة. كان في مَيْسوري أن أجمعها بنفسي، ولكن يتعيّن عليّ أن أهبط إلى «لا جولّا» هذه الليلة. سوف يكون الجزْر مسعفًا غدًا ، وأحبّ أن أجمع شيئًا من الأخطبوط».

وسأله ماك:

ـ «ألا يزال سعر الضفادع كما كان؟ خمسة سنتات لقاء كلّ ضفدعة؟»

ـ «لا يزال كما كان.»

وابتهج ماك وقال:

ـ «لا يقلقك أمر الضفادع، يا دوك. سوف نأتيك بكلّ ما تحتاج إليه منها. كن مطمئنًّا من هذه الناحية. في استطاعتنا أن نجمعها من نهر كارميل نفسه. أنا أعرف المكان.»

ـ «حسن. سوف أشتري كلَّ ما تحصلون عليه، ولكني أحتاج إلى ثلاثمئة تقريبًا.»

ـ «استرِح، يا دوك. لا تَدَع مسألة الضفادع تقضّ مضجعك. سوف نؤمّنها لك، وقد نأتيك بسبعمئة ثمانمئة.»

قال ماك ذلك ثم طافت بوجهه غمامة يسيرة، وأردف:

ـ «دوك، هل هناك أمل في أن نذهب بسيارتك إلى النهر؟»

فأجابه دوك:

ـ «لا. لقد قلتُ لك. يتعيّن عَلَيَّ أن أذهب بها غدًا إلى لاجولّا.»

فقال ماك في قنوط:

ـ «أوه، حسنًا، لا يأخذك الهمّ من هذه الناحية، دوك. لعلّنا نوفَّق إلى أن نحصل على سيارة «لي تشونغ» العتيقة.»

ثم إنّ غمامةً أكثف طافت بوجهه، وتساءل:

ـ «دوك، في مشروع تجاري مثل هذا هل ترغب في أن تسلّفنا دولارين أو ثلاثة لشراء البنزين؟ أنا أعلم أنّ «لي تشونغ» لن يعطينا شيئًا من البنزين.»

فقال دوك:

ـ «لا. لقد جرّب ذلك من قبل. فذات يوم موّل غاي ليذهب فيجمع السلاحف. لقد موّلهُ طَوالَ أسبوعين، وعند نهاية تلك المدة أُدخل السجن إثر شكوى قدَّمَتْها امرأته عليه، ولم يذهب قَطّ لجمع السلاحف.»

فقال ماك محزونًا:

ـ «حسنًا، فقد لا نستطيع أن نذهب إذن!»

وكان دوك محتاجًا إلى الضفادع حقًّا. فحاول أن يستنبط طريقة ذات صبغة تجارية لا إحسانية. ثم قال:

ـ «سوف أخبرك بما أعتزم أن أعمله. سأعطيك مذكّرة إلى المحطة التي أتزوّد منها بالبنزين فتقدم إليك عشرة غالونات. ما رأيك في ذلك؟»

فابتسم ماك وقال:

ـ «رائع. هذه طريقة ملائمة جدًّا. سوف أنطلق أنا والغلمان في ساعة مبكرة من صباح غد. ولـن تعود من رحلتك إلى الجنوب حتى نكون قد جمعنا لك من الضفادع اللعينة أكثر مما رأت عيناك في حياتك كلِّها.»

ومضى دوك إلى مكتبه، وخطّ مذكّرة إلى «رد وليامز» في محطة البنزين أجاز له فيها إعطاء ماك عشرة غالونات من البترول. ثم قال:

ـ «ها أنت ذا!»

وافترّت شفتا ماك عن ابتسامة عريضة وقال:

ـ «في استطاعتك أن تنام الليلة من غير أن تفكّر في الضفادع لحظة واحدة. ولن تعود حتى نكون قد حملنا إليك عددًا من أوعية البول الملأى بها.»

وفي شيء من الضيق راقبه دوك وهو يمضي لسبيله. لقد كانت معاملاته مع ماك وسائر الغلمان ماتعة دائمًا، ولكنها نادرًا ما كانت رابحة بالنسبة إلى دوك. ولقد تذكّر في أسف ذلك اليوم الذي اشترى فيه من ماك خمسة عشر هرًّا، فما إن هبط الليل حتى جاءه أصحابها واستردّوها منه. وكان قد سأله:

ـ «ماك، لِمَ اخترتها ذكورًا كلَّها؟» فأجابه ماك:

ـ دوك، هذا اختراعي أنا. ولكني سوف أخبرك لأنك صديق طيّب. إعمل شركًا كبيرًا من الشريط ثم لا تستعمل أيّ طُعْم. استعملْ بدلًا من ذلك ـ حسنًا ـ استعمل هرةً أنثى. وبذلك تلقي القبض على جميع الهررة الذكور اللعينين في طول البلاد وعرضها.»

ومن المختبر اجتاز ماك الشارع، ومضى إلى دكان «لي تشونغ». كانت السيدة «لي» تقطع لحم الخنزير على قدّة كبيرة من قدد الجزارين. وكان أحد أبناء عمّ «لي» يزيّن بعض رؤوس الخس الذابلة كما تزيّن فتاة خصلةً متموجة

مرسلة من شعرها. وعلى رُكام عالٍ من البرتقال نامت هرة. أمّا «لي تشونغ» فكان واقفًا في مكانه المألوف وراء مِنَصّة السيجار، وأمام رفوف الشراب. ولم يكد ماك يدخل الدكان حتى أسرعَت إصبعه في خفْقِها على غطاء المِنَصّة بعض الشيء.

ولم يُضِع ماك لحظةً ما سدًى، فقال:

ـ «لي، إنّ دوك يواجه الآن مشكلة. لقد عهدَ إليه متحف نيويورك بتزويده بكمّيّة ضخمة من الضفادع. وذلك أمر يهمّ دوك إلى حدٍّ بعيد. فعلاوةً على المال، هناك التقدير المعنوي الذي يتمثّل في تكليفه بطلب من هذا النوع. ودوك مضطرّ إلى أن يذهب في اتجاه الجنوب، ولسوف نقوم مقامه في جمع الضفادع. وأحسب أنّ أصدقاء الشخص ينبغي أن يساعدوه على الخروج من مأزقه إذا ما استطاعوا، وخاصة إذا كان ذلك الشخص طيبًا مثلَ دوك. وأنا أراهن أنه يشتري من دكّانك بستين سبعين دولارًا كلّ شهر.»

واعتصم «لي تشونغ» بالصمت والحذر. وكفّت إصبعه السمينة عن الضرب أو كادت، ولكنها تماوجت بعض الشيء مثل ذَنَب هرّة متوتر.

واقتحم ماك الموضوع الذي جاء من أجله، فقال:

ـ «هل لك في أن تسمح لنا بأن نأخذ سيّارتك القديمة لنذهب بها إلى كارميل فالي، حيث نجمع الضفادع لدوك الطيّب العزيز؟»

فابتسم «لي تشونغ» في انتصار وقال:

ـ «السيارة معطّلة لا تصلح. لقد انكسرت.»

وذهل ماك لحظةً لهذا النبأ، ولكنه ما لبث أن استعاد رشده، ونشر مذكّرة دوك الخاصة التي تجيز لهم التزوّد بالبنزين، وقال:

ـ «انظر! دوك في حاجة إلى الضفادع. لقد أعطاني هذه المذكّرة لأحصل على البترول. أنا لا أستطيع أن أخيّب أمل دوك. والآن، غاي ميكانيكي بارع. فإذا أصلح سيارتك وأعادها إلى وضعها السابق فهل تسمح لنا في استعارتها؟»

وأمال «لي» رأسه إلى الوراء لكي يكون في مَيْسوره أن يرى ماك من خلال نظارتيه النصفيتين. إنه لم يجد في ذلك العرض علّةً ما. فقد كانت السيارة متعطلة حقًّا، فهي لا تعمل. وكان غاي ميكانيكيًّا بارعًا، وكانت مذكّرة البنزين دليلًا جازمًا على صدق ماك وحسْن نيّته.

وسأله «لي»:

ـ «كم ستغيبون؟»

ـ «نصف نهار، أو نهارًا كاملًا. سوف نعود حالما نفوز بالضفادع.»

واستولى القلق على «لي»، ولكنه لم يجد سبيلًا إلى الخلاص. كانت الأخطار كلّها هناك، وكان «لي» يعلم ذلك علم اليقين.

وأخيرًا قال:

ـ «حسنًا، لا بأس.»

فقال ماك:

ـ «جيّد. لقد عرفتُ أنّ في استطاعة دوك أن يعتمد عليك. ولسوف أسأل غاي أن يعالج السيارة حالًا.»

واستدار ماك لمغادرة الدكان، ثم أردف:

ـ «بالمناسبة، سيدفع إلينا دوك خمسة سنتات في كلّ واحدة من تلك الضفادع. ولسوف نجمع له سبعمائة أو ثمانمئة. فما رأيك في أن تعطيني

زجاجة من «أحذية التنس القديمة» على أن أدفع إليك ثمنها حالما نرجِع حاملين الضفادع؟»

ـ فقال «لي تشونغ»:

ـ «لا!»

- 10 -

بدأ فرانكي يَفِدُ على «المختبر البيولوجي الغربي» منذ كان في الحادية عشرة من العمر. لقد سلخ نحوًا من أسبوع واقفًا خارج باب الدور الأرضي، مُجيلًا الطَّرْف في ما حوله. ثم إنه وقف ذات يوم داخل الباب. وبعد عشرة أيام دخل إلى المختبر. كانت له عينان واسعتان جدًّا، وكان شعره أشعث، داكنًا، خشنًا، قذرًا. وكانت يداه وسختين. والتقط كتلة من نُجارة الخشب ووضعها في صفيحة للنفايات، ثم نظر إلى دوك الذي كان يلصق البطاقات على بعض الزجاجات. وأخيرًا انتهى فرانكي إلى مقعد العمل ووضع أصابعه القذرة عليه. لقد احتاج فرانكي إلى ثلاثة أسابيع لكي يصل إلى تلك النقطة، وكان مستعدًّا لأن يطلق ساقَيْه للريح في كلّ لحظة.

وذات يوم، تحدّث إليه دوك آخِرَ الأمر، وسأله:

ـ «ما اسمك يا بنيّ؟»

ـ «فرانكي.»

ـ «أين تعيش؟»

ـ «هناك.»

وأشار إلى الكثيب.

ـ «وما لي أراك خارج المدرسة؟»

ـ «أنا لا أذهب إلى المدرسة!»

ـ «ولمَ لا؟»

ـ «هم لا يريدونني أن أفعل ذلك.»

ـ «يداك قذرتان. ألا تغسلهما أبدًا؟»

وبدا فرانكي وكأنه جُرح، وانطلق إلى المغسلة ففرك يديه. ومن ذلك الحين صار يفرك يديه فركًا شديدًا مؤلمًا كلَّ يوم.

كان يَفِد على المختبر يوميًّا. وكانت صحبةً من غير ما كلام كثير. وبالتلفون، تثبّت دوك من أنّ ما قاله فرانكي صحيح. إنّ القائمين على المدرسة لا يرغبون فيه. فلم يكن في مَيْسورِهِ أن يتعلّم لضعفٍ في قدرته على التنسيق والتمييز. ومن هنا لم يكن له مكان في المدرسة. إنه ليس بأبله، وليس بخَطِر، ولكنّ أبويه، أو أمّه على الأصحّ، ما كانت تدفع المال الضروريّ لتعليمه في مدرسة ما. ولم يكن من دأب فرانكي أن ينام في المختبر، ولكنه كان ينفق أيامه هناك. وكان في بعض الأحيان يزحف إلى العربة الغاصّة بنجارة الخشب، ويستسلم للرقاد. وإنما كان يفعل ذلك، في الأعم الأغلب، حين تنشأ بينه وبين البيت أزمة.

وسأله دوك:

ـ «لماذا تأتي إلى هنا؟»

فقال فرانكي:

ـ «أنت لا تضربني أو تعطيني خمسة سنتات.»

ـ «وهل يضربونك في البيت؟»

ـ «إنّ أعمامي يقيمون هناك دائمًا. فبعضهم يضربني ويأمرني بأن أخرج، وبعضهم يعطيني قطعة الخمسة سنتات ويطلب إليّ أن أخرج.»

ـ «وأين أبوك؟»

فقال فرانكي في غموض:

ـ «لقد مات.»

ـ «وأين أمّك؟»

ـ «مع أعمامي.»

وجزّ دوك شعر فرانكي، وحرّره من القمل. ومن دكان «لي تشونغ» اشترى له بنطلونًا خشنًا وصدريّةً مقلّمة. وغدا فرانكي عبده ومولاه.

ـ «أنا أحبّك! أوه، أنا أحبّك!» كذلك قال له ذات أصيل.

كان يرغب في العمل بالمختبر. فهو يكنس الأرض كلّ يوم. ولكن كان ثَمَّةَ علّة طفيفة، فقد كان غير قادر على أن ينظّف أرض المختبر تنظيفًا تامًّا. وحاول أن يساعد دوك في تصنيف سمك الأنكوش على أساس الحجم. وها هي السمكات هناك في دلو، وهي ذات أحجام مختلفة. وكان المطلوب تصنيفها في أوانٍ كبيرة بحيث توضع تلك التي يبلغ طول كلٍّ منها ثلاث بوصات في إناء، وتلك التي يبلغ طول كلٍّ منها أربع بوصات في إناء آخر، وهكذا. وحاول فرانكي جهده، وتفصّد العرق من جبينه. ولكنه عجزَ عن النجاح في ذلك. إنه ما كان مستطيعًا أن يدرك نِسَبَ الأحجام وصِلات بعضها ببعض.

وكان دوك يقول له:

ـ «لا، انظر يا فرانكي. ضعها إلى جانب إصبعك هكذا، وعندئذٍ تعرف أيّها على هذا الطول. أرأيت؟ هذه تمتدّ من طرف إصبعك إلى قاعدة إبهامك. والآن اختر واحدة تمتدّ هي أيضًا من طرف إصبعك حتى ذلك المكان عينه. وعندئذٍ يكون عملك صائبًا.»

وحاول فرانكي كَرَّةً أخرى فلم يوفَّق. وحين ارتقى دوك السُّلَّم اندسّ فرانكي في صندوق النجارة ولم يخرج منه طَوالَ ساعات الأصيل.

ولكن فرانكي كان غلامًا مهذبًا طيّبًا لطيفًا. لقد تعلّم كيف يشعل السيجار لدوك. وكان يتمنى على دوك لو يدخّن من غير انقطاع لكي يكون في مقدوره أن يُشعل السيجار له.

وكان يبتهج أكثر ما يبتهج حين تُقام الحفلات في الدور الأعلى من المختبر ـ حين يُقبل الرجال والنساء فيجلسون ويتحدثون، حين يعزف الفونوغراف الكبير تلك الموسيقى التي تنبض في معدته وتثير في رأسه صورًا غامضة، ولكنها حلوة ضخمة. عندئذٍ كان فرانكي يجثم في إحدى الزوايا خلف كرسيٍّ من الكراسي حيث يختفي ويكون في مكْنته أن يرى ويسمع. حتى إذا ضحك القوم لنكتةٍ ما تضاحك هو مبتهجًا من وراء كرسيّه على الرغم من عدم فهمه تلك النكتة. أمّا إذا انتهى الحديث إلى النظر في المجرّدات فكان فرانكي يزوي ما بين حاجبيه وتبدو على وجهه أمارات الجدّ والاهتمام البالغ.

وذات أصيل أتى فرانكي عملًا رديئًا جدًّا. وتفصيل ذلك أنّ المختبر كان يشهد حفلة صغيرة آنذاك. وفيما كان دوك في المطبخ يملأ كؤوس الجعة برز فرانكي أمامه واختطف إحدى الكؤوس وانطلق عبر الباب ليقدّم الكأس إلى فتاة كانت جالسة على كرسيٍّ كبير.

وتناولت الكأس وقالت:

ـ «أشكرك، أشكرك!»

وابتسمت له.

حتى إذا أقبل دوك من المطبخ قال:

ـ «أجل. إنّ فرانكي يُسدي إليّ مساعدةً قيّمة.»

ولم يستطع فرانكي أن ينسى ذلك. لقد أدار الحادثة في عقله مرةً ومرةً: كيف انتزع الكأس، وكيف كانت الفتاة جالسة، ثم صوتها وهي تقول: «أشكرك، أشكرك!» وقول دوك: «فرانكي يُسدي إليّ مساعدة قيّمة ـ مؤكّد، أنّ العون الذي يقدّمه فرانكي إليّ لكبير ـ فرانكي..» أوه، يا إلٰهي!

وعرف أنّ حفلة كبيرة سوف تقام في المختبر لأنّ دوك حمل مقدارًا من شرائح اللحم وكمّيّة كبيرة من الجعة، ولأنه أجاز له أن يساعد في تنظيف الدور العلوي كلِّه. ولكن ذلك لم يكن شيئًا. ذلك بأنّ خطة عظيمة كانت قد تكوّنت في ذهن فرانكي، وكان في مَيْسوره أن يتمثّلها على وجه الدقة ويرى إليها وهي تنفَّذ. لقد قلّبها في عقله مرةً ومرةً، فإذا هي جميلة، وإذا هي كاملة.

وبدأت الحفلة، وأقبل القوم، وجلسوا في الغرفة الأمامية: بناتٌ، ونساء شابّات، ورجال.

وكان يتعيّن على فرانكي أن ينتظر حتى ينفرد بالمطبخ ويُغلق الباب وقد انقضت فترة من الوقت قبل أن يتمّ له ذلك. ولكنه ألفى نفسه وحيدًا، آخِرَ الأمر، ووجد الباب موصدًا.

وكان في مَيْسوره أن يسمع إلى ثرثرة الحديث وإلى الموسيقى المنطلقة من الفونوغراف الكبير. وعملَ في كثيرٍ من الأناة: أحضر الصينيّة أولًا، ثم جاء بالكؤوس من غير أن يكسر أيًّا منها، وملأها بالجعة، حتى إذا ذهب الزبد بعضَ الشيء ملأها كَرَّة ثانية.

هوذا الآن على أهبة التنفيذ. وأخذ نفسه عميقًا، وفتح الباب. وهدرت الموسيقى والأحاديث من حوله. وحمل فرانكي صينيّة الجعة ومضى عَبْرَ الباب. لقد عرف كيف يفعل ذلك. وتقدّم لتوّه نحو تلك المرأة الشابّة التي سبق أن شكرَتْه في حفلة ماضية. وهناك، أمامها مباشرة، وقع الحدث. لقد فُقد التوازن، واضطربت اليدان، ورُوّعت العضلات، وأبرقت الأعصاب إلى عامل تلغراف ميت، فلم تتلقّ أيًّما استجابة. وسقطت الصينيّة وكؤوس الجعة في حضن المرأة الشابّة. وجمد فرانكي لحظة من زمان. ثم استدار وولّى فرارًا.

ورانَ الهدوءُ على الغرفة. وكان في استطاعتهم أن يسمعوا وقع قدميْه وهو يهبِط السُّلَّم ويمضي إلى القبو. لقد سمعوا صوتًا غائرًا مخشخِشًا. ثم ساد السكون.

وفي هدوء هبَط دوك السُّلَّم إلى القبو. كان فرانكي قد غاص في صندوق النُّجارة إلى القعر، وقد علاه ركام من نُجارة الخشب. كان في مَيْسور دوك أن يسمع أنينه وانتحابه هناك. ولقد انتظر لحظةً، ثم رجع من حيث أتى.

لم يكن ثَمَّةَ شيء يستطيع أن يعمله.

- 11 -

كان لسيارة الشحن الخاصة بـ «لي تشونغ»، وهي من طراز تT، تاريخ مجيد. ففي سنة 1923 كانت سيارة ركوب يملكها الدكتور و. ت. ووترز. ولقد استعملها خمس سنوات، ثم باعها لرجلٍ من المشتغلين بشؤون التأمين يدعى راتل. ولـم يكن مستر راتل رجلًا شديد العناية والحذر. فكان يقود السيارة، التي اشتراها في حال حسنة جدًّا، قيادة جنونية. وكان مستر راتل يحتسي الخمر مساء كلّ سبت، فلقيت السيارة من أذاه شيئًا كثيرًا، وحُطّم حائلها والتوى. وكذلك كان من دأب راتل أن يركب درّاجة، فيقطّع حزامها الحديديّ بين الفَيْنة والفَيْنة. وعندما اختلس راتل مال بعض الزبائن وفرّ إلى «سان جوزيه» اعتقله البوليس مع شقراء صارخة وزجّ به في السجن في خلال عشرة أيام.

وكان جسد السيارة مشوّهًا إلى درجة اضطرّ معها المالك الجديد إلى أن يقسمها قسمين ويضيف إليها مِهادًا صغيرًا خاصًّا بالشاحنات.

ونزع المالك الجديد واجهتها الأمامية ودرعها الزجاجيّ الواقي من الريح والمطر، واصطنعها لنقل الأخطبوط، وكان يحب أن تهبّ النسائم العليلة على وجهه. أمّا اسم هذا المالك الجديد فكان فرنسيس آلمونز، وهو

رجل يحيا حياة حزينة، لأنه كان يكسب دائمًا أقلّ قليلًا مما يحتاج إليه لإقامة الأَوَد. لقد أورثه أبوه شيئًا من مال. ولكن ثروة فرنسيس ظلّت تَضمرُ سنة بعد سنة وشهرًا بعد شهر برغم انصرافه إلى العمل واحتراسه في الإنفاق، حتى لقد جفّت آخِرَ الأمر ونضبتْ.

وحصل «لي تشونغ» على الشاحنة وفاءً لفاتورة من فواتير البقالة.

والحقّ أنّ الشاحنة لم تكن حين وقعت في حوزة «لي» شيئًا أكثر من أربع عجلات ومحرّك. وكان ذلك المحرّك ذا نزوات مفاجئة، سيىء الخلق، نكدًا، طاعنًا في السنّ، فهو في حاجة إلى عناية فائقة من ذي خبرة متمرّس في الصناعة. وضنّ «لي تشونغ» عليه بذلك، فكان من نتائج هذا أن ظلّت الشاحنة تقف معظم الوقت وسط العشب الطويل النابت خلف دكان البِقالة، وقد نمت الخُبّازَى بين أشعّة عجلاتها. وكان يحيط بعجلتيها الخلفيّتين دولابان من مطّاط صلب، في حين رفعت قطعتان من الخشب عجلتيها الأماميّتين عن سطح الأرض.

ولعلّه كان في مَيْسور أيّما غلام من غلمان «قصر فلوبهاوس» أن يحمل الشاحنة على السير، فقد كانوا كلُّهم ميكانيكيّين عمليّين بارعين. ولكن غاي كان ميكانيكيًّا مُلهَمًا. والواقع أنه ليس عندنا اصطلاح يقابل «الأنامل الخضراء»(*) لإطلاقه على مثل ذلك الميكانيكيّ، ولكن هذا الاصطلاح واجب الوجود. ذلك بأن ثَمَّةَ رجالًا يستطيعون أن يُلقوا نظرة على الآلة ويستمعوا إليها ويخفقوها بإصبعهم، ويُجروا تعديلًا ما وعندئذٍ تسير الآلة وتعمل. بل إنّ ثَمَّةَ رجالًا تجري السيارة أمامهم بأحسن مما تجري أمام غيرهم. وكان غاي واحدًا من هؤلاء. كانت أصابعه لطيفة حكيمة واثقة

(*) ترجمة لـ green thumbs وتُطلق على الرجل البارع في تعهّد الأشجار وضروب النبات وجعْلها تنمو في سرعة. (المعرِّب)

من نفسها إذا ما مسّت مؤقّتًا أو أداةً لتعديل التّكَرْبُن. وكان في استطاعته أن يُصلح المحرّكات الكهربائية الدقيقة في المختبر. وكان في مَيْسوره أن يعمل عمرَه كلّه في مصانع التعليب لو شاء، ذلك لأنه في تلك الصناعة التي تشكو أمرّ الشكوى إذا لم تستردّ كامل الأموال الموظّفة فيها أرباحًا صافيةً كلَّ سنة كانت الأجهزة الآليّة أقلّ شأنًا وأهون خطرًا مما تنصّ عليه البيانات الرسمية. والواقع أنه لو كان في إمكانك أن تعبّئ السردين في الصفائح بواسطة الدفاتر التجارية إذن لكان مالكو تلك المصانع سعداء جدًّا. وهكذا اصطنعوا آلات عتيقة متهرّئة طاعنةً في السنّ فهي في حاجة أبدًا إلى عناية موصولة من رجل مثلِ غاي.

وأيقظ ماك الفتية باكرًا. فشربوا قهوتهم ثم سارعوا إلى حيث كانت الشاحنة قائمة وسط الأعشاب. وبدأ غاي العمل. فرفس العجلتين الأماميتين المرفوعتين عن الأرض وقال:

ـ «استعيروا مِنفاخًا وانفخوا هذين الدولابين.»

ثم إنه وضع عصا في برميل البنزين القائم تحت اللوح الخشبيّ الذي كان بمثابة مقعد. وبمعجزة ما، كان ثَمّة نصف بوصة من البترول في ذلك البرميل. وعندئذٍ واجه غاي مصاعب ليس أشقّ منها ولا أعسر. لقد أخرج صناديق الأشرطة، وحكّ أطرافها. وسوّى الخلل، وأعادها إلى موضعها. ثم فتح المكربِن ليتأكد من أنّ البنزين كان يتخذ سبيله الطبيعي. وحرّك ذراع البكرة ليتأكد من أنّ المحور كلّه لم يكن معطّلًا، وأنّ المدكّات لم تكن صَدِئة في أسطواناتها.

وفي أثناء ذلك وصل المنفاخ، وتناوب إيدي وجونز في إصلاح الدواليب.

وهمْهم غاي فيما هو يشتغل. لقد نزع البوجيات، وحكّ طرفَي الشريط، وأخرج رُقاقة الكربون. ثم إنه متح قليلًا من البترول في صفيحة وصبّ شيئًا منه في كلّ أسطوانة قبل أن يُعيد البوجيات إلى مواضعها. وهنا تصدّر غاي، وقال:

ـ «سوف نحتاج إلى بطّاريّتين. ليذهبْ أحدُكم إلى «لي تشونغ» لعلّه يعطينا اثنتين.»

وانطلق ماك ثم رجَع في مثل لمح البصر حاملًا «لا» كلّيّةً قصد بها «لي تشونغ» إلى صيانة نفسه من مختلف ضروب المطالب المقبلة.

وفكر غاي تفكيرًا عميقًا، ثم قال:

ـ «أنا أدري أين يوجد ما نطلبه. إنهما بطّاريّتان ممتازتان أيضًا. ولكني لن أذهب لآتي بهما.»

فسأله ماك:

ـ «أين؟»

فقال غاي:

ـ «في قبو منزلي. إنهما تسيّران جرس الباب الخارجي. وإذا ما رغب أحدٌ منكم أيّها الإخوان في أن ينسلّ إلى ذلك القبو من غير أن تلمحه امرأتي فعندئذٍ يجدهما فوق أدنى القنطرة الجانبية على يساره وهو داخل. ولكن بحقِّ الإلٰه لا تَدَعوا زوجتي تُلقي القبض على أيٍّ منكم.»

وعُقد مؤتمر أسفر عن انتخاب إيدي. فمضى هذا في سبيله.

وصاح غاي من خلفه:

ـ «إذا ما قبضَتْ عليك فلا تأتِ على ذكري!»

وفي تلك الأثناء اختبر غاي الأربطة. كانت الدواسة المتحرّكة لا تمسّ القرار تمامًا، ومن هنا أدرك أنّ الرباط لم تبق منه غير بقيّة هزيلة. وكانت دوّاسة الوقف تمسّ القرار، ومن أجل ذلك لم يكن في الإمكان الكبح، ولكن الدواسة العاكسة كانت سليمة الرباط. وفي سيارة فورد من طراز «ت» تؤلف الدوّاسة العاكسة هامش السلامة بالنسبة إليك. فإذا ما تَلِفَ المِكْبَح فعندئذٍ تستطيع أن تستعمل العاكسة مِكْبَحًا. وحين يرقّ رباط ناقل السرعة (فيتس) الأدنى حتى يتعذّر عليه دفْع العربة لترْقى الكثيب، ففي استطاعتك أن تستدير وتصعّد فيه على نحوٍ ارتجاعيّ. لقد وجد غاي في الشاحنة قدرةً صالحة على الارتجاع وأدرك أنّ كلّ شيء على ما يرام.

وكانت عودة إيدي بالبطّاريّتين من غير ما عناء، فألّا طيّبًا. فقد كانت السيدة غاي في المطبخ. وكان في مَيْسور إيدي أن يسمعها تنتقل فيه من مكان إلى مكان، ولكنها لم تسمع إيدي. إنه بارع جدًّا في مثل هذه الأمور.

ووصل غاي البطّاريّتين وفتح البنزين، وأخّر مخل الاشتعال قائلًا:

ـ «إلوِ ذنَبها!»

كان غاي أعجوبة حقًّا في الميكانيك و«مار فرنسيس» كلّ شيء يدور أو يلتوي أو ينفجر، «مار فرنسيس» الأشرطة واللفائف الموصلة بين أقطاب المغنطيس وناقلات السرعة. وإذا ما كان لركام السيارات الخَرِبَة من طراز دوزنبرغ، وبويك، ودوسوتو، وبلايموث، وأوستن الأميركية، وإيزوتا فراشينيس أن تسبّح الله يومًا في لحنٍ جَماعيٍّ فخم، فإنّ ذلك خليق بأن يكون، إلى حدٍّ بعيد، بفضلٍ من غاي وزملائه.

وبفتلة واحدة ـ بفتلة صغيرة واحدة ـ حَمِيَت الماكينة، وعمِلت ثم تردَّدت وعادت فحَمِيَت من جديد. وقدّم غاي الشرر وقلّل البنزين. وأدار مفتاح المولّد الكهربائي الصغير، وعندئذٍ قهقهت سيارة «لي تشونغ»

وتراقصت وصلصلت في نشوة وابتهاج وكأنما أدركت أنها تعمل لرجل يحبها ويفهمها.

وكانت ثَمَّة صعوبتان صغيرتان أيضًا إحداهما قانونية وهي أنّ الشاحنة لم تكن تحمل صفيحة إجازة جديدة، والأخرى تقنيّة وهي خلوّها من المصابيح. ولكن الفتية أسدلوا خرقة على الصفيحة الخلفية إخفاءً لسنّها، وغطّوا الصفيحة الأمامية بطبقة كثيفة من الطين. أمّا أدوات الرحلة فكانت طفيفة: بعض شباك الضفادع الطويلة المقابض وبعض أكياس الخيش. والواقع أنّ صيّادي المدن المنطلقين للتروّض يُثقلون سِلالَهم بألوان الطعام وصنوف الشراب. أمّا ماك فليس يفعل ذلك. لقد افترض - وإنه لَعلى حق - أنّ الريف هو المكان الذي يتدفّق منه الطعام إلى المدينة. ومن هنا كان رغيفان اثنان وما تبقّى في إبريق «إيدي» كلّ ما احتملوه من زاد. وارتقى الجمع الشاحنة. وتولّى غاي قيادتها، في حين قعد ماك إلى جانبه. ومضت بهم الشاحنة مقعقِعةً حول زاوية دكان «لي تشونغ»، مجتازةً الأرض الفضاء، متخذة سبيلها في مشقّة وعسْر بين البراميل الضخمة. ولوّح مستر مالوي لهم من مقعده أمام المِرجَل. وكبح غاي الشاحنة عَبْرَ الشارع وعلى طول الحواجز المُقامة إلى جانبه لأن الدواليب الأمامية تكشّفت عن نسيجها الداخلي طَوالَ الطريق. وعلى الرغم من شوقهم المبتهج لم يوفَّقوا إلى السير إلا عند الظهيرة.

وعند محطة «رد ويليامز» وقفت الشاحنة. ونزل ماك وقدّم ورقته إلى «رد» قائلًا:

- «كانت العملة الصغيرة تنقص دوك. من أجل ذلك أكون شاكرًا إذا ما أعطيتني خمسة غالونات فقط، وقدّمت إليّ دولارًا بدلًا من الخمسة

الأخرى. هذا ما يريده دوك على كلّ حال. لقد اضطرّ إلى أن يرحل إلى الجنوب، كما تعلم. إنّ لديه صفقة كبيرة قضت عليه بالذهاب إلى هناك.»

وابتسم «رد» في بِشْر وقال:

ـ «لقد قدّر دوك أن يكون ثَمَّةَ ثغرة ما، فإذا به يضع إصبعه على ما تقوله بالذات. إنه فتًى ذكيٌّ جدًّا. ولقد تلفن إليّ الليلةَ البارحة.»

فقال ماك:

ـ «ضع عشرة غالونات في الجملة. لا ـ إنتظرْ! إنها سوف تُسفَح على الأرض. ضع خمسة غالونات وأعطِني خمسة في صفائح مختومة.»

وابتسم «رد» ابتسامة سعيدة وقال:

ـ «لقد قدّر دوك هذا أيضًا.»

ـ «اذن ضع عشرة غالونات. ولا تدع قطرةً في الأنبوب!»

ولم تخترق البعثة الصغيرة قلب مونتيري. ذلك أنّ انعدام صفيحتي الإجازة والمصابيح جعل غاي يختار المرور في الشوارع الخلفيّة. وكان عليهم أن ينتهوا، في وقت ما، إلى كثيب كارميل فيصعّدوا فيه ثم يهبطوه إلى الوادي مجتازين أربعة أميال بتمامها في طرق رئيسية قد توقعهم في قبضة أيّما شرطيٍّ يلتقونه في بعض الطريق فلا ينجيهم من ذلك غيرُ الانعطاف نحو طريق وادي كارميل شبه المهجورة. والواقع أنّ غاي آثر أن يسلك شارعًا خلفيًّا قادهم إلى الطريق الرئيسيّ عند «بيترز غيت» قبل أن يبدأ كثيب كارميل مباشرةً. وحاول غاي أن يصعّد في الكثيب ولكنه أخفق، فقد كانت الأربطة من الاهتراء بحيث تمكن الشاحنة من السير في الأرض المنبسطة دون التلال والمرتفعات. ثم إنه استدار ورجع بالشاحنة إلى الوراء وصعّد في الكثيب في بطء وأناة تصعيدًا خلفيًّا.

ونجحوا في ذلك أو كادوا. لقد فار جهاز التبريد، طبعًا، ولكن معظم الخبراء بـ «موديل ت» اعتقدوا بأنه إذا لم يَفُرْ ذلك الجهاز لم تَجْرِ السيارة في أحسن أحوالها.

إنّ كاتبًا من الكتّاب ينبغي أن يصور الأثر الخلقيّ والجسمانيّ والجماليّ الذي خلّفه فورد طراز «ت» في الأمة الأميركية. ولا غرابة في ذلك. فجيلان اثنان من الأميركيّين عرفوا عن لفائف أشرطة فورد الموصِلة أكثر مما عرفوا عن البظر، وعرفوا عن نظام ناقلات السرعة الكوكبيّ أكثر مما عرفوا عن نظام النجوم الشمسي. ومع فورد طراز «ت» اختفى جزء من مفهوم الملكيّة الخاصّة. فلم تعد الكلّابات الصغيرة تُمتلك امتلاكًا خاصًّا، وغدا منفاخ العجلات ملكًا لآخِر رجلٍ يلتقطه عن الأرض. ومعظم الأطفال الذين وُلدوا في ذلك العهد إنما حُبِل بهم في سيارات فورد من طراز «ت»، في حين أن عددًا غير قليل منهم أبصر النور فيها. لقد شُوّهت نظريّة البيت الأنكلوسكسوني تشويهًا بالغًا، وزلّت بها القدم ثم لم توفّق بعدُ إلى النهوض من كبْوَتها بأية حال.

وفي عزم، تغلّبت الشاحنة على كثيب كارميل، واجتازت طريق «قمة جاك»، وكانت على وشك أن تبلغ آخر مراحل التصعيد وأشقّها عندما تكاثفت أنفاس الماكينة، وغصّت، واختنقت. وبدا كلّ شيء هادئًا حين سكن المحرّك. فما كان من غاي، وكان يصعّد على نحوٍ ارتجاعيّ على أيّة حال، إلا أن كرّ هابطًا الكثيب مسافةَ خمسين قدمًا، ثم انعطف نحو مدخل طريق «قمة جاك».

وتساءل ماك:

ـ «ما هذا؟»

فقال غاي:

ـ «المُكَرْبِن، في ما أعتقد.»

وصفرت الماكينة وصرفت من أثر الحرارة. وتـردّد صوت البخار المنطلق من أنبوب الفيضان وكأنه فحيح زحافٍ تمساحي.

والمُكَرْبِن في فورد طراز «ت» ليس معقّدًا ولكنه يقتضي جميعَ أجزائه أن تعمل. إنّ فيه صمامًا ذا إبرة، وينبغي أن يكون النصل على الإبرة وأن يستقرّ في ثقبه وإلا كفّ المُكَرْبن عن العمل.

وأمسك غاي بالإبرة في يده فألفى النصل مكسورًا فتساءل:

ـ «يا لَلجحيم! كيف وقع ذلك في ما تظن؟»

فقال ماك:

ـ «سحر. مجرّد سحر صِرف. هل تستطيع أن تُصلحه؟»

ـ «لا. يجب أن آتيَ بواحد جديد.»

ـ «وما ثمنه؟»

ـ «دولار تقريبًا إذا أردتَ واحـدًا جديـدًا. وربـع دولار عند بائعي الحُطام.»

فسأله ماك:

ـ «وهل معك دولار؟»

ـ «أجل، ولكني لست في حاجة إليه.»

ـ «حسنًا، حاول أن ترجع بأسرع ما تستطيع. سوف ننتظرك هنا.»

فقال غاي:

ـ «على كلّ حال، ليس في استطاعتكم أن تسيروا من غير صِمام ذي إبرة.»

ووثب إلى الطريق. وأشار إلى ثلاث سيّارات قبل أن تقف واحدة له. ورآه الفتية يركب متنها ويهبط الكثيب. ولكنهم لم يروه بعد ذلك طَوالَ مئة وثمانين يومًا.

أوه، حقًّا إنّ الاحتمالات لا نهاية لها! وإلّا فكيف جاز أن تتعطّل السيارة التي أقلّت غاي قبل أن تصل إلى مونتيري؟ ولو لم يكن غاي ميكانيكيًّا لما استطاع إصلاح العربة. ولو أنه لم يفعل إذن لَما اصطحبه مالكُها إلى حانة «جيمي بروشيا»، ليقدّم إليه بعض الشراب. وكيف اتفق أن كان ذلك اليوم عيد ميلاد جيمي؟ فمن بين جميع الاحتمالات في العالم ـ ملايين وملايين من الاحتمالات ـ لم تقع إلا الأحداث التي تقود المرء إلى سجن ساليناس. فقد تشاجر سباركي إينيا وتايني كوليتي، وكانا يساعدان جيمي في الاحتفال بعيد ميلاده. ودخلت الشقراء. وبدأت المساجلة الموسيقية أمام الفونوغراف الأوتوماتيكي. وكان صديق غاي الجديد يتقن ضربًا من المصارعة اليابانية، فحاول أن يعرضه على سباركي فكسر معصمه. وكان الشرطيّ يشكو علّة في المَعِدة ـ كلّ تلك الدقائق لم تكن تربط ما بينها رابطة ما، ومع ذلك فقد جرت جميعُها في اتجاه واحد. كلُّ ما في الأمر أنّ القدر أبى أن يسمح لغاي بأن يشارك في صيد الضفادع، وأنّ القدَر خلق جهنّمًا من المتاعب والناس والأحداث ليُقْصِيَه عن تلك الرحلة. حتى إذا بلغ تدبير القدر ذروته، واحترق القسم الأمامي من محلّ «هولمان» الخاصّ بالأحذية، وكان الجمع يقيسون الأحذية في واجهة العرض، كان غاي هو وحده الذي لم يسمع صفّارة الخطر. فما إن هرع رجال الشرطة إلى المحلّ المحترق حتى وجدوا غاي قاعدًا وحده في واجهة العرض وهو يلبس حذاء أسمر من نوع «أوكسفورد» المنخفض المخرّم، وحذاءً جلديًا رسميًّا صُنع أعلاه من جوخ رمادي.

وهناك حيث وقفت الشاحنة أضرم الغلمان نارًا صغيرة عند هبوط الليل وهبوب الريح الباردة من جانب المحيط. وتنهّدت شجرات الصنوبر من فوقهم. واضطجع الغلمان على إبر الصنوبر وأنشأوا يتطلعون إلى السماء الموحشة من خلال الأغصان. وتحدّثوا فترةً عن العقبات التي حالت من غير شك بين غاي وبين الحصول على صِمام ذي إبرة. وشيئًا بعد شيء كفّوا عن ذكره بالكلّيّة بعد أن مرّت بهم الساعات من غير أن يعود.

وأخيرًا قال ماك:

ـ «كان ينبغي أن يذهب واحدٌ منا معه.»

وحوالى الساعة العاشرة نهض إيدي، وقال:

ـ «هناك معسكر للبناء على بِضْع خطوات فوق الكثيب. ولسوف أذهب إلى هناك وأرى ما إذا كان عندهم فورد طراز «ت».

- 12 -

ومونتيري مدينة ذات تاريخ أدبيّ لامعٍ قديم. فهي تذكر في بهجة وشيء من الاعتزاز أنّ روبرت لويس ستيفنسون عاش فيها. وليس من ريبٍ في أنّ «جزيرة الكنز» تتكشّف عن طوبوغرافية «بورت لوبوس» وخطوطها الساحلية. ولقد زار كارميل في الفترة الأخيرة عددٌ كبير من الأدباء ولكنْ ليس ثَمَّةَ تلك النكهة القديمة، ذلك الجلال العتيق الذي يطبع «الأدب الرفيع» بمعناه الحقيقيّ. ولقد ثارت ثائرة البلدة ذات يوم لحادثة اعتدّها المواطنون إهانة لأحد الكتّاب. وكانت الحادثة تتصل بوفاة جوش بيلينغز، المؤلف الفكاهي الكبير.

فحيث يقوم مكتب البريد الجديد كان في الأيام السالفة وادٍ متحدّر عميق تجري فيه المياه، وكان فوقه جسر صغير للمشاة. وكان ينهض على جانبٍ من الوادي بناءٌ آجرّيّ رائع، وعلى الجانب الآخر بيت طبيب يُعنى بأحداث المرض والولادة والوفاة جميعًا، في البلدة. وكان يشتغل بالحيوانات أيضًا. وإذ درس في فرنسة، فقد ذهب إلى أبعد من ذلك فخاض غمار الصناعة الجديدة، صناعة تحنيط الأجساد قبل دفنها. وكان نفرٌ من معمَّري البلدة يعتبرون ذلك عملًا عاطفيًّا، ونفر يعتبرونه تبذيرًا، وآخرون يرون فيه عملًا منافيًا للدين لأن أيًّا من الكتب المقدسة لم تنصّ عليه. ولكن

الأُسَر الأكثر غنى وتمدُيُنًا كانت قد ألِفت هذه البدعة التي بدت وكأنها سوف تغدو زيًّا دارجًا في وقت قريب.

وذات صباح كان مستر كارياغا العجوز يهبط الكثيب من بيته إلى شارع آلفارادو. ولـم يكد يعبر جسر المشاة حتى لفت نظره غلام صغير وكلب يصعّدان في الوادي تصعيدًا جاهدًا. كان الغلام يحمل كَبِدًا، على حين كان الكلب يسحب ياردات من الأمعاء تتعلق بطرفها مَعِدة. وتمهّل مستر كارياغا وألقى التحية في لطف على الغلام الصغير:

ـ «صباح الخير.»

في تلك الأيام كان الأولاد الصغار ذوي كياسة. فردّ الغلام التحية:

ـ «صباح الخير، يا سيدي.»

ـ «إلى أين أنت ذاهب بهذه الكبد؟»

ـ «أنا ذاهب لأرى بعض الرفاق وأصيد شيئًا من سمك الأسقمري.»

فابتسم مستر كارياغا وقال:

ـ «والكلب، أذاهب هو أيضًا لاصطياد الأسقمري؟»

ـ «الكلب هو الذي وجد هذه. إنها مِلكه. لقد عثرنا على ذلك في الوادي.»

وتبسّم مستر كارياغا، وأوسع الخطى، وأنشأ عقله يعمل. هذه ليست كَبِد بقرة. إنها صغيرة جدًّا. وليست كبد عجل، فهي حمراء أكثر مما ينبغي. ثم إنها ليست كبد خروف... وهنا كان عقله يقظًا. وعند الزاوية التقى مستر رايان، فسأله:

ـ «هل مات أحد في مونتيري الليلة البارحة؟»

فقال مستر رايان:

ـ «لست أعلم أنّ أحدًا قد مات.»

ـ «أقُتِل أحد؟»

ـ «لا.»

وانطلقا معًا. وتحدث مستر كارياغا عن الغلام الصغير والكلب.

وفي « البار الآجرّيّ» احتشد عدد من المواطنين وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث الصباحي. وهناك روى مستر كارياغا قصته من جديد. وما إن انتهى من روايتها حتى دخل الشرطيّ البار. وكان يريد أن يعرف ما إذا كان أحد قد توفي. فجاءه الجواب:

ـ «لم يمت أحد في مونتيري. ولكن جوش بيلينغز توفي في «أوتيل ديل مونت».»

وران الصمت على الرجال في البار. ودارت الأفكار نفسها في عقولهم جميعًا. فقد كان جوش بيلينغز رجلًا عظيمًا، كاتبًا عظيمًا. ولقد شرّف مونتيري بموته فيها، ولكنه أُهينَ وأوذي. ومن غير ما مناقشة تألفت لجنة من الحاضرين جميعًا. وأسرع الرجال المقطّبون إلى الوادي، ثم عبروا الجسر إلى منزل الطبيب الذي تلقّى العلم في فرنسة وقرعوا بابه قرعًا عنيفًا.

وكان قد أطال السهرة تلك الليلة، فانتزعه القرع من فراشه، وحمله أشعث الشعر واللحية، وليس عليه غير منامته، إلى الباب.

وسأله مستر كارياغا في تجهّم:

ـ «هل حنّطتَ جوش بيلينغز؟»

ـ «ولكنْ ـ نعم.»

- «وماذا فعلت بأحشائه؟»

- «ولكن - لقد رميتُها في الوادي كما أفعل دائمًا.»

وأكرهوه على أن يرتديَ ملابسه في سرعة، وهرعوا إلى الشاطئ الرمليّ. ذلك بأنّ كلّ شيء خليق بأن يكون قد انتهى لو تعجّل الغلام في أمر الصيد. والواقع أنه كان على وشك أن ينطلق بالمركب عندما وصلت اللجنة. وكانت الأمعاء في الرمل حيث تركها الكلب.

ثم إنهم أجبروا الطبيب الفرنسي على أن يجمع الأحشاء كلّها، وحملوه على أن يغسلها في مهابة وخشوع وينتزع أعظم قدر مستطاع من الرمل. وكان على الطبيب أن يتحمل نفقات الصندوق الرصاصي الذي وضع في تابوت جوش بيلينغز. ذلك بأنّ مونتيري لم تكن بلدة تُجيز لأحدٍ أن يُنزل إهانةً ما برجل من رجال الأدب.

- 13 -

ونام ماك والغلمان نومًا هادئًا مطمئنًا فوق إبر الصنوبر. وفي فترة ما قبل ارتفاع الضحى رجع إيدي. لقد جاز مسافة بعيدةً قبل أن يجد سيارة فورد طراز «ت». حتى إذا وقع على واحدة تساءل ما إذا كان من الحكمة أن يُخرج الإبرة من مستقرّها. إنها قد لا تطابق أو تفيد. من أجل ذلك انتزع المُكَرْبِن كلَّه. ولم يُفِقِ الفتية من نومهم عند رجوعه. فاضطجع إلى جانبهم ونام تحت أشجار الصنوبر. لقد كان لفورد طراز «ت» حسنةٌ بارزة. إنّ أجزاءهُ لم تكن تقبل المقايضة فحسب، بل كان متعذرًا إثبات ذاتية كلٍّ منها أيضًا.

ويطلّ مرتفع كارميل على منظر جميل، منظر الخليج المنحرف والأمواج المزبدة على الرمل، والريف الرمليّ الذي يطوّق الساحل، وحميمية البلدة الدافئة عند سفح الكثيب.

ومع الضحى نهض ماك، وخضّ بنطلونه من موضع الحزام، وأنشأ يسرّح الطّرْف في الخليج. كان في مَيْسوره أن يرى نفرًا من الصيادين عائدين، وناقلةً من ناقلات الزيت واقفةً تجاه الساحل تنتحب على البترول. ووراءه خشخشت الأرانبُ في الدّغَل. ثم إنّ الشمس أشرقت، ونفضت

برودة الليل عن الهواء كما ينفض المرء بساطًا أو سجادة. وحين استشعر ماك دفء الشمس الأول ارتعشت أوصاله وارتجف.

وطَعِمَ الغلمانُ شيئًا من الخبز، فيما انصرف إيدي لتركيب المُكَرْبن الجديد. حتى إذا أنجز ذلك لم يجشّموا أنفسهم عناء إدارة ذراع البكرة، بل دفعوا الشاحنة إلى الطريق العامّ، وظلّوا على ذلك إلى أن دارت. ثم إنهم ارتقوا الكثيب، وكان إيدي هو الذي يقود الشاحنة، ارتقاءً ارتجاعيًّا، ثم انعطفوا وانطلقوا إلى الأمام مجتازين «حقول هاتون». وفي «كارميل فالي» نهض الخرشوف (الأرضي شوكي) أخضر رماديًا، وكان الصفصاف غضًّا على محاذاة النهر. وانعطفوا يسارًا مصعّدين في الوادي. وابتسم لهم الحظ هناك. ذلك بأنّ ديكًا أحمر مغبرًّا من ديكة «رود آيلند» كان قد تاه عن مزرعته وراح يعبر الطريق، فأصابه إيدي من غير أن يحيد كثيرًا عن الطريق. ورفع هاتزل ـ وكان قاعدًا في مؤخر الشاحنة ـ الديك عن الأرض فيما كانت السيارة ماضية في سبيلها، وترك الريش يطير بين يديه، فكان شاهدًا من شواهد الاجرام لم يعرف التاريخ أكثر منه توزّعًا وتناثرًا. ذلك أنّ نسيمًا عليلًا هبّ صباحًا من جيمسبورغ فحمل بعض ذلك الريش الأحمر إلى بورت لوبوس، وذهب ببعضه الآخر إلى أبعد من ذلك فألقاه في اليمّ.

وكارميل نُهير محبّب إلى القلب. إنه ليس طويلًا جدًّا، ولكن له في مجراه جميع الخصائص التي يتعين اجتماعها للنهر. فهو يصعّد في الجبال، ثم يتعثر فترة، ويضحل ويقلّ ماؤه، ويُحصر لينشئ بحيرة، ويطفو فوق السدّ، ويطقطق حول الصخور المدوّرة، وينساب في كسل تحت شُجَيْرات الجمّيز، ويصبّ في البِرَك حيث يعيش سمك الأطروط، ويُهرِق نفسه على الضفاف حيث يحيا سمك الأنكوش. وفي الشتاء يغدو سيلًا جارفًا، نهرًا صغيرًا ضاريًا حقيرًا. أمّا في الصيف فينقلب إلى موطنٍ يخوّض فيه الأطفال ويجوس خلاله الصيادون. إنّ الضفادع لَتسترق النظر من على ضفافه وإنّ

الخنشار العميق لَينمو إلى جانبه. وفي الصباح والمساء تَفِد الظباء والثعالب، سرًّا وعلى احتراس، لتنهل من مائه. وبين الفَيْنة والفَيْنة ينبطح أسدٌ من أسود الجبال أو النمر الأميركي ويلعق مياهه. وتتراجع مزارع الوادي الصغير الخصب مصعّدة إلى النهر وتفيد من مائه في إرواء خضرها وأشجارها المثمرة. ويصدح السُّمانى حوله، وتُقبل الحمائم عليه هادلةً عند الغسق، ويذرع الرقون(*) حافاته التماسًا للضفادع. إن له جميع الصفات التي تجعل النهر نهرًا.

وعلى بضعة أميال من أعلى الوادي ينفصم النهر تحت قدمَي صخرة شاهقة متحدّرة تتدلى من جنباتها العرائش والخنشار. وعند قاعدة هذه الصخرة تقوم بركة خضراء عميقة، وعند الجانب الآخر من البركة موطنٌ رمليّ صغير يغريك بأن تقعد وتعدّ طعام الغداء.

وفي ابتهاج هبط ماك والغلمان ذلك المكان. كان غايةً في الكمال. ولو أنّ الضفادع كانت خليقة بأن توجَد إذن لوُجِدت هنا. لقد كان موطنًا يسترخي فيه المرء ويلتمس السعادة. وكانوا في طريقهم قد أصابوا غنًى وثروة. فعلاوةً على الديك الأحمر الكبير نعموا بكيس جزر كان قد سقط من شاحنة للخضر، ونصف دزينة من البصل لم تسقط. وكان في جيب ماك كيس قهوة. وكانت في الشاحنة صفيحة تتسع لخمسة غالونات مقطوعة من أعلاها. أمّا إبريق الخمر فكان نصف مليء تقريبًا. ليس هذا فحسب بل لقد حمل الفتية معهم شيئًا من الملح والتوابل وما إليها. فقد كان ماك وصحبه يعتبرون من الحماقة أن يرحل أيُّما رجل مثل هذه الرحلة بغير ملح وتوابل وقهوة.

(*) الرقون: حيوان شبيه بالهر.

ومن غير ما جهد أو اضطراب أو طويل تفكير جاء الفتية بأربعة أحجار مدوّرة وجمعوا بعضها إلى بعض على ذلك الساحل الرمليّ الصغير. كان الديك الذي تحدى إشراق الشمس ذلك اليوم نفسه منطرحًا ممزّق الأوصال نظيفًا في صفيحة الغالونات الخمسة المليئة بالماء، وقد أحاطت به مجموعة من البصل المقشّر، فيما كانت نارٌ صغيرة من أغصان الصفصاف الميتة تئزّ بين الحجارة، نارٌ صغيرة جدًّا. فالمجانين وحدهم يضرمون نيرانًا كبيرة. وقد يقتضيهم طبخ هذا الديك فترة طويلة من الزمان، لأن ما يتمتع به من ضخامة وقوة عضل لم يتمّ له بين عشيّة وضحاها. ولكن ما إن أخذت المياه تغلي من حوله في رفق حتى تضوَّعَت له منذ البدء ريح زكية.

وقال ماك:

ـ «الليل أنسب الأوقات لجمع الضفادع. من أجل ذلك أرى أن نستلقي ههنا حتى تسقط العتمة.»

وهكذا قعدوا في الظلّ. وشيئًا بعد شيء تمدّد واحد منهم إثر واحد واستسلم للرقاد.

كان ماك على صواب. فالضفادع لا تطوّف كثيرًا في وضح النهار. إنها تختفي تحت الخنشار وتختلس النظر من ثقوبٍ تحت الصخور. فإذا رُمْتَ النجاح في اقتناص الضفدع فليس عليك إلا أن تصطنع مصباحًا كهربائيًّا صغيرًا في الليل. ومن هنا نام الغلمان بعد أن أدركوا أنّ عملهم سوف يكون شاقًّا حين يُسدَل حجاب الظلام. إلا هاتزل، فقد ظلّ مستيقظًا لكي يؤرّث النار الصغيرة تحت الديك المُعَدّ للأكل.

وليس ثَمَّةَ أصيلٌ ذهبيّ قرب الصخرة الشاهقة. فلم تكد الشمس ترتفع فوقها حوالى الساعة الثانية حتى امتدّ فوق الشاطئ الرمليّ ظلّ هامسٌ وأخذت أوراق الجمّيز في الحفيف وقد راوَدَتْها نسائم الأصيل، وانزلقت

أفاعي الماء الصغيرة إلى الصخور، ثم ولجت المياه في رفق وسبحت عبر البركة رافعة رؤوسها مثل منظار الغوّاصات المعروف بالبريسكوب تاركةً خلفها أثرًا طفيفًا. ووثبت سمكة أطروط في البركة. وخرج البعوض الذي يجتنب الشمس وأزّ فوق الماء. وانطلقت خنافس الشمس والذباب وأفراس السعدان والزنابير إلى مواطنها. وما إن وقع الظلّ على الساحل الرمليّ، وصدح أول طائر من السّمانى حتى استيقظ ماك وصحبه من نومهم. كانت رائحة الديك المُنْضَج تشقّ الفؤاد. وكان هاتزل قد التقط ورقة غارٍ غضّة من إحدى الشجرات المجاورة للنهر وأسقطها في الصفيحة. وكان الجزَرُ قد انتهى إلى هناك أيضًا. أمّا القهوة فكانت في صفيحتها الخاصة تُنْضَج في أناة على صخرة مستقلة تفصلها عن اللهب مسافة جعلتها لا تفور فورانًا عاجلًا. وأفاق ماك، ووثب، وتمطّى، ومضى مترنّحًا نحو البركة، حيث غسل وجهه، وحبق، وشدّ حزامه، وحكّ رجليه، ورجّل شعره النديّ بأصابعه، ورشف جرعة من الإبريق، وتجشّأ، ثم جلس إلى جانب النار قائلًا:

ـ «يا لله، إنّ لهذا الديك رائحة زكية.»

إنّ الناس كلّهم لَيعملون الشيء نفسه حين يفيقون من النوم. فإذا بالفتية جميعًا يقتفون آثار ماك في ذلك. وما هي إلا فترة حتى أقبلوا على النار. وغرز هاتزل سكّينه في أوصال الديك، وقال:

ـ «لن يكون لحمُه من ذلك النوع الذي يدعونه طريًّا رخصًا. يجب أن تطبخه نحوًا من أسبوعين حتى يغدو طريًّا. ما عمرُه في ما تظنّ يا ماك؟»

فقال ماك:

ـ «لقد بلغتُ الثامنة والأربعين ولستُ صلبًا مثله!»

وتساءل إيدي:

ـ «كم يعيش الديك في رأيك، يعني إذا لم يدهسه أحدٌ أو لم يُصَبْ بمرضٍ ما؟»

فقال جونز:

ـ «ذلك شيء لن يُوفَّق أحد إلى معرفته.»

كانت جلسةً ماتعة. ودار الإبريق عليهم جميعًا وأدخل على قلوبهم الدفء.

وقال جونز:

ـ «أنا لا أريد أن أشكو. ولكني كنت أفكّر ليس غير: لنفرض أنك رجعتَ من البار ومعك إبريقان أو ثلاثة أباريق... لنفرض أنك وضعت الويسكي كلّها في واحد، والخمر كلَّها في آخر، والجعة كلَّها في الثالث...»

وعقبَ ذلك الاقتراحَ صمت مخنوق بعض الشيء. وقال جونز متعجلًا:

ـ «أنا لم أقصد شيئًا. كلّ ما هنالك أني أحبّها على هذا النحو.»

وأسرف جونز في الحديث، عندئذٍ، بعد أن أدرك أنه ارتكب هفوة اجتماعية، ولم يستطع أن يكبح نفسه. وأردف:

ـ «الشيء الذي لا يعجبني في طريقتك هو أنّ الواحد منا لا يعرف أبد الدهر أيّ نوع من الشراب سوف يجنيه منها. في حين أنك إذا شربت الويسكي عرفتَ في قليل أو كثير ما الذي سوف تعمله. إن الشخص المقاتل يقاتل، وإنّ الشخص المنتحب ينتحب، ولكنْ هذه... عجبًا، إنك لا تعرف ما إذا كانت ستحملك إلى رأس شجرة من شجرات الصنوبر، أو تحرّكك للسباحة إلى سانتا كروز.»

قال ذلك في ترفُّع ونبل، ثم أضاف في وَهَن:

ـ «تلك طريقة مضحكة!»

وهنا انبرى ماك إلى القول، وقد رغب في أن يصلح ما كاد جونز أن يُفسده، وفي أن يُسكته في الوقت نفسه:

ـ «ما دمنا في حديث السباحة أحبّ أن أتساءل ما الذي حلّ بذلك الرجل الذي يدعى ماككينلي موران. هل تذكرون ذلك السابح البارع في الغوص إلى البحار العميقة؟»

فقال هيوغي:

ـ «أنا أذكره. لقد كنتُ أنا وهو نتسكع معًا. كلّ ما في الأمر أنه لم يوفَّق في كثير من الأحيان إلى عمل، فاعتاد الشراب. وإنه لمن الإجهاد الشديد للمرء أن يغوص ويسكر. بل وأن يركبه الهم أيضًا. وأخيرًا باع بِذلته وخوذته وحذاءه الذي لا كعب له، وسكر سكرةً جهنّميّة ثم غادر البلدة. أنا لا أعرف إلى أين ذهب. إنه لم يعد صالحًا بعد أن غاص إثر ذلك الإيطالي الذي سقط من سفينة «الإخوة الاثني عشر» في الماء. لقد غاص ماككينلي خلفه. فانفجرت طبلتا أذنيه، ولم يعد يصلح لشيء من بعد هذا. ولم يُصَب الرجل الإيطالي بأيّ سوء.»

وذاق ماك الإبريق كَرَّةً ثانية وقال:

ـ «وكان يكسب مالًا كثيرًا في العهد الذي حُرِّمت فيه الخمر. كان يكسب خمسة وعشرين دولارًا كلَّ يوم من الحكومة لكي يغوص إلى أعماق البحر بحثًا عن المُسكرات، ويقبض ثلاثة دولارات من «لووي» لقاء كلّ صندوق يغضّ الطرف عنه. وكان يعثر على صندوق واحد يوميًّا لكي يُبقي الحكومة سعيدة. ولم يكن «لووي» يعترض على ذلك البتة. لأن هذه الطريقة

كانت تجعل الحكومة لا تفكر في الالتجاء إلى غائصين جدُد. لقد كسب ماككينلي مقدارًا كبيرًا من المال.»

فقال هيوغي:

ـ «ياه. ولكنه مثل أيّ إنسان آخر. يربح بعض المال ثم يريد أن يتزوج. لقد تزوج ثلاث مرّات قبل أن ينفد مالُه. وكان في استطاعتي دائمًا أن أحزر. فقد كان يشتري فرو ثعلب أبيض وشيئًا من القنّب الهندي (الحشيش) ـ وكانت الخطوة الثانية، دائمًا، أن يتزوج.»

وهنا تساءل إيدي:

ـ «لَيْتَ شِعري ما الذي حلّ بغاي؟»

وكانت هذه هي أول مرة تحدّثوا فيها عنه.

فقال ماك:

ـ «الشيء نفسه في ما أحسب. كلّ ما في الأمر أنك لا تستطيع أن تضع ثقتك في رجل متزوج. فهو مهما يكره امرأته الحبيبة يرجِعْ إليها. إنه يفكّر ويتأمل ثم تلقاه فجأةً بين يديها. فليس في إمكانك أن تثق به بعد ذلك. خذ غاي مثلًا. إنّ امرأته تضربه. ولكني أراهنكم على أنه إذا ما فارقها ثلاثة أيام يتراءى له أنه هو المذنب وينقلب إليها ليكفّر عن ذنْبه.»

وأكلوا طويلًا وفي شهيّة وتلذُّذ، قاطعين أجزاء من الديك، ممسكين بتلك القطع ريثما تبرد، نازعين اللحم بأسنانهم عن العظام. ولقد أكلوا الجزَر بقضبانٍ محدّدة من الصفصاف. وأخيرًا تداولت أيديهم الصفيحة، وشربوا المرق واحدًا بعد واحد. وحولهم كان المساء ينسلّ في مثل رقة الموسيقى. وتداعى السُّمانى إلى الماء. ووثب سمك الأطروط في البركة. وهبط الفَراش وصفق بأجنحته حول البركة فيما كان ضوء النهار يمتزج

بالعتمة. وأدار الرفاق صفيحة القهوة، وكانوا على شبع ودفء وصمت. وأخيرًا قال ماك:

ـ «لعنها الله. أنا أكره الكذّابين.»

فسأله إيدي:

ـ «ومَن الذي كان يكذب عليك؟»

ـ «أوه، أنا لا ألوم الفتى إذا ما كذب كذبة يقصد بها إلى أن يمشّي الحال أو يقفز إلى حديث. ولكني أكره الفتى الذي يكذب على نفسه!»

فسأله إيدي:

ـ «ومن فعل ذلك؟»

فقال ماك:

ـ «أنا! وقد تكونون أنتم أيّها الشباب!»

وسكت لحظة ثم أردف في جدٍّ كثير:

ـ «ها نحن أولاء. ها هي ذي جماعتنا اللعينة الخسيسة كلّها. لقد خطر لنا أن نقيم حفلة على شرف دوك. وهكذا خرجنا إلى هنا وأمتعنا أنفسنا إمتاعًا كثيرًا، ولسوف نرجع بعد هذا ونحصل على المال من دوك. إننا خمسة فتيان، وهكذا سوف نشرب خمسة أضعاف ما سوف يشربه هو. ولستُ واثقًا من أننا نكرّم بذلك دوك أو نقوم به من أجله. الذي أخشاه أن نكون قصَدْنا إلى إمتاع أنفسنا ليس غير. ودوك هو من الطيبة ورفعة الأخلاق بحيث لا يستحقّ منا هذا الموقف. إنه أحسن إنسان قُدّر لي أن أراه في حياتي. ولست أريد أن أكون واحدًا من أولئك الذين يستغلّون خُلُقه الكريم. وأنتم تعلمون أنني ألححت عليه يومًا في طلب دولار واحد. فاخترعت له قصة جهنّميّة.

وبينما أنا في منتصف الحكاية رأيت أنه أدرك أنّ الأمر كلّه دجل، فما كان مني إلا أن قطعت الكلام وقلت: «دوك، هذه كذبة شنعاء!» فوضع يده في جيبه وأخرج دولارًا وقال: «ماك، يُخيّل إليّ أنّ الفتى الذي تبلغ به الحاجة إلى دولار واحد حدًّا يجعله يكذب من أجل الحصول عليه لَهو محتاجٌ إلى ذلك الدولار حقًّا!» وأعطاني الدولار. وفي اليوم التالي أعدتُه إليه. أنا لم أُنفقه قطّ. كلّ ما فعلتُه أني احتفظت به تلك العشيّة، حتى إذا طلع النهار أرجعتُه إليه!...»

فقال هاتزل:

ـ «ليس ثَمّةَ إنسان يحبّ الحفلات الساهرة أكثر من دوك. ونحن سوف نعمل له حفلة والسلام. بكم يُباع لحم البقر اليوم؟»

فقال ماك:

ـ «لستُ أدري. ولكني أفضّل أن أعطيه شيئًا لا أستردّ معظمه بنفسي!»

فاقترح هيوغي:

ـ «ما رأيكم في هدية نقدّمها إليه؟ لنفرض أننا اكتفينا بشراء الويسكي وقدّمناها إليه، وليفعلْ هو ما يشاء بها.»

فقال ماك:

ـ «الآن أصبْت. ذلك ما ينبغي أن نفعله. نحمل إليه الويسكي ونولّي فرارًا!»

فقال إيدي:

ـ «أتعرفون ما الذي سيقع؟ إنّ هنري وغيره من أبناء «كارميل» سوف يشمّون رائحة الويسكي هذه، وبدلًا من أن يجتمع عليها خمسة منا يجتمع

عشرون. لقد أخبرني دوك نفسه أنّ في استطاعتهم أن يشمّوا وهم في «بوينت سور» رائحة شرائح البقر وهو يقليها في شارع السردين المعلّب. أنا لا أرى أيّ حكمة في ذلك. ومن الخير أن ندعوه إلى حفلة نقيمها بأنفسنا على شرفه.».

وفكّر ماك في هذا الكلام. ثم قال:

ـ «لعلك على صواب. ولكن لنفرض أننا قدّمنا إليه شيئًا غير الويسكي. زرّين معدنيّين للأكمام محفورًا عليهما الأحرف الأولى من اسمه، مثلًا.»

فقال هاتزل:

ـ «أوه، براز الحصان! دوك لا يريد بضاعة مثل هذه.»

كان الظلام قد اشتدّ، الآن. وكانت النجوم شاحبة في السماء. وأرّث هاتزل النار، فألقت بعض الضوء على الشاطئ الرمليّ. وفوق الكثيب كان ثعلب يضبح ضباحًا حادًّا. وهبّت رائحة القصعين من أعالي التلال. وضحكت المياه على الحجارة حيث انبثقت من البركة العميقة.

وكان ماك يفكّر في كلمات هاتزل حين سمع الفتية وقع أقدام حملهم على الالتفات، فإذا رجلٌ ضخم داكن يقترب منهم خلسةً وقد تنكّب بندقيّةً، ومشى كلب من كلاب القنص في إثره مشيةً خجلة رقيقة.

وسألهم الرجل:

ـ «ماذا تفعلون هنا؟»

قال ماك:

ـ «لا شيء.»

ـ «هـذه الأرض حـرام. لا صيد ولا قنص ولا إضـرام نـار أو إقامة مخيمات. إجمعوا أغراضكم وأطفئوا هذه النار، وارحلوا عن المكان.»

ووقف ماك في اتّضاع وقال:

ـ «لـم أكـن أعـرف، أيّها الكابتن. نقسم لك أننا لـم نـرَ الإشـارة، أيّها الكابتن!»

ـ «هناك إشـارات فـي كـلّ ناحية. وليس من الممكن أن تغفلوا عنها جميعًا.»

فقال ماك:

ـ «أُنظر، أيّها الكابتن. لقد اقترفنا غلطة ونحن آسفون لذلك.»

وتمهّل وأنشأ يحدّق إلى تلك الصورة الجلفة. ثم أضاف:

ـ «أنت رجل عسكريّ، أليس كذلك يا سيدي؟ في استطاعتي دائمًا أن أحزر. فالرجل العسكريّ لا يرفع كتفيه كما يرفعهما الرجل العاديّ. لقد خدمت في الجيش فترة طويلة. وفي استطاعتي دائمًا أن أحزر.»

ومن غير ما شعور استقامت كتفا الرجل. لم يكن ذلك واضحًا، ولكنه وقف وقفة مختلفة. وقال:

ـ «لست أسمح بإضرام النيران في أرضي.»

فقال ماك:

ـ «حسنًا، نحن آسفون جـدًّا. سـوف نبرح المكان في الـحال، أيّها الكابتن. تلاحظ، إننا نعمل في خدمة بعض العلماء. لقد خرجنا لنجمع بعض الضفادع. إنهم يقومون بأبحاث في مرض السرطان، ونحن نساعدهم باصطياد الضفادع.»

وتردّد الرجل لحظةً ثم تساءل:

ـ «وماذا يفعلون بالضفادع؟»

فقال ماك:

ـ «حسنًا، يا سيدي، إنهم ينقلون مرض السرطان إلى الضفادع ثم يكون في مقدورهم أن يدرسوا ويختبروا، ويتغلّبوا عليه تقريبًا إذا حصلوا على بعض الضفادع. ولكنْ إذا كنت لا تريد أن ترانا على أرضك، أيّها الكابتن، فلا بأس، سوف نخرج في الحال. إننا ما كنا لنأتي إلى هنا لو عرفنا.»

وفجاةً بدا ماك وكأنه رأى إلى الكلب أول مرة، فاستطرد في حماسة:

ـ «وحقّ الإله، هذه كلبة جميلة جدًّا. إنها تشبه «نولا» التي نالت الجائزة في مسابقات فيرجينيا، العام الماضي. أهي كلبة فيرجينيّة، أيّها الكابتن؟»

وتردد الكابتن ثم فزع إلى الكذب فقال في خشونة:

ـ «نعم. إنها عرجاء. لقد عقصتْها قُرادة من كتفها.»

وفي الحال أخذ الجزَع ماك، وقال:

ـ «أتسمح لي في إلقاء نظرة، أيّها الكابتن؟ تعالَي، أيتها البنت! تعالَي أيتها البنت!»

وتطلّعت الكلبة إلى سيّدها ثم اقتربت إلى ماك على نحوٍ جانبيّ. فقال مخاطبًا هاتزل:

ـ «أشعِلْ بعض الأغصان الصغيرة حتى أستطيع أن أرى.»

فقال الكابتن وقد انحنى فوق كتف ماك ليرى:

ـ «إنها في مكان مرتفع حيث لا تستطيع أن تلعقها.»

وضغط ماك على الفوّهة البشعة القائمة على كتف الكلبة وأخرج منها بعض الصديد. ثم قال:

ـ «كان عندي في ما مضى كلب أصيب بمثل هذا، وكانت الإصابة بليغة إلى حدّ قضى على الكلب. لقد وضعتْ جراءً منذ قريب، أليس كذلك؟»

فأجاب الكابتن:

ـ «نعم. ستة. أنا أضع بعض اليود في المكان.»

فقال ماك:

ـ «لا. هذا لا يجدي. هل عندك شيء من «أملاح إيبسوم» في بيتك؟»

ـ «أجل، عندي زجاجة كبيرة.»

ـ «حسنًا، يجب أن تصنع لزقة حارّة من أملاح إيبسوم وتضعها هنا. إنها متعَبة، كما تعرف، من الجِراء. وإنه لَمن العار أن تمرض الآن. إنك قد تخسر الجراء أيضًا.»

وحدّقت الكلبة إلى عيني ماك تحديقًا عميقًا، ثم لعقت يده.

ـ «سوف أقول لك ما الذي سأعمله، أيّها الكابتن. سوف أُعنى بها بنفسي. إنّ أملاح إيبسوم سوف تشفيها. هذه أفضل السبل.»

وربّت الكابتن على رأس الكلبة، وقال:

ـ «أتدري، إنّ عندي قريبًا من البيت بركةً ملأى بالضفادع إلى درجة تذود عن عينيّ النوم. لماذا لا تجمعون الضفادع من هناك؟ إنها تنقّ طَوالَ الليل، وإني لَأكون سعيدًا بأن أتخلّص منها.»

فقال:

ـ «هذا لطفٌ عظيم منك. وإني لَأراهن على أنّ أولئك العلماء سوف يشكرونك على ذلك. ولكن يجب أن أضع لزقة على كتف هذه الكلبة.»

والتفت إلى الآخرين وقال:

ـ «أطفئوا هذه النار. تأكّدوا أنكم لم تتركوا شرارة واحدة، ونظّفوا المكان. ينبغي أن تُزيلوا الأوساخ جميعًا. ولَسوف أمضي أنا والكابتن للعناية بنولا هذه. وفي إمكانكم أن تلحقوا بنا حين تنتهون من ذلك.»

ومضى ماك والكابتن في سبيلهما.

ورفس هاتزل الرمل على النار، وقال:

ـ «أراهن أنه كان في استطاعة ماك أن يصبح رئيسًا للولايات المتحدة لو أراد!»

فتساءل جونز:

ـ «وما الذي كان يستطيع أن يفعله بتلك الرئاسة لو حصل عليها؟ إنها خليقة بأن تكون خلوًا من المتعة والظرف!»

- 14 -

الصباح الباكر فترة مسحورة في شارع السردين المعلّب. ففي تلك اللحظات التي تعقب انبلاج النور وتسبق إشراق الشمس، يبدو الشارع وكأنه يتدلى متأرجحًا خارج الزمن في ضوء فضّيّ. إنّ أنوار الشارع لَتَّطفأ، وأن الأعشاب لَخضراء ساطعة. ويلتمع حديد المصانع المتغضن بمثل تألّق البلاتين أو مزيج القصدير والصفيح العتيق. وليس ثَمَّةَ سيارات تجري في تلك الفترة. فالشارع ساكن صامت، والمحالّ مغلقة نائمة. وفي مَيْسور المرء أن يسمع اندفاع الأمواج وتثاقلها فيما هي تتكسّر بين أبنية مصانع السردين المعلّب. إنها فترة السلم الكبير، فترة مهجورة، بل حقبة صغيرة من السكون والراحة. فالقطط تثب من فوق الأسيِجة وتنساب كالشراب المسفوح على الأرض بحثًا عن رؤوس السمك المقطوعة. وكلاب الصباح الباكر الصامتة تقوم بعرض مَهيب، متخيّرةً في كثيرٍ من الرويّة والحكمة مكانًا تبول فيه. وتُقبل طيور النوْرس مُصَفّقةً بأجنحتها لتحطّ فوق سطوح المصانع في انتظار النُّفايات. إنها تقعد كتفًا إلى كتف فوق قمم السطوح. ومن الصخور القائمة قرب «محطة هوبكنز البحرية» ينطلق زئير أسود البحر مثل نباح الكلاب السلوقية. إنّ الهواء لَبارد منعش. وفي الجنائن الخلفية تخرّب ضروب من السناجيب (الغوافر) روابي التراب الصباحية الندية ثم تخرج متثاقلة وتجرّ

الأزهار إلى أوكارها. إنّ عددًا قليلًا جدًّا من الناس يمشون في الشارع، عددًا كافيًا لِجعْله يبدو موحشًا مهجورًا بأكثر مما هو موحش مهجور. وتعود إحدى فتيات دورا إلى مقرّها من زيارة كانت قد قامت بها تلبيةً لدعوة زبون هو من الثروة أو المرض بحيث لا يقوى على زيارة الـ «بير فلاغ». إنّ زينتها لَزِجةٌ بعض الشيء، وإنّ قدميها لَمُتْعَبَتان. ويُخرج «لي تشونغ» صفائح النُّفايات ويضعها على الحاجز. وينطلق الرجل الصينيّ العجوز من البحر ويمضي مطقطقًا عَبْرَ الشارع مصعّدًا نحو «القصر» من غير أن يتوقف عنده. ويتطلّع حرسُ المصانع إلى ضوء الصباح فيبهر أعينهم. ويخطو «القبضاي» المكلّف حماية الـ «بير فلاغ» إلى الرواق في قميص نومه، ويتمطى ويتثاءب ويحكّ مَعِدته. ويتميّز غطيط المستأجرين في براميل مستر مالوي بجرْسٍ نَفَقيّ خاصّ. إنها ساعة اللؤلؤ ـ تلك الفترة الفاصلة ما بين النهار والليل، حين يتمهل الزمان ويفحص نفسه.

في مثل هذا الصباح وفي مثل هذا الضوء ذرَعَ الشارعَ في رِفْقٍ وأناة جنديّان وفتاتان. لقد خرجوا من «لا إيدا»، ولقد كانوا متعبين جدًّا، سعداء جدًّا. وكانت الفتاتان بدينتين، كبيرتي الأثداء، قويّتين، وكان شعرهما الأشقر أشعث منفوشًا بعض الشيء. كانتا ترتديان ثياب سهرةٍ من الحرير الصناعي المحلّى بالرسوم، وقد تجعّدت الآن وتعلّقت بتحدّباتها. وكانت كلٌّ منهما تعتمر بقبعة صاحبها، وقد ردّتها إحداهما ردًّا عنيفًا إلى وراء، وأسبلت الأخرى رفرفها إلى ما فوق أنفها تقريبًا. كانت شفاههما ملأى، وأنفاهما كبيرين، وأوراكهما ضخمة. وكانتا منهوكَتَي القوى.

كانت سراويل الجنديّين غير مزرّرة، وكان حزاماهما يتّخذان سبيلهما عَبْرَ قطَع القُماش المزخرف التي تزيّن أكتافهما. أمّا رباطا الرقبة فكانت عقدتاهما دانيتين بعض الشيء حتى يصبح من المستطاع فك زرّ القميص الأعلى. وكان الجنديّان يعتمران قبّعتي الفتاتين، فأمّا إحداهما فكانت قبّعة

قشّ صغيرة صفراء على تاجها حزمة من الأقحوان. وأمّا الأخرى فكانت قبّعة نصفيّة بيضاء محبوكة تتعلق بها مداليات من ورق السيلوفان الأزرق. لقد مشوا متشابكي الأيدي، مرنِّحين أيديهم في تناغم وإيقاع. وكان الجنديّ الماشي إلى الطرف يحمل كيسًا ورقيًا أسمر كبيرًا يغصّ بعلب الجعة الباردة. مشوا في أناة ولين في ذلك الضوء اللؤلؤيّ. وما الذي يحملهم على التعجّل؟ إنّ لديهم لَمُتَّسعًا كبيرًا من الوقت، وإنهم لَيستشعرون السرور والسعادة. لقد تبسّموا في رقّة كالأطفال المتعَبين إذا ما ذكروا حفلة أو سهرة. ونظر بعضهم إلى وجوه بعض وابتسموا، مُراوحين أيديهم إلى أمام وإلى وراء. ومرّوا بالـ «بير فلاغ» وقالوا «هييا!» للحارس الذي كان يخدش مَعِدَتَه. وأصاخوا إلى الغطيط المنبعث من براميل مستر مالوي وضحكوا قليلًا. حتى إذا بلغوا بِقالة «لي تشونغ» تمهّلوا وألقوا نظرةً على واجهة العرض المشوّشة حيث ازدحمت الأدوات والثياب والأطعمة ازدحامًا يلفت الانتباه. ثم إنهم رنّحوا أيديهم وجرجروا أرجلهم، وانتهوا إلى آخر شارع السردين المعلّب، وانعطفوا مصعّدين في طريق الخط الحديديّ. وتسلقت الفتاتان السّكة، وسارتا فوقها، في حين طوّق الجنديّان خصريهما البدينين وقايةً لهما من السقوط. ثم إنهم اجتازوا موقع بناء السفن وهبطوا منعطفين نحو «محطة هوبكنز البحرية» الشبيهة بحديقة من الحدائق العامة. إنَّ ثَمَّةَ لَشاطئًا رمليًا منحرفًا أمام المحطة، شاطئًا مصغّرًا بين سلاسل ضئيلة من الصخور. كانت أمواج الصباح اللطيفة تلعق الشاطئ بألسنتها، وتهمس في أذنه همسًا رفيقًا. وكانت ريح الأعشاب البحرية العذبة تنبعث من الصخور البارزة. وما إن بلغ الرفاق الأربعة الشاطئ حتى أرسلت الشمس أشعّتها الفضّيّة على أرض «توم وورك» عَبْرَ رأس الخليج، فذهّبت صفحة المياه، وخلعت على الصخور صبغة صفراء. وفي كياسة قعدت الفتاتان على الرمل وغطت كلٌّ منهما ركبتيها بفضل ردائها. وفتح أحد الجنديّين أربع صفائح من الجعة

وأدارها على الجمع ثم اضطجع الرجلان، ووضعا رأسيهما في حضني الفتاتين وتطلّعا إلى وجهيهما. وابتسم كلٌّ منهم للآخر ـ سرٌّ رائعٌ مطمئن خائر القوى.

ومن مكان غير بعيد عن المحطة انطلق عُواء كلب. لقد رآهم الحارس ـ وكان رجلًا داكن الوجه نَكِدًا ـ ورآهم كلبُه الأسود النَّكِد أيضًا. وصرخ الحارس عليهم، حتى إذا لزموا أماكنهم تقدّم نحوهم وكلبُه ينبح نُباحًا رتيبًا، ثم قال:

ـ «ألا تعلمون أنكم لا تستطيعون أن تنطرحوا ههنا على الأرض؟ ينبغي أن تغربوا في الحال. هذه البقعة ليست مشاعًا. إنها مِلْكٌ شخصيّ!»

وبَدا الجنديّان وكأنهما لم يسمعا كلمة من كلماته. لقد واصلا ابتسامهما، وكانت الفتاتان تداعبان شعريْهما فوق الأصداغ. وأخيرًا، وفي حركة بطيئة، فتل أحد الجنديَّين رأسه حتى لقد استراح خدُّه على مثل المهد الهزّاز بين أقدام الفتاتين. ثم إنه تبسّم في طيب نفسٍ وقال للحارس في لطفٍ:

ـ «لماذا لا تذهب وتُشبع غريزتك بطريقة ما؟»

ثم التفت ليكحّل الطَّرْف برؤية الفتاة.

وأضاءت الشمس شعرها الأشقر. وحكّت إحدى أذنيه. واستغرقوا في نشوة غفلوا معها حتى عن أن يروْا إلى الحارس وهو ينقلب إلى بيته.

- 15 -

حين وصل الغلمان إلى المنزل الريفي كان ماك في المطبخ. كانت كلبة القنص مضطجعة على جانبها، وكان ماك يعالج موضع العضّة بخرقة مشبعة بأملاح إيبسوم. وبين رجليْها، كانت الجِراء الكبيرة البدينة تتدافع وتتلاطم طلبًا للّبن.

وتطلّعت الكلبة في تجمّل إلى وجه ماك قائلة:

ـ «أرأيتَ كيف؟ أنا أحاول أن أخبره، ولكنه لا يفهم.»

وحمل الكابتن مصباحًا وخفضَ طرفه متطلعًا إلى ماك، وقال:

ـ «أنا سعيد بأن أحيطَ بهذا علمًا.»

فقال ماك:

ـ «أنا لا أريد أن أتدخّل في شؤونك، ولكن هذه الجراء ينبغي أن تُفطَم. فلم يبقَ عند الكلبة كثيرٌ من اللبن، وها هي الجِراء تكاد تمزّقها إرْبًا إرْبًا.»

فقال الكابتن:

ـ «أدري. وأحسب أنه كان يتعيّن عليّ أن أُغرقها كلَّها عدا واحدًا. لقد كنتُ منهمكًا في الإشراف على المكان. والواقع أنّ الناس ما عادوا يولون الكلاب القانصة للطير العناية التي كانوا يولونها إيّاها في ما مضى.»

فقال ماك:

ـ «أدري. وعلى أيّة حال فلستُ أعرف ما الذي أصاب الناس. ولكنك خليق بأن لا تُغرقها، أليس كذلك؟»

فقال الكابتن:

ـ «حسنًا. منذ أن أخذت امرأتي تشتغل بالسياسة وأنا أكاد أُجَنّ. لقد انتُخِبت عضوًا في المجلس التشريعيّ الخاصّ بهذه المقاطعة. وحين لا يكون المجلس منعقدًا تضرب في أرجاء البلاد لتَخْطُب في الناس. حتى إذا رجعَتْ إلى البيت أنفقت وقتها كلّه تدرس وتضع اللوائح.»

فقال ماك:

ـ «لا بدّ أنها مشمئزّة ـ أعني أنها تضيق بالوحدة. والآن، لو كان عندي جرو مثل هذا (واختار واحدًا من الجِراء متمعّجًا) لحصلت على كلب من كلاب الطير في ثلاث سنوات.»

فسأله الكابتن:

ـ «وهل ترغب في أن تأخذ واحدًا؟»

ورفع ماك بصره إليه وقال:

ـ «تعني أنك تسمح لي بأن آخذ واحدًا؟ أوه، أجل وحقّ المسيح!»

فقال الكابتن:

ـ «خذ الجرو الذي يحلو لك. ليس هناك من يفهم كلابَ الطير أكثر منك، في ما يبدو.»

ووقف الغلمان في المطبخ والتقطوا انطباعات سريعة عنه. كان واضحًا أنّ ربة المنزل كانت غائبة. فالصفائح المفتوحة، والمقالي التي ما يزال وَشْيُ البيض المَقليّ عالقًا بها، والفُتات على مائدة المطبخ، وصُندوق الخرطوش المفتوح والقائم فوق صندوق الخبز ـ كلُّ ذلك كان يزعق بأعلى صوته أن ليس في هذا البيت امرأة. في حين كانت الستائر البيضاء، والأوراق المنشورة على رفوف الصحون، والمناشف الصغيرة جدًّا المعلقة على المشجب تقول لهم إن امرأةً كانت هنا. وعلى نحوٍ لا شعوريّ سُرّوا لعدم وجودها هناك. ذلك بأن المرأة التي تنشر الأوراق على الرفوف وتصطنِع مناشف صغيرة مثلَ هذه خليقة بأن لا تثق، في صورة غرَزيّة، بماك وصَحْبه، وأن لا تحبّهم. مثلُ هذه المرأة تعرف أنهم أسوأ ما يهدد البيت من أخطار، لأنهم يقدّمون الراحة والفكر والأُلفة بوصفها مناقضة للنظافة والنظام واللياقة. لقد سرَّهم أن لا تكون هناك.

وبدا الكابتن وكأنما استشعر أنهم يُسدون إليه يدًا. فرغب في أن لا يبرحوا منزله، وقال في تردد:

ـ «ما قوْلُكم، أيّها الغلمان، في أن تشربوا شيئًا يُدخل الدفء على قلوبكم قبل أنْ تخرجوا لجمع الضفادع؟»

وتطلّع الصبية كلُّهم إلى ماك. وكان هذا مقطِّب الجبين وكأنما يفكّر في المسألة تفكيرًا عميقًا. ثم قال:

ـ «من عادتنا حين نكون في مهمة علمية أن نحرّم على أنفسنا احتساء أيّ نوع من أنواع الشراب.»

وفجأة استطرد، وكأنما تبدّى له أنّ قوله ذاك لم يكن ينطوي على كثيرٍ من الحكمة:

ـ «ولكن، أما وقد رأينا مقدار ما أظهرْتَهُ نحونا من لطف فلستُ أرى، أنا شخصيًّا، ما يمنعني من احتساء قدح صغير. هذا في ما يتصل بي. أمّا الغلمان فلستُ أدري رأيهم.»

وقال الغلمان إنهم لا يجدون بأسًا في قدح صغير أيضًا. فما كان من الكابتن إلا أن أتى ببطارية كهربائية ومضى إلى القبو. كان في مَيْسورهم أن يسمعوه وهو يُزيح الصناديق وألواح الخشب، ليصعد السُّلَّم بعد ذلك حاملًا بين يديه برميلًا صغيرًا من خشب البلوط سعته خمسة غالونات. حتى إذا وضعه على المائدة قال:

ـ «في سنوات التحريم أتيت بشيء من الويسكي المصنوعة من الحنطة وخبأته. ولقد خطر لي الساعةَ أن أرى إلامَ انتهى حالُ تلك الويسكي. لقد غدَتْ عتيقة جدًّا الآن. ولقد كدت أنساها تمامًا. أنتم ترون ـ إن زوجتي...»

وترك الجملة معلّقة هكذا لأنه كان واضحًا أنهم فهموا. وانتزع الكابتن سدادة البلوط العتيقة من طرف البرميل الصغير، وجاء ببعض الكؤوس من رفٍّ نُشرت عليه قطعة من الورق متموجة الأطراف. وإنها لمهمة عسيرة أن تصبّ جرعة صغيرة من برميل يتّسع لخمسة غالونات، وهكذا أصاب كلاً منهم نصف كوب ماء من ذلك الشراب الأسمر الرائق. وانتظروا الكابتن في احتفال، ثم قالوا:

ـ «على صحّتك!»

وأمالوا أكوابهم إلى وراء. وابتلعوا ما فيها، وتمطّقوا، ولعقوا شفاههم، وكانت في أعينهم سيما ذاهلة حالمة.

وحدّق ماك إلى كأسه الفارغة، وكأنما خُطّت في قعرها رسالة مقدّسة، ثم رفع عينيه وقال:

ـ «ليس في استطاعة المرء أن يقول شيئًا عن هذا. إنهم لا يعبّئون هذه البضاعة في زجاجات.»

وأخذ نفسًا عميقًا ولعق نَفَسه فيما هو ينطلق من فمه. ثم أضاف:

ـ «لست أظنّ أني ذقتُ أزكى منها في حياتي كلِّها.»

وسُرّ الكابتن. وانقلب بصره إلى البرميل وقال:

ـ «إنها جيّدة. هل تحسب أنك ترغب في قدح صغير آخر؟»

وحدّق ماك إلى كأسه كَرَّةً أخرى. ووافق بقوله:

ـ «لا مانع عندي في جرعة صغيرة. أليس من الأسهل أن تصبّ مقدارًا في إبريق؟ قد تُهرِق شيئًا من الشراب بهذه الطريقة.»

وبعد ساعتين اثنتين تذكّروا الغرض الذي من أجله جاءوا.

كانت بركة الضفادع مستطيلة ـ عرضها خمسون قدمًا، وطولها سبعون، وعمقها أربعة. وكان العشب الغضّ الناعم ناميًا على حافتها، وخندق صغير يحمل إليها الماء من النهر، في حين تصِلها عدّة خنادق بالحدائق المجاورة. وكان ثَمَّةَ ضفادع هناك، آلاف من الضفادع. وكانت أصواتها تشقّ حجاب الليل، فهي تُعول وتنقّ وتتذمر وتخشخش. كانت تغني للنجوم، للقمر المهزول، والأعشاب المتماوجة، وتخور بأناشيد الحب وكلمات التحدي. وزحف القوم وسط العتمة إلى البركة. وكان الكابتن يحمل إبريقًا يكاد يكون مليئًا بالويسكي، وكانت مع كلِّ رجلٍ كأسُه. ليس هذا فحسب، بل لقد قدّم الكابتن إلى كلٍّ منهم مصباحًا كهربائيًّا عاملًا. وكان هيوغي وجونز يحملان أكياسًا من الخيش. وفيما هم يتقدّمون في سكون نحو البركة،

سمعت الضفادع وَقْعَ أقدامهم، فإذا هي تعتصم بالصمت، وكان الليل، قبل ذلك، يضجّ بأناشيدها وأغانيها. وقعد ماك والغلمان والكابتن على الأرض ليحتسوا جرعة صغيرة ختاميّة وليضعوا خطة الحملة. ولقد كانت الخطة جريئة.

فخلال آلاف السنين التي عاشتها الضفادع والناس في عالمٍ واحد، كان من عادة الرجال، في الأعمّ الأغلب، أن يصطادوا الضفادع. وخلال تلك الأحقاب نشأ نمطٌ من القنص واتقاء الضربات. فالرجل يزحف من غير أن يُحدث صوتًا ما ـ في وَهْمِهِ هو ـ نحو الضفدعة، حاملًا شبكة أو قوسًا أو رمحًا أو بندقية. ويقتضي النمط أن تقعد الضفدعة ساكنةً، أن تقعد جدّ ساكنةٍ وتنتظر. أجل تتطلب قواعد اللعبة أن تنتظر الضفدعة حتى آخر ومضة من ومضات الثانية، حين تهبط الشبكة، حين يكون الرمح في الهواء، حين تضغط الإصبع على الزناد، وعندئذٍ تَثِبُ الضفدعة، وتغوص في الماء، وتسبح حتى الأعماق، وتنتظر حتى يبرح الرجل مكانه. تلك هي الطريقة المألوفة، الطريقة التي جرت عليها اللعبة منذ أن كانت. وللضفادع كلُّ الحقّ في أن تتوقع أنها سوف تجري أبدًا هذا المجرى. وبين الفَيْنة والفَيْنة تكون الشبكة أسرع مما يجب، ويمرق الرمح، وتضرب البندقية ضربتها، وتلاقي الضفدعة حتفها. بَيْدَ أنّ هذا كلَّه عدلٌ، وواقعٌ ضمن نطاق الطريقة المشروعة. وليس عند الضفدعة أيّ اعتراضٍ على ذلك. ولكنْ كيف يُنتظر من الضفادع أن تتوقع طريقة ماك الجديدة؟ أنّى لها أن تتنبأ بذلك الهول الذي انقضّ عليها وشيكًا؟ لقد رأت إلى إيماضات المصابيح المفاجئة، وسمعت صياح الرجال وصراخهم الشديد ووقع أقدامهم. فإذا بكلّ واحدة منها تَثِبُ وتغوص في البركة وتسبح في هياج نحو القاع. ثمّ إنّ الرجال خوّضوا في البركة، خابطين مخضخضين، مصعّدين تصعيدًا مجنونًا، مبعثرين أقدامهم ههنا وههناك. وفي حركات هستيريّة تسبح الضفادع ـ وقد زُحزحت عن مواطنها الهادئة

المطمئنة ـ أمام الأرجل المجنونة الدارسة، فتلحق بها الأقدام. والضفادع تجيد السباحة، ولكنها لا تطيق ذلك فترةً طويلة. وهكذا قصدت إلى أدنى البركة حتى لقد انتهت آخِرَ الأمر إلى أن تحتشد في أطرافها. وتبعتها الأقدام والأجساد المخوّضة. وأضاعت بعضُ الضفادع صوابها وخبطت بين الأقدام على غير هدى، ومرقت من خلالها. وهكذا نجت بجلدها. أمّا كثرة الضفادع فاعتزمت أن تهجر البركة إلى الأبد، لتبحث عن منزل جديد في بلد جديد حيث لا يقع شيء من مثل هذا. ومن هنا انطلقت جماعة غفيرة من الضفادع المخبّلة المهزومة، وبعضُها كبير وبعضُها صغير، بعضُها أسمر وبعضُها أخضر، بعضُها ذكَر وبعضُها أنثى ـ انطلقت كلُّها انطلاقَ الموج فوق الضفة، وزحفت، ووثبت، ودبّت دبيبًا. لقد تسلّقت العشب، وتمسَّك بعضُها ببعض، وركبت الصغيرات منها مُتون الكبيرات. وعندئذٍ اكتشفتها المصابيح الكهربائية ـ هولٌ على هول. وقطفها رجلان اثنان كما يُقْطَف الكرز. وخرج الجمع من الماء وتعقّبوا فُلول الضفادع وجمعوها كما تُجمع البطاطا. كانت عشراتٌ بل خمسوناتٌ منها تُلقَى في أكياس الخيش، فإذا بتلك الأكياس تغصّ بضفادع متعَبة، مروَّعة، بضفادعَ مرتشحة منتحبة. لقد فرّ بعضُها طبعًا، ونجا بعضُها بنفسه في البركة. ولكن تاريخ الضفادع بطوله لم يشهد مثلَ هذه الغارة. ضفادع تزن رطلًا، وضفادع تزن خمسين رطلًا. إنها أكثر من أن تُحصى، ولكنْ يغلب على الظن أنّ عددها يتراوح ما بين ستمئة وسبعمئة. ثم إنّ ماك ربط، في بِشْر، أعناق الأكياس. وكان الماء يقطر من ثياب الجمع وأجسادهم، وكان الهواء باردًا. واحتسوا قدحًا صغيرًا على العشب قبل أن ينقلبوا إلى المنزل، وقايةً لأنفسهم من الزكام.

ويكاد يكون من الثابت أنّ الكابتن لم ينعم بمثل هذه المتعة قطّ من قبل. كان مَدينًا لماك وللغلمان. وفي ما بعد، عندما اشتعلت النار في الستائر ثم أُطفئت بالمناديل الصغيرة، سألهم الكابتن أن لا يبالوا بذلك. لقد استشعر

أنّ في إحراقهم منزلَه بِرُمّته، إذا شاءوا، شرفًا له. ولقد قال في ما يشبه الخطاب الاختتامي:

ـ «زوجتي امرأة رائعة، امرأة رائعة إلى أبعد الحدود. كان ينبغي أن تكون رجلًا. ولو قد كانت رجلًا إذن لما تزوّجتها.»

وضحك لهذه العبارة فترةً طويلة، وكرّرها ثلاث مرّات أو أربع مرّات، وعزم على أن يحفظها لكي يكون في مَيْسوره أن يُعيدَها على مسامع عدد كبير الناس. ثم إنه ملأ أحد الأباريق بالويسكي وقدّمه إلى ماك. ليس هذا فحسب، بل لقد أراد أن يعيش معهم في «بالاس فلوبهاوس». وقرّر أنّ امرأته خليقةَ بأن تحبَّ ماك وصحابته إذا ما عرفَتْهم، وأخيرًا مضى لينام على الأرض واضعًا رأسه بين الجِراء. وملأ ماك والغلمان أقداحهم بالويسكي وراقبوه في جدّ.

وقال ماك:

ـ «لقد أعطاني إبريق الويسكي هذا، أليس كذلك؟ هل سمعتموه؟»

فقال إيدي:

ـ «طبعًا، لقد فعل. لقد سمعتُه أنا.»

ـ «وأعطاني جروًا أيضًا؟»

ـ «مؤكد. إخترْ ما يحلو لك منها. لقد سمعناه كلُّنا. لماذا؟»

وقال ماك:

ـ «أنا لم أتدحرج من السّكْر في يومٍ من الأيام، ولست أنوي أن أفعل ذلك الآن. إنّ علينا أن نغادر هذا المكان. فلسوف يُفيق من نومه نَكِدَ النفس، وعندئذٍ تكون الغلطة غلطتنا. وعلى أيّة حال، فَلستُ أريد أن أبقى هنا.»

وألقى ماك نظرةً على الستائر المحروقة، وعلى أرض المنزل الملتمعة بالويسكي وقذر الجراء، وإلى دُهن لحم الخنزير المتخثّر على مُقدّم الموقد. ثم إنه مضى إلى الجِراء، وتفحّصها في عناية، وجسّ عظمها وجسدها، ناظرًا إلى أعينها وأحناكها، ليختار آخِرَ الأمر كلبة منقَّطة تنقيطًا جميلًا، ذات أنف كبديّ اللون، وعينين بارعتين داكنتَي الصُّفْرة. وخاطبها قائلًا:

ـ «تعالَي، أيتّها الحبيبة!»

وأطفأوا المصباح اجتنابًا لخطر الحريق. وكان الضحى على وشك أن يرتفع عندما برحوا المنزل.

وقال ماك:

ـ «لستُ أظنّ أني قمتُ في حياتي بمثل هذه الرحلة الرائعة. ولكني أفكّر الآن في زوجته وقد عادت إلى البيت.»

وتضاغت الكلبة الصغيرة بين ذراعيه، فوضعها تحت سترته، وأردف:

ـ «إنه فتًى ممتاز حقًّا. أعني بعد أن توقع في نفسه الارتياح.»

وأوسع الخطى نحو المكان الذي تركوا فيه «فورد طراز ت»، وقال:

ـ «ينبغي أن لا ننسى أننا نفعل هذا كلَّه من أجل دوك. ومن الطريقة التي تجري فيها الأمور موفقةً ناجحةً يبدو لي أنّ دوك فتًى محظوظ إلى حدٍّ لا بأس به.»

- 16 -

لعلّ آذار صيد السردين الكبير كان أخصبَ الأيام التي عرفتها بنات الـ «بير فلاغ» وأحفلها بالنشاط. ولم يكن مردّ ذلك إلى أن الأسماك كانت تتدفق بالبلايين الفضية فحسب، وإلى أن المال كان يتدفق بمثل تلك الغزارة تقريبًا، فحسب. بل لقد انضاف إلى هذا كلّه عاملٌ جديد هو أنّ كتيبة جديدة انتقلت إلى «بريسيديو». والحزمة الجديدة من الجند من دأبها أن تغشى مواطن اللذات فتسرف في ذلك قبل أن يستقرّ بها المقام. وحتى في تلك الفترة، كانت دورا تشكو شحًّا في البضاعة. ذلك بأن إيفا فلاناغان كانت تقضي أيام عطلتها في «إيست سانت لويس»، وفيليس ماي كانت قد كسرت رجلها وهي تغادر حافلة السكة الحديدية في «سانتا كروز»، وإيلزي دويلبوتوم كانت قد اعتكفت للصلاة والعبادة تسعة أيام متعاقبة ولم تعد تصلح كثيرًا لشيء غير هذا. وكان الرجال العاملون في أسطول السردين، المثقلون بالمال، لا يفتأون يدخلون ويخرجون طَوالَ ساعات الأصيل. إنهم يركبون السفن الشراعية في العتمة ويصيدون طَوالَ الليل، وإذن فينبغي أن يرفّهوا عن أنفسهم بعد الظهر. وفي المساء كان جنود الكتيبة الجديدة يَفِدون ويتجمهرون حول الصندوق الموسيقي، ويشربون الكوكاكولا وهم ينظرون إلى البنات من أعلى الرأس إلى أخمص القدم ليختار كلٌّ منهم تلك التي

تحلو له. وكانت دورا تعاني متاعب تتصل بضريبة الدخل، بعد أن حيَّرها ذلك اللغز العجيب الذي يقول بأن تجارتها غير شرعية ثم يفرض عليها الضريبة من أجلها. وبالإضافة إلى هؤلاء جميعًا كان هناك جماعة النظاميّين ـ وهم الزبائن الدائمون الذين اعتادوا المجيء طَوالَ سنوات وسنوات: العمال من الورَش، والخيّالة من المَزارع المَعنِيَّة بتربية المواشي، ومستخدمو السكة الحديدية الذين كانوا يَلِجون البيت من الباب الأمامي، والموظفون ورجال الأعمال البارزون الذين كانوا يَلِجونه من الباب الخلفي، والذين كانت تُفرَد لهم غرف قعود صغيرة غُطِّيَ أثاثُها بقُماش قطنيّ ذي ألوان متعددة.

وعلى الجملة فقد كان شهرًا مروِّعًا. وزاد الطين بِلَّةً أنّ وباء الأنفلونزا لم يخطر له أن يتفشّى إلا في منتصفه. لقد غزا البلدة كلّها. فأصيبت به مسز تالبوت وابنتها المشرفة على «أوتيل سان كارلوس». وأصيب به توم وورك. وكذلك أصيب به بنجمان بيبودي وامرأته. وأصيبت به الأكسيلنتسّيما ماريا آنطونيا فيلد، وأسرة «غروس» عن بكرة أبيها.

وجُنّ جنون أطباء مونتيري ـ وكان فيها عددٌ منهم يكفي لمعالجة الأمراض العاديّة وحوادث الاصطدام والعُصابات. لقد تعيّن عليهم أن يقوموا بعمل يفوق طاقتهم بين زبائن إن لم يدفعوا فواتيرهم فقد كانوا يملكون، على الأقلّ، المال الضروريّ لدفعها.

ولم يزر الوباء شارع السردين المعلّب الذي كان يُنجب ذرّيّة أشدّ قسوةً وأقوى على الاحتمال من سائر أجزاء البلدة، ولكنه سقط صريع الداء آخر الأمر أيضًا. وأُوصِدَت أبوابُ المدارس. ولم يَخْلُ بيتٌ من أطفال محمومين وآباء مرضى. صحيح أنه لم يكن داءً مميتًا، شأنه سنة 1917، ولكنه كان كثيرًا ما يؤدي ـ عند الأطفال ـ إلى التهاب النتوء الحلمي للعظم الصدغي. كانت

الصناعة الطبية في شُغُلٍ شاغل، وفوق ذلك فلم يكن شارع السردين المعلّب يُعدّ مخاطرةً مالية كبيرة.

ولم يكن دوك صاحب المختبر البيولوجي الغربي يملك حقّ ممارسة الطبابة، وإذا كان كلّ من في الشارع يَفِدُ عليه التماسًا لتوجيهٍ طبّيّ فليس الذنب ذنبه. والحقّ أنه وجد نفسه، على حين غفلةٍ منه، ينتقل من بيت حقير إلى بيت حقير، آخِذًا الحرارةَ، مُعطيًا الأدوية، مستعيرًا ومسلِّمًا ضُروبَ البطّانيّات، بل حاملًا الطعام من بيت إلى بيت حيث كانت الأمهات يتطلّعن إليه من فُرشهنّ بأعين ملتهبة، ويشكرْنه، ويُلقين على عاتقه مهمّة استنقاذ أولادهنّ من الداء الوبيل. حتى إذا أفلتت حالةٌ من حالات المرض من يده حقًّا تلفن إلى أحد الأطبّاء المحلّيّين، فيحضر في بعض الأحيان إذا ما بدا له أنّ الأمر خطير. ولكنّ الأُسَرَ كانت تعتبر الحالات كلَّها خطيرة. وأيًّا ما كان فلم ينعم دوك بكثيرٍ من النوم خلال تلك الفترة. لقد عاش على الجعة والسردين المحفوظ في العلب. وفي ذات يوم لَقِيَ دورا في دكان «لي تشونغ» حيث يشتري الجعة، وكانت هي تلتمس أداةً مقلّمة للأظافر.

فقالت له:

ـ «يبدو أنك متعب حتى الهلاك.»

فأقرّها دوك على ذلك:

ـ «أجل، إلى حدّ الهلاك. إنّ عيني لم تعرف النوم منذ أسبوع تقريبًا.»

فقالت دورا:

ـ «أدري. لقد سمعتُ أنّ الداء وبيل. ولقد جاء في وقتٍ غير مناسب أيضًا.»

فقال دوك:

ـ «حسنًا، إننا لمّا نفقد أحدًا بعد. ولكن ثَمَّةَ أطفالًا أصابهم الداء إصابةً خطرة. لقد أصيب الأطفال من أسرة «رانسيل» بالتهاب النتوء الحلمي للعظم الصدغي.»

فسألَتْه دورا:

ـ «وهل ثَمَّةَ شيء أستطيع أنا أن أفعله؟»

فقال دوك:

ـ «أنتِ تعلمين أنَّ ثَمَّةَ شيئًا تستطيعينه. إنّ الرعب واليأس لَيجتاحان الناس. إنهم خائفون من الموت، وخائفون من الوحدة. لعلّكِ أنتِ تقدرين، أو لعلّ إحدى البنات تقدر، على أن تمكث إلى جانبهم.»

وكان في استطاعة دورا، الناعمة كمثل بطن الفأرة، أن تكون قاسية مثلَ مادّة «السيلكون كربون». ومن هنا انقلبت إلى الـ «بير فلاغ» وجنَّدَتْهُ للخدمة. كان ذلك الوقت حَرِجًا بالنسبة إليها، ولكنها أدّت مهمّتها. فأعدّ الطابخ اليوناني مِرجَلًا كبيرًا يتّسع لعشرة غالونات من الحَساء الحِرّيف، وأبقاه مليئًا دائمًا حِرّيفًا دائمًا. وسعت الفتيات إلى الاستمرار في أداء وظيفتهن، ولكن بعضهنّ كنّ يقصدن إلى بيوت الأُسَر حاملات قدورًا من الحَساء، حتى إذا رجعنَ نهض بعبء هذا الصنيع فوجٌ جديد منهن، وهكذا. وكان دوك في شغل شاغل أبدًا، فكلٌّ يطلبه وكلٌّ محتاجٌ إليه. وكانت دورا تستشيره وتوجّه البنات إلى حيث يشير. وطَوالَ الوقت كان العمل في الـ «بير فلاغ» رائجًا مزدهرًا. فلم ينقطع صندوق الموسيقى عن الدوران لحظةً واحدة. وانتظر الجنود وعمّال أسطول السردين دورهم في صفٍّ طويل. وكانت البنات يؤدّين مهمّاتهنّ ثم يحملن قدور الحَساء ويقصدن لتمريض أولاد «رانسيل» أو أولاد «ماكارثي» أو أولاد «فيريا». وكنّ يتسلّلن من الباب الخلفي. وكثيرًا ما كان النعاس يغلبهنّ، أثناء سهرهنّ إلى جانب الأطفال النائمين، فتغتمض أعينهنّ وهنّ

في كراسيهنّ. ولم يَعُدْن يصطنعن الأبيض والأحمر في العمل، فلم تبق بهنّ حاجة إلى ذلك. ولقد قالت دورا نفسُها إنه كان في مستطاعها أن تفيد من نزيلات بيت العجائز جميعهن. ولا غرابة، فقد كانت تلك الفترة أكثر فترات الـ «بير فلاغ» نشاطًا في تاريخه كلِّه. ولقد كان كلّ امرئ سعيدًا بانقضائها.

- 17 -

كان دوك، على الرغم من حسن وداده وكثرة أصدقائه رجلًا متوحدًا معتزلًا. ولعل ماك لاحظ ذلك أكثر مما لاحظه أيّ إنسان آخر. وحتى في الاجتماعات، كان دوك يبدو وكأنه وحيد. فحين تضاء الأنوار، وتُسْدَل السجف، وتُعزف الموسيقى الغريغورية على الفونوغراف الكبير كان من عادة ماك أن يمعن النظر، من «قصر فلوبهاوس»، إلى المختبر البيولوجي الغربي. كان يعلم أن دوك مختلٍ هناك بإحدى الفتيات. ولكن ماك كان يخرج من هذه المشاهدة بحسٍّ بالتوحد مروِّع. فحتى في الاتصال الوثيق الحبيب بفتاة ما، كان ماك يشعر أنّ دوك يشكو الوحدة. وكان دوك دودةً من ديدان الليل. فالأضواء كانت تنير المختبر طَوالَ الليل، ومع ذلك فقد بدا صاحيًا في ساعات النهار أيضًا. وكانت دفقات الموسيقى العارمة تنطلق من المختبر في أيّما فترة من فترات الليل أو النهار. وفي بعض الأحيان، حين تغمر العتمة كلَّ شيء، وحين يبدو وكأنّ النعاس قد أقبلَ آخِرَ الأمر، كانت تنبعث من نوافذ المختبر أصوات «الجوقة الستّينية»(*) الطفليّة ذات الجَرْس الماسيّ.

(*) جوقة مختارة تتألف من اثنين وثلاثين صوتًا مُلحَقة ببلاط البابا. (المعرِّب)

وكان على دوك أن يَفرغ لجمع ما هو في حاجة إليه من ضروب الحيوانات المائية، فكان يسعى إلى أن يدرك الشاطئ في حال الجَزْر الملائم. وكانت صخور البحر والسواحل الرملية هي مستودع بضاعته. ذلك بأنه كان يعرف أين يجد أيّما شيء حين يكون راغبًا فيه، فهو يجمع كلَّ أدوات تجارته في طريقه على الشاطئ، فـ«مهود البحر» من هنا، والأخطبوط من هناك، وأقاحي البحر من هنالك. لقد عرف أين يقع عليها، ولكنه ما كان يستطيع أن ينطلق في سبيلها ساعة يشاء. ذلك بأن الطبيعة تحجز كلًّا من تلك الموادّ المفردة، ولا تُطلق سراحها إلا لَمامًا. ولم يكن من الحتم على دوك أن يعرف مواقيت الجَزْر فحسب، بل لقد تحتَّم عليه أن يعلم متى تكون حال جَزْرٍ بعينها مُسعفةً في مكانٍ بعينه. حتى إذا نشأت مثل هذه الحال حشد أدوات الصيد في سيارته ومضى إلى الساحل الرمليّ أو إلى مجتمع الصخور أو سلاسلها حيث يقع على ما يحتاج إليه من ضروب الحيوان.

وكان قد سُئل مقدارًا من الأخطبوط الصغير، وكان المكان الأقرب لالتماسه هو تلك المنطقة التي يتعاقب عليها المدّ والجَزْر، والتي تتناثر فيها الحجارة عند «لا جولا»، بين لوس آنجليس وسان دياجو. ومعنى ذلك أن تجتاز به السيارة خمسمئة ميل ذهابًا ومثلها إيابًا، وأن يتفق وصوله مع انحسار الماء وتراجعه.

والأخطبوط الصغير يعيش بين الحجارة المطمورة بالرمل. وإذ كان جبانًا حَدَثَ السنّ فإنه يؤثر الأعماق السحيقة ذات الكهوف الكثيرة، والفجوات الصغيرة، وكتل الطين حيث يكون في ميْسوره أن يختبئ من الغزاة، ويقيَ نفسه غائلة الأمواج. ولكن ثَمَّةَ على المنبَسَط نفسه ملايين من «مهود البحر» فكان دوك كلّما خرج لجمع الأخطبوط يجدّد ذخيرته من المهود في آنٍ معًا.

وكان ميقات الجَزْر هو الساعة الخامسة وسبع عشرة دقيقة من بعد ظهر الخميس. فلو برحَ دوك مونتيري صباح الأربعاء إذن لكان في مَيْسوره أن يُدرك انحسار الماء يوم الخميس. ولقد كان خليقًا به أن يصحب شخصًا ما، ولكن المصادفة المجرّدة شاءت أن يكون كلّ امرئ غائبًا أو مشغولًا. كان ماك والفتية في وادي كارميل يصيدون الضفادع. وكانت ثلاث نسوة يعرفهنّ وكان جديرًا به أن يستمتع برفقتهنّ ذوات أعمال فليس في استطاعتهنّ مغادرة البلد في منتصف الأسبوع. وكان هنري الرسام في شغل شاغل. ذلك أنّ «محلّات هولمان» لم تصطنع رجلًا يقعد إلى جانب سارية العَلَم، ولكن متزلجًا فوق السارية. لقد نُصب له، على سارية طويلة قائمة في قمة المخزن، منبر مدوّر صغير، فهو يدور حوله على مزلاجين ويدور. وكان قد سلخ الآن، في مهمّته تلك، ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. وكان يبتغي أن يضع رقمًا قياسيًّا جديدًا للتزلج على منبر. والواقع أنّ الرقم القياسيّ السابق كان 127 ساعة، وهكذا كان عليه أن يواصل الدوران فترةً أخرى. وكان هنري قد اتخذ لنفسه مستقَرًّا عَبْرَ الشارع المؤدي إلى محطة البنزين التي يملكها «رد وليامز». وفُتِن هنري حقًّا. وفكّر في أن يصنع صورة تجريدية كبيرة يدعوها «الحلم الأساسي لمتزلج فوق سارية العلم». ولم يكن في مَيْسور هنري أن يبرح البلدة ما دام المتزلج قائمًا هناك. وكان يحتجّ بأن هذا الضرب من التزلج ينطوي على مضامين فلسفية لم يلمحها أحد سواه. فهو يجلس إلى كرسيٍّ، وينحني مستندًا إلى العوارض الخشبية المتقاطعة التي تحجب باب الكنيف الخاصّ بالرجال في محطة «رد وليامز»، ويسمّر عينه على منبر التزلج الشاهق. فليس في استطاعته، كما هو واضح، أن يمضيَ مع دوك إلى «لا جولا». وهكذا تعيّن على دوك أن يذهب وحده لأن الجَزْر لا ينتظر.

وفي الصباح الباكر أعدّ أشياءه كلّها. فأمّا الشخصية منها فدخلت في محفظة كتب صغيرة، وأمّا الأدوات والمحاقن فدخلت في محفظة أخرى.

حتى إذا وضّب ذلك كلَّه رجّل شعره وهذّب لحيته السمراء، وتأكد من أنّ أقلامه موجودة في جيب قميصه، وأنّ منظاره المكبِّر معلّق بثنيّة سترته. وحشد دوك الأطباق والقناني والصحون الزجاجية والمواد الكيميائية الحافظة، وحذاء من المطّاط وبطّانيّة، في مؤخَّر سيارته. لقد نهض مبكرًا فعمل في الفترة اللؤلؤية، غاسلًا عددًا من الصحون يكفيه ثلاثة أيام، ملقيًا النفايات على الشاطئ. ثم إنه ردّ الأبواب، ولكنه لم يقفلها. ولم تبلغِ الساعة التاسعةَ حتى كان ماضيًا في سبيله.

وكانت الرحلة تقتضي دوك وقتًا أطول مما تقتضي أيّ رجل غيره. ذلك بأنه ما كان يُسرع في السَّوق، وكان كثيرًا ما يقف ليتناول شيئًا من شطائر لحم البقر. حتى إذا صعّد نحو «جادّة الفنار» لوّح بيده لكلب كان يتطلّع في ما حوله وابتسم له. وفي مونتيري، وحتى قبل أن يبدأ الرحلة، أحسّ بالجوع فوقف سيارتهُ عند «هيرمان» ليلتمس شطيرة من لحم البقر وشيئًا من الجعة. وفيما هو يزدرد شطيرته ويرتشف جعته عاودته ذكرى أحاديث كثيرة. فقد سبق لـ «بليز ديل»، الشاعر، أن قال له ذات يوم: «أنت تحبّ الجعة كثيرًا. وأنا أراهن أنك ستأتي يومًا وتطلب بيرة الحليب البارد الممزوج بالبيض والمرطّبات.» والحق أنها كانت مجرّد بلاهة، ولكنها شغلت بال دوك منذ ذلك الحين. لقد تساءل أيّ مذاق يمكن أن يكون لجعة الحليب البارد هذه؟ وأزعجته الفكرة وأثارت اشمئزازه، ولكنه لم يستطع مجانبتها وعدم التحرش بها. فهي تبرز كلّما تناول كأسًا من الجعة. أتخثَّر الحليب؟ وهل يتعيّن على المرء أن يضيف شيئًا من السكّر؟ إنها أشبه ما تكون ببوظة القريدس أو جراد البحر. والواقع انه إذا ما وقع في رأسك شيء فليس في مَيْسورك أن تنساه. وهكذا أنهى ازدراد شطيرته، ودفع الثمن إلى هيرمان. ولغايةٍ في نفسه، لم يُلْقِ نظرةً على آلات مخض اللبن المصطفّة مشرقةً لامعةً على الجدار الخلفي. وقال في ذات نفسه: إذا كان للمرء أن يطلب جعة اللبن المخيض

فمن الخير له أن يفعل ذلك في بلدة لا يعرفه فيها أحد. ولكن إذا ما طلب رجل ذو لحية جعة اللبن المخيض في بلدة ليس يُعرف فيها، فمن الجائز أن يدعو القومُ البوليس... فالرجل الملتحي هو أبدًا موضع ريبةٍ ما على أيّة حال. فليس في استطاعتك أن تزعم أنك تحتفظ بلحيتك لمجرّد أنك تحبّ اللحى، فالناس لا يحبّونك إذا قلتَ الحقيقة. وإذن فعليك أنّ تزعم أن في ذقنك أثرًا لجرح، ومن أجل هذا لا تستطيع أن تحلق. فذات مرة، حين كان دوك في جامعة شيكاغو، استولى عليه حب المتاعب، وكان قد نشط نشاطًا مضنيًا. فبدا له أنّ من الخير أن يقوم بنزهة طويلة جدًّا على القدمين، فحمل حقيبة سفره ومضى عَبْرَ إينديانا وكانتكي وكارولينا الشمالية وجورجيا حتى لبلغ فلوريدا نفسها. لقد سار بين المزارعين وأبناء الجبال، بين أبناء المستنقعات والصيّادين. وفي كلّ مكان سأله الناس عن السبب الذي يحمله على الطواف في الريف.

ولأنه كان يحبّ الحقيقة حاول أن يشرح لهم ذلك. قال إنه يستشعر شيئًا من العصبية، وفوق ذلك فهو يبتغي أن يكحّل بصره بمشهد الريف، ويستروِح عبير الأرض، ويرى إلى العشب والطير والشجر، ويذوق البلاد، وليس ثَمَّةَ وسيلة إلى هذا كلّه خيرًا من السيْر على القدمين. ولم يحبّه الناس لأنه قال الحقيقة. لقد عبسوا، وهزّوا رؤوسهم حينًا وخفقوها حينًا. لقد ضحكوا وكأنما أدركوا أنها كانت كذبة، وهم قومٌ يقدرون الكاذب حق قدره. أمّا فريقٌ منهم فخافوا على بناتهم أو خافوا على خنازيرهم، فسألوه أن يمضيَ لسبيله، أن يبتعد عنهم، أن لا يقف أمام بيوتهم إذا كان عاقلًا يميّز خيره من شرّه.

وهكذا كفّ عن قول الحقيقة. لقد زعم أنه يقوم بهذه الرحلة نتيجةً لرهان سوف يُكسبه مئة دولار. وعندئذٍ أحبّه كلُّ امرئ، وصدّقه. لقد دعوه إلى تناول الطعام معهم، وقدّموا إليه فراشًا، وأعدّوا له بعض الطعام الخفيف،

وتمنّوا له حظًّا سعيدًا، وقالوا في ذات أنفسهم: «يا له من فتًى ظريف.» إنّ دوك لا يزال يحبّ الأشياء الحقيقية، ولكنه يدرك أنّ حبّه ذاك ليس شاملًا، وأنها قد تكون في بعض الأحيان محبوبةً خطرة.

ولم يقف دوك في ساليناس طلبًا لشطائر لحم البقر. ولكنه توقف في غونزالز، وكينغ سيتي، وبازو روبلز. لقد أكل شطيرة وشرب شيئًا من الجعة في سانتا ماريا ـ والأصحّ أنه أكل شطيرتين في سانتا ماريا، لأنّ المدى الفاصل بينها وبين سانتا بربارا كان طويلًا. وفي سانتا بربارا تناول شيئًا من حساء وخسّ وسلَطة لوبياء، ولحم محمّر، وبطاطا مسحوقة، وفطائر الأناناس، وجبن أزرق وقهوة. وبعد ذلك ملأ خزّان البنزين وقصد إلى الكنيف. وفيما كان رجال المحطة يفحصون دواليب سيارته وزيتها غسل دوك وجهه وسرّح لحيته. حتى إذا انقلب إلى السيارة وجدَ في انتظاره جماعةً أنشأ كلُّ فرد من أفرادها يتوسّل إليه أن ينقله معه:

ـ «أذاهب إلى الجنوب، أيّها السيد؟»

لقد ترحّل دوك كثيرًا في الطرق العامة. فهو بذلك متمرّس خبير. والواقع أنّ عليك أن تختار رِفاقك من بين أولئك المتوسلين في كثير من العناية والحذر. ومن الخير لك أن تصطفيَ رجلًا ذا خبرة، لأنه يعتصم بالصمت. أمّا الجُدُد في هذه الصناعة فيحاولون أن يردّوا إليك معروفك بأن يصطنعوا الظرف والإمتاع. ولقد قُدّر على دوك يومًا أن يُمْنَى بواحد من هؤلاء أبرمه إبرامًا شديدًا. وبعد أن تُقرّر أيّ رجلٍ ينبغي أن تصطحب يَحْسُن بك أن تحميَ نفسك بالقول إنك غير ذاهب إلى مكان بعيد. حتى إذا تكشّف ذلك الرجل عن سماجة يشقّ عليك احتمالها سارعْتَ إلى إلقائه في بعض الطريق. ومن ناحية ثانية، فقد تكون ذا حظٍّ سعيد وتقع على رجلٍ جدير بأن تتعرف إليه. وهكذا استعرض دوك الجماعة استعراضًا خاطفًا، واصطفى

رفيقه، فإذا هو رجلٌ مهزول الوجه، تغلب عليه سيما التجّار، ويرتدي سترة بيضاء. وكان ذا عينين داكنتين حالمتين، وفمٍ تحيط به خطوط عميقة.

ونظر إلى دوك في أَنَفَة:

ـ «أذاهب إلى الجنوب، أيّها السيّد؟»

فقال دوك:

ـ «أجل. بعض الشيء.»

ـ «وهل لك في أن تأخذني معك؟»

فقال دوك:

ـ «إصعد!»

وانتهيا إلى فانتورا بُعيد تناول ذلك الغداء الثقيل. من أجل ذلك توقف دوك طلبًا للجعة ليس غير. ولم يكن رفيقه المهزول الوجه قد نبس بكلمة.

وتقدّم دوك إلى دكان صغير قائم إلى جانب الطريق، ثم سأل رفيقه:

ـ «أتريد شيئًا من الجعة؟»

فقال الرجل:

ـ «لا. ولست أرى ما يمنعني من القول بأنّ من الخطر أن يقود المرء سيارته تحت تأثير الخمر. أنا لا يحقّ لي أن أعترض على تصرّفك بروحك، ولكن لديك في هذه الحال سيارة، وفي وُسْعِ السيارة أن تغدوَ سلاحًا خطرًا بين يدي السائق الثمِل.»

وذُهل دوك بعضَ الشيء أولَ الأمر. ثم قال في رِفق:

ـ «أخرج من السيارة.»

ـ «ماذا؟»

فقال دوك:

ـ «سوف ألكمك لكمة على الأنف إذا لم تغادر السيارة قبل أن أعدّ العشرة. واحد ـ اثنان ـ ثلاثة...»

وتلمّس الرجل مقبض الباب، وسارع إلى الخروج من السيارة. ولكنه لم يكد يطأ الأرض حتى صاح قائلًا:

ـ «سوف أبحث عن شرطيّ. سوف أجعلهم يلقون القبض عليك!»

وفتح دوك الصندوق الخاصّ بأدوات السيارة وأخرج منه مِلزمًا حديديًا. ولم يكد ضيفه يرى إليه حتى ولّى هاربًا.

ومشى دوك مُغضَبًا إلى منصّة الدكان.

وابتسمت النادلة له، وكانت فاتنة شقراء تضخّمت غدّتها الدرقية تضخمًا طفيفًا لا يكاد يُلحظ.

ـ «فيمَ ترغب؟»

فقال دوك:

ـ «بيرة الحليب المخيض.»

ـ «ماذا؟»

حسنًا، هوذا قد واجه المشكلة. وخليق به إذا لم يفعل ذلك الآن أن يفعله في وقت قريب.

وسألته الشقراء:

ـ «أتمزح؟»

وكان دوك يعرف أنه غير قادر على التفسير، وعلى قول الحقيقة. فأجاب:

ـ «أنا أشكو علةً في المثانة. الأطبّاء يدعونها بيباليكاتسونكتومي. ومن المفروض فيّ أن أشرب بيرة اللبن المخيض. تلك أوامر الطبيب.»

وابتسمت الشقراء وقالت في خبث:

ـ «أوه! لقد حسبت أنك تمزح. أخبِرني كيفُ تصنع. لم أكن أعلم أنك مريض.»

فقال دوك:

ـ «مريض. وعرضة لأن أصبح أشدّ مرضًا. ضعي شيئًا من الحليب ثم أضيفي إليه نصف زجاجة جعة. أعطيني النصف الآخر في كوب ـ ولا تضعي سكّرًا في مخيض الحليب.»

حتى إذا أعدّتْ له ذلك ذاقه في اشمئزاز، فإذا به غير كريه جدًّا. كان طعمه كطعم الجعة والحليب غير الطازجين.

وقالت الشقراء:

ـ «يبدو أنه شراب مخيف!»

فقال دوك:

ـ «إنه يصبح سائغًا حين يتعوّده المرء. لقد أخذتُ نفسي بشربه منذ سبعة عشر عامًا!»

- 18 -

كان دوك قد ساق سيارته في بطء. وكان قد بلغ فانتورا في ساعة متأخرة من الأصيل، متأخرةٍ إلى حدٍّ جعله يجتزئ عند وقوفه في كاربانتاريا بالتهام شطيرة جبن، وبالذهاب إلى الكنيف. وإلى هذا، فقد كان يعتزم أن يتناول عشاءً صالحًا في لوس آنجليس، وكانت العتمة قد هبطت حين انتهى إليها. وتقدّم بسيارته عَبْرَها ليقف آخِرَ الأمر عند مطعم كبير من مطاعم الدجاج كان قد سمع به. وهناك أكل دجاجة مقليّة وشيئًا من البطاطا المفرومة قطعًا صغيرة، وبسكويتًا حارًّا وعسلًا، وفطيرة من فطائر الأناناس، وقطعة من الجبن الأزرق، وهناك أيضًا ملأ زجاجة «التيرموس» بالقهوة الساخنة، وتزوّد بستّ شطائر من لحم الخنزير وزجاجتين من الجعة لطعام الصباح.

ولم تكن قيادة السيارة كثيرة الإمتاع في مَوْهِنٍ من الليل فليس ثَمَّةَ كلاب يستطيع المرء أن يراها، بل ليس ثَمَّةَ غير الطريق العامّة تنيرها مصابيح السيارة. وأسرع دوك رغبةً في إنهاء الرحلة، فبلغ «لا جولا» حوالى الساعة الثانية، فاجتاز شوارعها ثم هبط إلى الصخرة المتحدّرة الشاهقة التي يقع تحتها صعيده المألوف. وهناك وقف سيارته، وأكل شطيرة، وشرب بعض الجعة، وأطفأ الأنوار، وتجمّع في مقعده لينام.

ولـم يكـن في حاجة إلى سـاعـة. لقـد أَلِـفَ الـمدّ والـجَـزْر إلى درجة صار معها يحسّ ارتفاع الماء أو انحساره وهو نائم. واستيقظ مع الضحى، وتطلّع من خلال زجاج السيارة فإذا به يجد الماء آخذًا في الانحسار عن الصعيد الحافل بالحجارة. فاحتسى شيئًا من القهوة الساخنة، والتهم ثلاث ساندويشات، وأتبعها بزجاجة من البيرة.

ويتواصل انحسار الماء على نحوٍ لا يُـدرَك، ويتكشّـف الصعيد عن حجارته التي تبدو وكأنها ترتفع فيما ينخفض المحيط مخلّفًا برَكًا صغيرة، وأعشابًا نديّة وطحالب وإسفنجًا، قُزَحِيّة الألوان وسمراء وزرقاء وحمراء. وفي الأعماق تستقرُّ نُفايات البحر العجيبة: أصداف محطمة ومتشققة، وبقايا هياكل عظمية، ومخالب. ذلك بأنّ قاع البحر كلَّه مقبرة غريبة يدبّ فوقها الأحياء ويَعدون.

ولبس دوك حذاءه المطّاطيّ واعتمر بقبعته الواقية من المطر في احتفال شديد. وأخرج دلاءه وقواريره ومُخْله الحديدي. ووضع شطائره في إحدى جيوبه وزجاجة التيرموس في أخرى، وهبط الصخرة المتحدّرة الشاهقة إلى الصعيد المنبسط، وبدأ عمله. لقد أخذ يقلب الحجارة بمُخْله، وبين الفَيْنة والفَيْنة كانت يده تنطلق في سرعة إلى الماء الراكد وتقبض على أخطبوط صغير متمعّج احتقن وجهه بالغضب والنقمة، وراح يبصق حبرًا على اليد الممسكة به. ثم إنه كان يلقي بصيده هذا في جرّة ملأى بماء البحر حيث يلتقي بأقرانه. وقد جرت العادة بأن يكون القادم الجديد من الثورة والهياج بمحلٍّ يحمله على أن يشنّ هجومًا عنيفًا على رفاقه.

لقد خرج بصيد سمين ذلك اليوم. جمع اثنين وعشرين أخطبوطًا صغيرًا، وعدّة مئات من «مهود البحر» ووضعها في دلوه الخشبيّ. وكان كلّما اشتدّ انحسار الماء تبعه، بينا طلع الفجر وأشرقت الشمس. وكان الصعيد

المنبسط يمتدّ على مثتي ياردة، وكان ثَمَّةَ خطّ من الصخور المُثقلة بطبقة من العشب كثيفة ينحدر الصعيدُ بعده نحو المياه البعيدة الغور. حتى إذا انتهى دوك إلى حافة الحاجز، وقد أنجز مهمّته خير إنجاز، أنفق بقية الوقت في النظر إلى ما وراء الحجارة، فهو ينحني ويحدّق إلى البرك ذات الفسيفساء الساطعة، والحياة الراكضة المبقبقة. وأخيرًا انتهى إلى الحاجز الخارجي حيث كانت الطحالب السمراء الطويلة، المتينة كالجلد، تتدلى في الماء. وتجمّع السمك النجميّ الأحمر، على شكل عناقيد، فوق الصخور، فأنشأ صدر البحر يعلو ويسفل عند الحاجز، في انتظار أن يحصل عليها من جديد. وبين صخرتين جلّلهما العشب البحري، فوق الحاجز، لمح دوك وميضًا أبيض تحت الماء. وما هي إلا لحظة حتى حجب العشب الطافي ذلك الوميض. فتسلّق إلى المكان فوق الصخور الزلِقة، متوازنًا في إحكام، وهبط في رِفق إلى أدنى، فأزاح الطحالب السمراء. وفجأةً تصلّبت أوصالُه. ذلك أنّ وجه فتاةٍ ما، أنشأ يتطلع إليه، فتاة بهيّة الطلعة شاحبة الوجه فاحمة الشعر، كانت عيناها مفتوحتين صافيتين، وكان وجهها ثابتًا يمور بالعزم. وقد تدلّى شعرها في رِفق حول رأسها. أمّا جسدها فكان محجوبًا عن البصر، عالقًا في الفجوة الضيّقة. كانت شفتاها منفرجتين بعض الشيء، كاشفتين عن أسنانها. ولم يكن يطفو على الوجه غير الرّفَه والراحة. كان تحت الماء مباشرةً، وكان الماء يخلع عليه جمالًا آسرًا. ولقد تراءى لدوك أنه نظر إليه دقائق عديدة، وتوهّج الوجه في ذاكرته.

وفي أناة بالغة رفع يده وترك العشب الأسمر يعود سيرتَه الأولى فيحجب الوجه. وخفق فؤاد دوك خفقانًا شديدًا، وكاد يختنق. ثم إنه رفع دلوه وقواريره ومُخْله وانقلب راجعًا، عَبْرَ الصخور الزَّلِقة، إلى الساحل الرمليّ.

ومضى وجه الفتاة أمامه. وقعد على الساحل وسط الرمل الجافّ القاسي، وخلع نعليه. وفي الجرّة كان كلُّ أخطبوط منكمشًا على نفسه مبتعدًا جَهدَ الطاقة عن سائر الجماعة. وصدحت الموسيقى في أُذني دوك: كان «فلوت» عالٍ نحيلٌ ثاقب الحلاوة ينفث نغمًا لم يوفّق إلى تذكّره قَطّ، وكان ثَمَّةَ مقابلَ ذلك نغم راجف أشبه بالزَّبَد ينطلق من آلة موسيقية هوائية. وحلّق الفلوت إلى أرجاء وراء منطقة السمع، وحتى هناك كان ينفث نغمه الذي لا يصدّق. واخشوشن جلد ذراعيه وارتعشت أوصالُه، واخضلّت عيناه كدأبهما كلّما واجهتا جمالًا صارخًا. كانت عينا الفتاة رماديتين صافيتين، وكان شعرها الفاحم طافيًا منحرفًا بعض الشيء فوق وجهها. لقد ثُبّتت الصورة على هذا الوضع أبدَ الدهر.

أجل، قعد دوك هناك، فيما كان الماء يرتفع قليلًا قليلًا مؤذنًا بساعة المدّ. قعد هناك يُصيخ إلى الموسيقى فيما كان البحر يدبّ من جديد ليبلغ الصعيدَ ذا الحجارة. وخفقت يده موقّعةً اللحن، وعزف الفلوت المروِّع في دماغه. كانت عيناها رماديتين، وكان فمها مبتسمًا بعض الشيء، أو لعلّه تراءى وكأنما يُمسك أنفاسه في انتشاء وذهول.

وبدا وكأنّ صوتًا أيقظه. كان رجل واقفًا فوقه يسأله:

ـ «كنتَ تصطاد؟»

ـ «لا. كنت أجمع.»

ـ «حسنًا، جمعتَ ماذا؟»

ـ «بعض أطفال الأخطبوط.»

ـ «تعني السمك الشيطاني؟ لم أكن أعلم أنّ في هذا المكان شيئًا منه. لقد عشتُ هنا طَوالَ عمري.»

فقال دوك في لا مبالاة:

ـ «ينبغي للمرء أن يبحث عنها.»

فقال الرجل:

ـ «قل لي. هل تشكو شيئًا؟ أنت تبدو مريضًا.»

وارتفع الفلوت كَرَّةً أخرى، وصدحت الكمنجات الكبيرة المرتكزة إلي الأرض من أدنى، ودبّ البحر دبيبه نحو الساحل. ونفض دوك الموسيقى، ونفض الوجه، ونفض القشعريرة عن جسده. ثم قال:

ـ «هل يوجد مركز للشرطة في مكان قريب؟»

ـ «هناك في البلدة. لماذا، ما بك؟»

ـ «يوجد جسدٌ هناك فوق سلسلة الصخور.»

ـ «أين؟»

ـ «هناك تمامًا. عالق بين صخرتين. إنها فتاة!»

فقال الرجل:

ـ «قُلْ... في استطاعتك أن تنال مكافأة لعثورك على جسد. ولكني نسيت كم تبلغ.»

ونهض دوك وجمع أدواته، وقال:

ـ «أتريد أن تُبَلّغ أنت الشرطة؟ أنا أحسّ أني مريض.»

ـ «لقد صدمَتْك، أليس كذلك؟ هل هي... بشعة؟ متهرّئة أو متآكّلة؟»

وأشاح دوك بوجهه عنه، قائلًا:

ـ «خذ أنت المكافأة. أنا لا أرغب فيها.»

ومضى في سبيله إلى السيارة. كان نغمٌ ضئيل جدًّا من أنغام الفلوت ليس غير يضجّ في رأسه.

- 19 -

لعلّ أيًّما وسيلة من وسائل الدعاية التي تصطنعها «محلّات هولمان» لم تحظَ بمثل القبول الحسن الذي حظي به استئجارها للرجل المتزلج فوق سارية العلم. لقد تقضّت الأيام يومًا إثر يوم وهو قائم على منصّته المدوّرة الصغيرة يتزلج ويتزلج. وحتى في ساعات الليل كان في مَيْسورك أن تراه قائمًا أيضًا أدكن الصورة في وجه السماء، وكان في مَيْسور الناس جميعًا أن يثقوا بأنه لم يغادر المكان قَطّ. ومهما يكن من أمر فقد انعقد إجماع القوم على أنّ عمودًا فولاذيًا كان ينطلق من منتصف المنصّة في مَوْهِنٍ من الليل فيشدّ نفسه إليه. ولكنه ما كان يجلس، ولم يجد أحدٌ أيًّما غضاضة في العمود الفولاذي. والواقع أنّ الناس أقبلوا من جيمسبورغ ليروا إليه وصعّدوا من الشاطئ البعيد، بل من غرايمز بوينت نفسها. ووفد أبناء ساليناس زرافاتٍ زرافات، ودخل مزارعو تلك المدينة في مزايدة من أجل حمل المتزلج على أن يقوم بالدورة القادمة ـ يوم يسعى إلى أن يتفوق على نفسه ـ في بلدتهم، وبذلك تحظى ساليناس بالرقم القياسي العالمي الجديد. وإذ لم يكن ثَمَّةَ متزلجون كثيرون فوق السارية، وإذ كان هذا المتزلج أقدرهم بما لا يُقاس، فقد حاول خلال السنة الماضية أن يحطّم رقمه القياسي العالمي بنفسه.

وسُرّ هولمان بتلك المغامرة. لقد أقام سوقًا للاقمشة البيضاء، وسوقًا لفضول المنسوجات، وسوقًا للألومينيوم، وسوقًا لآنية الخزف والفخّار في آنٍ معًا. وكانت حشود الناس تقف في الشارع تراقب الرجل المتوحّد فوق مِنبره.

وحين أكمل يومه الثاني بعث بكلمة تقول إنّ شخصًا ما يقذفه ببندقية هوائية. وأعملت دائرة العرض رأسها. وفكّرت وقدّرت ثم وضعت يدها على المعتدي. ولم يكن المعتدي غير الدكتور ميريفال العجوز الذي كان يختبئ وراء ستائر مكتبه ويطلق بندقيته الهوائية ذات الصمام. ولم تعمد الدائرة إلى تقديم شكوى على الطبيب بعد أن وعدها بالكفّ عن ذلك العبث. لقد كان عضوًا بارزًا جدًّا في المحفل الماسوني!

ولزم هنري كرسيّه في «محطة رد وليامز». لقد قلّب الوضع في ذهنه على مختلف وجوهه الفلسفية، فانتهى إلى أنّ في مَيْسوره أن ينشئ منصّةً في بيته ويجرّب الأمر بنفسه. والحقّ أنّ كلّ امرئ في البلدة تأثر بالمتزلج تأثرًا قليلًا أو كثيرًا. فإذا بالتجارة تكسد في المواطن البعيدة عنه، وإذا بها تروج كلّما اقتربَت من محلّات هولمان. ومضى ماك والغلمان لإلقاء نظرةٍ على الرجل، ثم انقلبوا إلى «القصر». إنهم لم يروا في ذلك الصنيع معنى كثيرًا.

وأقام هولمان فراشًا مضاعفًا في نافذته. وكان يُفرض في المتزلج، حين يوفَّق إلى تحطيم الرقم العالمي، أن يهبط وينام في تلك النافذة بالذات من غير أن يخلع مِزلاجيه. وكان اسم الفراش التجاري مكتوبًا على بطاقة صغيرة معلّقة في أدناه.

وفي طول البلدة وعرضها ثار النقاش حول هذا الحدث الرياضي المغامر. ولكن أطرف سؤال واجههُ الناس وكان أدعى إلى أن يشغل بالهم أكثر من جميع الأسئلة ظلّ أبكم غير معبَّر عنه. إنّ أحدًا لم يُشِرْ إليه، ومع

ذلك فقد كان هناك يقلق كلَّ امرئ ويقضّ مضجعه. لقد ضجّ في نفس مسز ترولات وهي تغادر المخبز الإسكتلنديَّ حاملةً كيسًا من الكعك المُحلّى. وتردّد في ضمير مستر هول في محلّه الخاصّ ببيع ملابس الرجال. وكانت بنات «ويلافباي» الثلاث يقهقهن كلّما فكّرن فيه. ولكنَّ أحدًا لم يكن يملك الشجاعة الكافية لطرحه على بساط البحث.

وكان ريتشارد فروست ـ وهو شابٌّ حادّ الذكاء شديد العصبية ـ أكثر الناس قلقًا حول هذه المسألة. لقد طاردَتْه وشغلَتْه عن كلّ شيء. وإنما راوده السؤال يوم الأربعاء، وركبه الهمّ منه مساء الخميس. وفي ليل الجمعة سكرَ سكرةً صالحة وتشاجر مع امرأته. فأعولت فترة ثم تظاهرت بالنوم. وعندئذٍ سمعَتْهُ ينسلّ من الفراش إلى المطبخ حيث سكر من جديد. وبعد ذلك سمعَتْه يرتدي ملابسه على عجل ويغادر المنزل. وهنا لجأت إلى الصراخ والإعوال كَرَّةً ثانية، ولكن بعد فوات الأوان. لقد كانت مسز فروست على ثقة من أنه انطلق إلى بيت دورا.

ومشى ريتشارد، في عزم، هابطًا الكثيب من خلال شجرات الصنوبر حتى انتهى إلى «جادّة الفنار». وهناك انعطف شمالًا وصعّد في اتجاه محلّات هولمان. كانت الزجاجة في جيبه، فما إن انتهى إلى طِيَّته، أو كاد، حتى أخذ منها جرعة جديدة. كانت أضواء الشارع قاتمة، وكانت البلدة مهجورة، لا يتحرك فيها كائن ذو روح. وأخيرًا وقف ريتشارد في منتصف الشارع وتطلّع إلى أعلى.

وهناك فوق قمّة السارية العالية كان في مَيْسوره أن يرى، في غير ما وضوح، صورة المتزلج المتوحّد. وجرع من زجاجته جرعة جديدة. ثم إنه جمع يديه على شكل كوب ونادى في صوت مبحوح: «هاي؟» فلم يرجع إليه جوابٌ ما. فصاح في صوتٍ أعلى «هاي!»، وأجال بصره في ما حوله

ليرى ما إذا كان رجال الشرطة قد هرعوا من مركزهم القائم إلى جانب الضفة.

ومن السماء هبط عليه جواب نَكِدٌ:

ـ «ماذا تريد؟»

فجمع ريتشارد كفَّيْه على شكل كوب، كَرَّةً أخرى، وقال:

ـ «كيف ـ كيف تستطيع... أن تذهب إلى الكنيف؟»

فأجابه الصوت:

ـ «إنّ عندي تنكةً هنا...!»

واستدار ريتشارد، ورجع من حيث أتى. لقد مشى عَبْرَ «جادّة الفنار» وصعد في اتجاه شجرات الصنوبر ليبلغ آخِرَ الأمر منزله ويلج بابه. وفيما هو ينزع ملابسه أدرك أنّ زوجته كانت يقظى. ذلك بأنها كانت تبقبق بعض الشيء وهي نائمة. ثم إنه اندسّ في الفراش، فأفسحت له مكانًا إلى جانبها.

ـ «إنّ عنده تنكة هناك...» كذلك قال ريتشارد.

- 20 -

في ساعة من ساعات الصباح، رجعت شاحنة «فورد طراز ت» مظفَّرةً إلى شارع السردين، ووثبت فوق القناة شاقّةً طريقها مطقطِقةً عَبْرَ الأعشاب إلى أن بلغت مستقرّها خلف دكان «لى تشونغ». ورفع الغلمان العجلتين الأماميتين عن الأرض، وأفرغوا كمّيّة البنزين المتبقّية في صفيحة الغالونات الخمسة، وحملوا ضفادعهم ومضوا في كَلالٍ بالغ إلى «قصر فلوبهاوس». ثم إنّ ماك قام بزيارة رسمية لـ «لي تشونغ» فيما أضرم الغلمان النار في الموقد الكبير. وشكر ماك الرجل الصينيّ، في وقار، لتفضُّله بإعارة الشاحنة، وتحدّث عن النجاح العظيم الذي اقترنت به الرحلة، وعن مئات الضفادع التي جُمعت. فتبسّم «لي» في حياء، وتوقّعَ ما لا بدّ منه.

وقال ماك في حماسة:

ـ «لقد حالفنا الحظ السعيد. إنّ دوك يدفع خمسة سنتات ثمنًا لكلّ ضفدع، ولقد حصلنا على ألفٍ منها.»

وحنى «لي» رأسه. فقد كان السعر قانونيًّا. وكان كلّ امرئ يعرف ذلك.

وقال ماك:

ـ «ولكن دوك ليس هنا. وحقِّ المسيح، إنه سيكون سعيدًا جدًّا بأن يرى هذه الضفادع كلّها.»

وحنى «لي» رأسه من جديد. لقد عرف أنّ دوك كان غائبًا عن البلدة، وعرف أيضًا إلى أين كان الحديث يتجه.

ثم إنّ ماك قال وكأنّ الفكرة لم تخطر له إلا الآن:

ـ «وبالمناسبة، إننا نعاني أزمة صغيرة الآن...»

وسَعى جهده إلى أن يُبرز هذا الوضع وكأنه غير عاديّ إلى حدٍّ بعيد.

فقال «لي»:

ـ «لا ويسكي.»

وابتسم. فغضب ماك وقال:

ـ «وما حاجتنا إلى الويسكي؟ لقد شربنا غالونًا من أفخر ويسكي قدِّر لشفتيك أن تمسَّه ـ غالونًا كاملًا مليئًا فائضًا ملعونًا.»

وصمت لحظةً ثم أضاف:

ـ «وبالمناسبة، أحبّ أنا والغلمان أن نراك معنا في «القصر» على سَكرة صغيرة. لقد كلّفوني أن أدعوك.»

وبالرغم منه ابتسم «لي» في حبور. إنهم ما كانوا خليقين بدعوته إلى الشراب لو كانوا لا يملكونه.

وقال ماك:

ـ «لا. سوف أقول لك الحقيقة الكاملة. أنا والغلمان في عُسرٍ ، بعض الشيء، ونحن جائعون. أنت تعرف أنّ كلّ عشرين ضفدعة ثمنها دولار

واحد. والآن، دوك غائب عن البلدة ونحن جائعون. من أجل ذلك فكّرنا في هذا: نحن لا نريد أن نراك تخسر شيئًا، ولهذا سنقدّم إليك بكل دولار تعطينا إياه خمسًا وعشرين ضفدعة. وهكذا تربح خمس ضفادع، ولا يخسر أحدٌ منا كلّ شيء.»

فقال «لي»:

ـ «لا. لا مال عندي.»

ـ «حسنًا، إلى الجحيم، يا «لي». كلّ ما نحتاج إليه هو بعض الموادّ الغذائية. سوف أقول لك ماذا ـ نحن نريد أن نقيم لدوك حفلة ساهرة صغيرة عندما يرجع. إنّ عندنا مقدارًا كبيرًا من الشراب، ولكنّا نحبّ أن نحصل على... شيء من شرائح لحم البقر وأشياء من هذا القبيل. إنه فتًى طيّب. يا لَلجحيم! عندما كانت سنّ زوجتك تؤلمها مَن الذي أعطاها صبغة الأفيون؟»

وغلبه ماك في النقاش. فقد كان «لي» مدينًا لدوك، مدينًا أعظم الدَّيْن. ولكنه عجز عن أن يفهم كيف يضطرّه دَيْنُ دوك عليه إلى أن يسلّف ماك بعض المال.

وتابع ماك:

ـ «نحن لا نريد أن نرهن الضفادع عندك. لا. نحن مستعدّون لأن نضع بين يديك مباشرةً خمسًا وعشرين ضفدعة مقابل كلّ دولار من الأغذية تقدّمه إلينا، وفي استطاعتك أن تشهد الحفلة الساهرة أيضًا.»

واستروح عقل «لي» هذا الاقتراحَ فِعْلَ الفأرة في إحدى خزائن الجبن، فما وجد أيّ بأس فيه. كانت المسألة كلُّها مشروعة. ذلك أنّ الضفادع بمثابة العملة، في ما يتصل بدوك، والسعر قانوني. ولقد حصل «لي» بهذه الصفقة

على ربح مضاعف، ربحَ فرق الضفادع الخمس وباع بعض الأغذية في آنٍ معًا. كان الأمر كلُّه رهنًا، الآن، بوجود الضفادع في حوزتهم فعلًا.

وقال «لي» أخيرًا:

ـ «فلنمضِ لنرى الضفادع.»

وأمام باب «القصر» قُدّم إليه شيء من الويسكي، وتفحّص أكياس الضفادع الرطبة، وأقرّ الصفقة. بَيْدَ أنه نصّ على أنه لن يقبل أيَّ ضفدعة ميتة. فما كان من ماك إلا أن عدّ خمسين ضفدعة ووضعها في صفيحة وعاد أدراجه مع «لي»، إلى الدكان، حيث أعطاه الصينيّ مقدارًا من لحم الخنزير المقدّد والبيض والخبز تعدل قيمته دولارين اثنين.

وإذ توقع «لي» سوقًا رائجة فقد جاء بصندوق كبير ووضعه في شُعبة الخضَر. ثم إنه أفرغ الضفادع الخمسين فيه وغطّاها بكيس من الخيش مبلّل لكي تظلّ محتوياته مسرورة سعيدة.

وراجت السوق فعلًا. وهبط إيدي إلى الدكان متثاقلًا واشترى من سجاير «بُل دورهام» بما قيمته ضفدعتان. واجتاح الغضب جونز، بعد ذلك بقليل، عندما علمَ أنّ سعر الكوكاكولا ارتفع من ضفدعة واحدة إلى ضفدعتين اثنتين. والواقع أنّ المرارة تعاظمت كلّما تقدّم النهار، وارتفعت الأسعار. فشرائح لحم البقر مثلًا ـ الشرائح الممتازة إلى أبعد الحدود ـ لا يجوز أن يكون ثمن الرطل الواحد منها أكثر من عشر ضفادع، ولكن «لي» يبيع الرطل باثنتي عشرة ونصف. وكانت أسعار الدرّاق المعلّب مرتفعة ارتفاع السماء: ثماني ضفادع لكلّ علبة من رقم 2. وكانت لـ «لي تشونغ» يدٌ قوية تُمسك بخناق الزبائن. فقد كان واثقًا من أنّ المحلّ المعروف بـ «سوق الاقتصاد» أو محلّ هولمان لا يمكن أن يُقرّا هذا النظام النقديّ الجديد. فإذا كان الغلمان راغبين في شرائح لحم البقر فيتعيّن عليهم أن يشتروها بالسعر

الذي يفرضه «لي». وبلغ الهياج أشدّه عندما قيل لهاتزل ـ الذي كان يطمع منذ زمن طويل بالحصول على عصابتي ذراع حريريّتين صفراوين ـ إن عليه أن يدفع خمسًا وثلاثين ضفدعة ثمنًا لهما أو يقصد إلى محلٍّ آخر. كان سمّ الجشع قد أخذ يدبّ إلى الاتفاقية التجارية البريئة المحمودة. وكانت المرارة تتراكم. ولكن في صندوق «لي» الكبير كانت الضفادع تتراكم أيضًا.

ولم يكن في طاقة المرارة المالية أن تتأكّل بأكثر مما ينبغي نفوس ماك وصحابته، ذلك بأنهم لم يكونوا رجالًا تجارًا. إنهم ما كانوا يقيسون ابتهاجهم ببضائع تباع، وكبرياءهم بميزانيّات المصارف، بل ما كانوا يقيسون حبّهم بمقدار ما يكلّفهم ذلك من نفقات. ففيما كانوا غاضبين بعض الشيء لأن «لي» كان يستغلّهم ويستغلّ عوَزهم، كان شيء من لحم الخنزير المقدَّد ومن البيض ينهض في مِعَدِهم فوق مقدارٍ صالحٍ من الويسكي، وفوق طعام الصباح مباشرةً كان ينهض قدرٌ من الويسكي جديد. لقد قعدوا في كراسيهم الخاصّة، في منزلهم، وأنشأوا يراقبون «دارلنغ» (الحبيبة) وهي تتعلم كيف تشرب الحليب المحفوظ في العلب من إحدى صفائح السردين. وكانت «دارلنغ» كلبة سعيدة جدًّا، وكان مقدّرًا لها أن تبقى كذلك. فقد كانت لتلك الجماعة المؤلفة من خمسة رجال خمس نظريات متباينة في تنشئة الكلاب وتدريبها، نظريات كانت تتعارض وتتضارب إلى حدّ حرم «دارلنغ» أن تُدرَّب البتة. ومنذ البدء، كانت كلبةً متقلّبةً غير مستقرّة. فهي تنام على فراش الرجل الذي قدّم إليها الرشوة الأخيرة. والواقع أنّ الغلمان الخمسة سرقوا في بعض الأحيان، من أجلها حقًّا. كانوا يتنافسون في حبِّها واسترضائها. وفي ما بين الفَيْنة والفَيْنة كان الخمسة يُجمِعون الرأي على أنّ هذه الحال ينبغي أن تُغيّر، وأنّ «دارلنغ» يجب أن تُؤخَذ بالشدّة والصرامة، حتى إذا استغرقوا في النقاش حول الوسيلة التي يحسن بهم اصطناعها لتحقيق ذلك تطرّق الوهن إلى عزمهم ولم يصنعوا شيئًا. كانوا مدلَّهين في هواها. فهم يرون كُتَلَ القذر

الصغيرة التي كانت تتركها على الأرض فاتنةً تأخذ بمجامع القلوب. وهم يُبرمون جميع أصدقائهم ببراعتها وقدرتها على الاحتيال. ولقد كانوا خليقين بأن يقتلوها لكثرة رغبتهم في حشوها بالأطعمة لولا أنها تكشّفت آخِرَ الأمر عن إدراكٍ يسمو على إدراكهم.

وصنع لهم جونز فراشًا في قعر الساعة الأثرية العتيقة، ولكن «دارلنغ» لم تستعمله قَطّ. كانت تنام مع أيّ واحد منهم قد يحلو لها أن تؤْثره على الآخرين. وكانت تلوك البطّانيّات، وتمزّق الفُرش، وتنتزع الريش من الوسائد لتنثره على الأرض. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت تغازل أصحابها وتثير بعضهم على بعض. وكانوا يحسبونها على غاية الروعة. ومن هنا اعتزم ماك أن يعلّمها ضروب الألعاب البارعة، وأن يشركها في الاستعراضات البهلوانية الراقصة. بل إنه لم يرضَ أن يعوّدها العيش داخل جدران المنزل.

وجلسوا عند الأصيل يدخّنون، ويفكرون، ويتأملون، ليتناولوا بين الفَيْنة والفَيْنة جرعة خفيفة من الإبريق. وفي كلّ مرّة كانوا يحذّرون بعضهم بعضًا ذاهبين إلى ضرورة الاقتصاد في الشراب، لأن محتويات الإبريق ينبغي أن تُحفظ لدوك. يجب أن لا يغيب ذلك عن بالهم دقيقةً واحدة.

وتساءل إيدي:

ـ «متى يرجع في ما تظن؟»

فقال ماك:

ـ «إنه يرجع عادةً حوالى الساعة الثامنة أو التاسعة. يتعيّن علينا أن نفكّر متى سنقيم تلك الحفلة. يتراءى لي أنّ علينا أن نحييها الليلة.»

فأقرّه الصحب على ذلك:

ـ «طبعًا.»

ولكن هاتزل ما لبث أن قال:

ـ «لعلّه أن يكون متعبًا. إنه راجع من سفرة طويلة.»

فأجابه جونز:

ـ «هراء. فليس من شيء يُدخل الراحة على قلب المتعب أفضل من سهرة جيّدة. وقد كنتُ ذات يوم متعبًا إلى درجة جعلت بنطلوني ينسحب على الأرض ثم قصدْتُ إلى إحدى السهرات فاستعدْت نشاطي.»

فقال ماك:

ـ «ينبغي أن نفكر تفكيرًا حقيقيًّا. أين سنقيم تلك السهرة ـ هنا؟»

ـ «حسنًا، إنّ دوك يحبّ موسيقاه. إنه يدير فونوغرافه خلال السهرات دائمًا. ولعلّه أن يكون أكثر سعادة إذا ما أقمنا تلك السهرة عنده.»

فقال ماك:

ـ «لقد قلتَ شيئًا ذا روح. ولكني أرى أن تكون سهرة مفاجئة. وكيف نستطيع أن نحيي سهرةً ما إذا لم نحمل إبريق الويسكي؟»

وهنا تساءل هيوغي:

ـ «وما قولكم في الزينات؟ مثل عيد 4 تموز(*) أو عيد جميع القديسين؟»

وتطلّعت عينا ماك إلى المدى البعيد، وانفرجت شفتاه. كان في استطاعته أن يرى الأمر كلَّه. ثم قال:

(*) ذكرى الاستقلال الأميركي في 4 تموز سنة 1776. (المعرِّب)

ـ «هيوغي، أظنّ أنّك تنبّه على شيء ذي أهمية. ولم يخطر في بالي يومًا أنك ستوفَّق إلى ذلك، ولكن وحقِّ الإلٰه لقد أبدعْتَ هذه المرة.»

وغدا صوت ماك أكثر عذوبة ونفذت عيناه إلى المستقبل، وقال:

ـ «في إمكاني أن أرى المسألة تمامًا. يعود دوك إلى البلد. يعود متعَبًا جدًّا. وينتهي إلى بيته، فإذا به يرى المكان كلَّه مُضاء. فيُخيَّل إليه أنّ أحدًا قد اقتحم المنزل. ويرتقي السُّلَّم فيجد الدنيا كلَّها زاهية بأعظم زينة. فهناك ورق الكريب، وهناك المشاهد الفاتنة، وهناك كعكة حلوى كبيرة. يا لَلْمسيح، وعندئذٍ يعلم أنها حفلة تُقام على شرفه. ونختفي نحن دقيقةً فلا يعرف مَن الذي أعدّها ثم ننطلق صائحين. ألا تستطيعون أن تروا وجهه؟ وحقِّ الإلٰه، يا هيوغي، لستُ أدري كيف فكَّرْتَ في هذا.»

وشاع الدم في وجه هيوغي. لقد كان مفهومُه للمسألة أكثر محافظة، وكان مبنيًّا في الواقع على أساس من الاحتفال بعيد السنة الجديدة في «لا إيدا». ولكن إذا كانت الأشياء ستجري على هذه الشاكلة فهيوغي على استعداد لأن يتبنّاها ويفوز بفضل السبق إلى التفكير فيها. وهكذا قال:

ـ « كلّ ما في الأمر أنّي قدّرت أن ذلك قد يكون جميلًا.»

فقال ماك:

ـ «حسنًا، إنه لَشيء جميل جدًّا. وليس عندي ما يمنع من أن أقول لدوك، في الوقت المناسب، إنّ الفكرة فكرتك.»

وانحنوا إلى وراء وتأمّلوا في المسألة. وفي مخيّلاتهم بدا المختبر البيولوجي الغربي أشبه ما يكون بالكونسرفاتوار في «أوتيل ديل مونت». واحتسى كلٌّ منهم جرعتين إضافيتين لمجرّد التلذذ بالخطة.

كانت دكان «لي تشونغ» رائعة حقًّا. فمعظم المحلات مثلًا تشتري ورق الزينة الأبيض والأسود، والقطط الورقية السوداء، والأقنعة، واليقطين المصنوع من الورق المقوّى وغيره، في شهر تشرين الأول. وتروج سوق هذه البضائع لمناسبة عيد جميع القديسين، ولكنها ما تلبث أن تختفي من المحلات. قد تُباع كلُّها، وقد تُطَّرح، ولكنك على أيّة حال لن تقع عليها إذا ما التمستَها في حزيران مثلًا. والشيء نفسه يصحّ في أسباب الزينة الخاصة بالرابع من تموز، كالأعلام والبنطين(*) والسهام النارية. أين تقع عليها في كانون الثاني؟ لقد اختفت ـ وليس أحدٌ يدري أين. ولكنّ «لي» لم يكن يقرّ هذا الأسلوب في البيع. فقد كان في مَيْسورك أن تشتريَ من دكان «لي تشونغ» بطاقات الرسائل المُغفَلة الخاصّة بعيد القديس والنتيوس، في شهر تشرين الثاني، والنباتات المثلّثة الأوراق، والفؤوس الصغيرة، وشجرات الكرز الورقية في شهر آب. وكان عنده مفرقعات نارية ادّخرها سنة 1920. وكان المكان الذين تُودع فيه هذه البضائع كلُّها لغزًا من الألغاز لأنّ دكانه لم تكن واسعة جدًّا. وكان عنده برانس حمّام اشتراها عندما كانت أذيال الأردية الطويلة والجوارب السوداء ومناديل الرأس الكبيرة الزاهية ذات النقط أو الصور زيًّا شائعًا. ليس هذا فحسب. بل كان عنده أطواق من تلك التي يصطنعها راكبو الدرّاجات لصيانة بنطلوناتهم، ووشائع التطريز، ومجموعات كاملة من لعبة الـ «ماه جونغ»(**). وكانت عنده شعارات تقول «اذكروا البارجة ماين»(***)، وتذكارات من معرض باناما الدولي سنة 1915 ـ

(*) البنطين ضرب من النسيج تُصنع منه الأعلام.

(**) لعبة صينيّة الأصل لأربعة أشخاص (أو 3 أو 2 أو 5) وتتألف من 136 (وأحيانًا من 144) حجرًا شبيهًا بحجارة الدومينو. (المعرِّب)

(***) بارجة أميركية نُسِفَت في مرفأ هاڤانا، في 15 شباط 1898 وبلغ عدد ضحاياها (260) شخصًا. (المعرِّب)

أبراج صغيرة من الحلى. وكانت ثَمَّةَ ظاهرة أخرى غير مألوفة في أسلوب «لي» التجاري. إنه لم يدعُ يومًا إلى «أوكازيون»، ولم يُنزل الأسعار، أو يبعْ شيئًا على اعتبار أنه كاسد. فالسلعة التي كان ثمنها سنة 1912 ثلاثين سنتًا لا تزال تباع عنده اليوم بثلاثين سنتًا، على الرغم من أنّ الفئران والعثّ قد تخيِّل لبعض الناس أنها خفضت من قيمتها. ولكن لم يكن ثَمَّةَ خلاف في أنك إذا أردت تزيين مختبر بطريقة عامّة غيرَ متقيّد بموسم ولكنْ موحيًا بالمزاوجة بين الـ «ساتورناليا»(*) ومجموعات أعلام الأمم جميعًا، فليس ثَمَّةَ مكان تجد فيه طِلْبَتَكَ غير دكان «لي تشونغ».

وكان ماك والغلمان يعرفون ذلك، ولكن ماك قال:

ـ «من أين سنأتي بكعكة حلوى كبيرة؟ ليس عند «لي» غير كعك صغير عاديّ.»

وتقدّم هيوغي، الذي نجح نجاحًا كبيرًا من قبل، باقتراح جديد:

ـ «لمَ لا يخبز إيدي كعكةً لنا؟ لقد عملَ طاهيًا فترةً من الزمان في سان كارلوس.»

وكان من أثر الحماسة العارمة التي استقبل بها الصبية تلك الفكرة أن أحجم إيدي عن الاعتراف بأنه لم يُعِدّ في حياته كلِّها كعكة حلوى واحدة.

وإلى ذلك فقد أخرجها ماك مخرجًا عاطفيًّا إذ قال:

ـ «إنها لن تكون مثل تلك الكعكات العتيقة الثقيلة المنصبّة عليها لعنة الله والمبيعة في الأسواق. إنها سوف تكون كعكة فيها أثرٌ من الفؤاد.»

(*) عيد ساتورن، أحد الكواكب السيارة، وكانت رومة تحتفل به في منتصف كانون الأول من كلّ عام. (المعرِّب)

وفيما تقاصرت ساعات الأصيل وتقاصرت معها الويسكي اشتدّت الحماسة وتعاظمت. كانت ثَمَّةَ رحلات لا نهاية لها، إلى دكان «لي تشونغ». لقد فرغ أحد الأكياس من الضفادع في حين أخذ صندوق «لي» الضخم يغصّ بها. وعند الساعة السادسة أتوا على غالون الويسكي كلِّه، وشرعوا يشترون زجاجات «أحذية التنس العتيقة» دافعين خمس عشرة ضفدعة ثمنًا لكلّ زجاجة. ولكنَّ أكداس الموادّ التي تُقام بها الزينات كانت مركومة على أرض «قصر فلوبهاوس»: أميال من الورق الصقيل تُحيي ذكرى كلّ عيد من أعياد الناس الحاشدة الزاهرة، وبعض الأعياد المُماتة المهجورة.

وراقب إيدي الفرن كالدجاجة الحاضنة بيضَها. كان يخبز كعكة حلوى في طبق من أطباق الغسيل. وكان من المضمون أن لا يُهمَلَ شيء من العناصر الداخلة عادةً في صنع الحلويات، لأن الجماعة كانت تقدّم إلى الخابز كلَّ ما يحتاج إليه منها. ولكن الكعكة سلكت منذ البدء مسلكًا عجيبًا. فحين تمّ صنع العجينة تضاغت ولهثت وكأن حيواناتٍ ما، كانت تتلوّى وتدبّ في داخلها. حتى إذا وُضعت في الفرن أطلقت فقاعة مثل كرة المضرب (بيسبول) اشتدّ تماسكها وبريقها شيئًا بعد شيء ثم خرّت وهي تفحّ وتصفر. وأحدث ذلك فجوة كبيرة حملت إيدي على أن يصنع مقدارًا جديدًا من العجين يسدّ به الفراغ. وهنا أيضًا سلكت الكعكة مسلكًا عجيبًا جدًّا. إذ فيما كان قعرها يحترق وينفث دخانًا أسود، كان أعلاها يرتفع ويسّاقط دَبِقًا في سلسلة من الانفجارات الصغيرة.

وحين أخرجها إيدي، آخِرَ الأمر، لتبرد بدت وكأنها أحد رسوم «بيد جيدز» المصغّرة الشديدة الدقة الممثِّلة لمعركة حربية على مِهادٍ من حِمم البراكين.

والحق أنّ هذه الكعكة لم تكن حسنة الطالع. إذ فيما كان الغلمان يزخرفون المختبر البيولوجي التهمت «دارلنغ» ما تستطيعه منها، فغثِيَت نفسُها، ثم استلقت متثنّية على عجينها الذي كان لا يزال دافئًا، واستسلمت للرّقاد.

ولكن ماك والغلمان حملوا الورق الصقيل، والأقنعة، وعصيّ المكانس، واليقطين الورقي، والبنطين الأحمر والأبيض والأزرق، ومضوا في اتجاه الأرض الخالية مجتازين الشارع إلى المختبر. وتخلّصوا من بقيّة الضفادع الباقية بأن اشتروا بها زجاجة من «أحذية التنس العتيقة» وغالونين من الخمر.

وقال ماك:

ـ «دوك شديد الولوع بالخمر. أنا أعتقد أنه يحبّها أكثر من الويسكي نفسها.»

ولم يكن من عادة دوك أن يقفل أبواب المختبر البتة. كان يؤمن بنظرية تقول بأنه إذا ما رغب امرؤ في كسْر الأقفال ابتغاء السرقة ففي إمكانه أن يفعل ذلك في سهولة ويُسْر، وبأنّ الناس أمناء في الأصل. وأيًّا ما كان فقد كان دوك واثقًا، آخِرَ الأمر، من أنّ مختبره ما كان يحوي كثيرًا مما يرغب الشخص العاديّ في سرقته. كانت الأشياء النفيسة هناك كتبًا وأسطوانات وآلات جراحية وعدساتٍ بصرية وغير ذلك مما لا يلقي عليه اللّص العمليّ المحترف نظرتين متواليتين. ولقد كانت نظريّته سليمة في ما يتصل باللصوص والنشالين والمصابين بجنون السرقة، ولكنها كانت عديمة الجدوى بالكلّيّة في ما يتصل بأصدقائه. فكثيرًا ما كانت الكتب «تُستعار» من عنده. ونادرًا ما كانت علب اللوبياء المحفوظة تعمَّر طَوالَ غيابه عن

المختبر. بل لقد كان يرجع أحيانًا، في ساعة متأخرة من الليل، فيجد الضيوف مضطجعين في فراشه.

وكدّس الغلمان أسباب الزينة كلَّها في غرفة الانتظار، ثم أوقفهم ماك ليسأل:

ـ «ما الذي سوف يُدخل السرور أكثر ما يكون على قلب دوك؟»

فأجاب هاتزل:

ـ «السهرة!»

فقال ماك:

ـ «لا.»

فقال هيوغي، وقد استشعر أنه هو صاحب الفضل في ذلك:

ـ «الزخارف والزينات؟»

فقال ماك:

ـ «لا. الضفادع. إنها سوف تُبهجه أكثر من كلّ شيء. ومن الجائز أن يكون «لي تشونغ» قد أقفل دكانه ساعة يعود دوك من رحلته، وعندئذٍ لا يكون في إمكانه أن يرى إلى ضفادعه إلا صباح غد.»

وصمت لحظة، ثم صاح في حماسة:

ـ «لا، يا سيدي. إنّ الضفادع يجب أن تكون هنا ـ هنا في منتصف الغرفة تمامًا وقد وُضعت فوقها قطعة من البنطين وبطاقة تقول: «أهلًا بك يا دوك!»

واستُقبلت اللجنة التي زارت «لي» بمعارضة متجهمة. فقد تمثّلت لعقله المرتاب ضروب الاحتمالات على اختلافها. وأوضح له الوفد أنه سيشهد السهرة ففي مَيْسوره إذن أن يراقب ممتلكاته، وأنه ما من أحد يشكّ في أنها له. وزيادةً في إدخال الاطمئنان على قلبه وقّع ماك وثيقة اعترف فيها بأن الضفادع ملكٌ للرجل الصينيّ.

حتى إذا وهنت احتجاجاته بعضَ الشيء حملوا الصندوق الخشبيّ الضخم إلى المختبر، وغطّوه بنسيج البنطين الأحمر والأبيض والأزرق، وكتبوا عبارة الترحيب الكبيرة على بطاقةٍ ما بصبغة اليود، وبدأوا في التزيين والزخرفة من هناك. كانوا قد احتسوا الويسكي كلَّها، الآن، وغلب عليهم مزاج السهرة حقًّا. وقصّوا ورق الزينة قصًّا متصالبًا، ورفعوا اليقطين الورقي. وشارك عابرو السبيل في الحفلة الساهرة واندفعوا نحو دكان «لي» لكي يأتوا بمقادير جديدة من الشراب. وشهد «لي تشونغ» الحفلة فترةً ما، ولكن معدته كانت ضعيفة إلى حدٍّ لعين، فاستشعر أنه مريض ومضى إلى بيته. وعند الساعة الحادية عشرة قلوا شرائح لحم البقر، وأكلوها. وفيما كان شخص ما ينقّب في الأسطوانات وجد ألبومًا من موسيقى الكونت بازي، وعندئذٍ شرع الفونوغراف الكبير يضجّ ويهدر. وكان في مَيْسور الناس أن يسمعوا الضجّة من حوض السفن إلى بار «لا إيدا». وحسب جماعة من زبائن بيت دورا أنّ المختبر البيولوجي بيت بغاء منافس، فاقتحموا السُّلَّم صائحين في مرح. وطردهم المضيفون الهائجون، ولكن ذلك لم يتمّ إلا بعد معركة دامية أطاحت بالباب الأمامي وكسرت نافذتين. وكان تحطُّم القوارير بشعًا كريهًا. وفيما كان هاتزل يجتاز المطبخ إلى الكنيف قلب مقلاةً طافحة بالدهن الحارّ على نفسه وعلى الأرض، فاحترق جلده احتراقًا خطيرًا.

وعند الساعة الواحدة والنصف ألمّ أحد السكارى بالمكان وأطلق ملاحظةً اعتبُرت مُهينة لدوك. فسدّد إليه ماك لكمةً ما تزال تُذكر حتى اليوم

ويُناقَش فيها. ونهض السكران على قدميه. ورسم قوسًا صغيرةً، وشقّ لنفسه طريقًا إلى الصندوق الخشبيّ الضخم ليختبئ بين الضفادع. وبينا كان بعضهم يحاول تغيير إحدى الأسطوانات سقطت ذراع الفونوغراف من يده، وكُسرت الإبرة الماسيّة.

إنّ أحدًا لم يدرس سيكولوجيّة حفلةٍ ساهرة في دور الاحتضار. إنها قد تكون هائجة، صاخبة، تغلي غليان الماء على النار، وبعد ذلك تُطلع حُمَّى رأسها، ويعقبها صمت قصير، ثم تتلاشى سريعًا سريعًا، ويمضي الضيف إلى منازلهم فيناموا أو تطوّف بهم أقدامهم التماسًا لشأنٍ آخر، تاركين وراءهم جثة لا روح فيها.

كانت الأضواء تشعّ في المختبر، وكان الباب الأمامي يتدلى على نحوٍ جانبيّ وقد أمسك به أحد مفاصله ليس غير. وكانت الأرض تلتمع بالزجاج المحطّم. وكانت الأسطوانات منتثرة ههنا وههناك، بعضها مهشّم، وبعضها مشقّق. وعلى الأرض، وفوق خزائن الكتب، وتحت الفراش، انطرحت الصحون وعليها قطَع من أطراف الشرائح البقرية ودهنٌ متخثّر. أمّا زجاجات الويسكي فكانت مضطجعة على جوانبها كئيبة محزونة. وكان بعضهم قد حاول أن يتسلق خزائن الكتب فأسقط رفوفًا بكاملها من الكتب وأراق دماءها في اختلاط مقصوم الظهر على أرض الغرفة. وفرغت آخِرَ الأمر، وانتهت.

ومن خلال الجانب المكسور من الصندوق الخشبيّ الضخم وثبت إحدى الضفادع، وقعدت تتلمس الهواء خشية الخطر، ثم تبعتها ضفدعة أخرى. وكان في مَيْسورهما أن تستروحا الهواء العليل الرطب البارد المتدفّق من الباب ومن خلال النافذتين المحطمتين. وجلست إحداهما على البطاقة الساقطة التي تقول: «أهلًا بك يا دوك!» ثم إنَّ الضفدعتين وثبتا في جبنٍ نحو الباب.

وطَوالَ فترة غير قصيرة هبط درجات السُّلَّم نهر صغير من الضفادع، نهرٌ متمعّج متواثب. وطَوالَ فترة غير قصيرة أيضًا ضجّ شارع السردين المعلّب بالضفادع ـ اجتاحته جحافل الضفادع الزاحفة. ودهست إحدى سيارات الأجرة المقلّة زبونًا وافدًا على بيت دورا في ساعة متأخرة جدًّا من الليل، خمس ضفادع في عرض الطريق. والتجأ بعض الضفادع إلى البالوعة، وصعّد بعضها في الكثيب نحو صهريج الماء، في حين اتجه فريق منها إلى الأقنية المقبّبة. وكان ثَمَّةَ قِلّة قليلة آثرت الاختباء بين الأعشاب النابتة في قطعة الأرض الفضاء.

وشعّت الأضواء ساطعةً في المختبر الهادئ الخالي.

- 21 -

وفي الغرفة الخلفية من المختبر كانت الفئران البيضاء تعدو في أقفاصها وتنساب وتصئي. وفي زاوية أحد الأقفاص المستقلة كانت فأرةٌ أمٌّ تجثم فوق أطفالها العمي العراة وتمكّنهم من أن يرتضعوا لبَنَها، فيما كانت هي تُجيل بصرها بالمكان في عصبيّة وضَراوة.

وفي قفص الأفاعي المجلجلة كانت الأفاعي قائمة، وقد أراحت ذقونها على التفافات أجسادها نفسها، وأنشأت تحدّق إلى أمام بأعينها السوداء المقطّبَة المغبرّة. وفي قفص آخر كان سامّ أبرص (أبو بريص) كبير ذو جلدٍ أشبه بالكيس الخرزي قد وثب إلى أعلى وتعلّق بالشريط في ثِقَل وبلادة. وتفتحت دياسم البحر في أحواضها، وكانت مَلامِسُها خضراء وأرجوانية ومِعَدُها خضراء شاحبة. ودارت مضخّة ماء البحر الصغيرة في رِفق ولين، ففحّت بإبر المياه المندفعة إلى الأحواض مُحدثةً صفوفًا من الفقاقيع تحت السطح.

كان الضحى قد ارتفع، فإذا بـ «لي تشونغ» يُخرج صفائح قاذوراته، وإذا بألفرد الذي يحمي بيت دورا يقف في الرواق يحكّ مَعِدَتَه، وإذا بـ «سام مالوي» يدبّ خارجًا من المِرجل الكبير ويقعد على دكّته الخشبية ناظرًا

إلى ناحية المشرق المومضة. وهناك فوق الصخور، قرب «محطة هوبكنز البحرية»، زأرت أسود البحر زئيرًا رتيبًا. وانبثق الصينيّ العجوز من البحر، وقد تدلّت سلّته من يده، وأنشأ يصعّد في الكثيب مطقطِقًا بقدميه.

ثم إنّ سيارة انعطفت نحو شارع السردين المعلّب وكان دوك يقود السيارة ويتقدم بها نحو المختبر، وقد طوّق التعب عينيه بحاشيتين حمراوين وكان تقدّمه ذاك واهنًا بطيئًا. حتى إذا وقفت السيارة استراح في مقعده لحظة، كي تُزايل وعثاءُ السفر أعصابَه. ثم إنه غادر السيارة وبدأ يتسلق السُّلَّم. ولم يكد يطأ أولى درجاتها حتى أطلعت الأفاعي المجلجلة ألسنتَها المتموّجة الشبيهة بشوكة الطعام، وأصاخت بواسطتها. وركضت الفئران في جنون حول الأقفاص. وتسلّق دوك السُّلَّم. ونظر دَهِشًا إلى الباب المحنيّ الرأس، وإلى النافذتين المحطمتين. وبدا وكأنما قد زايله الكلال. فوثب في خفّة، وراح ينتقل من غرفة إلى غرفة، واطئًا الزجاج المتكسِّر بقدميه. ثم إنه انحنى في سرعة والتقط إحدى الأسطوانات المهشّمة وألقى نظرة على اسمها.

وفي المطبخ كان الدهن المسفوح قد حالَ أبيضَ فوق الأرض. والتهبت عينا دوك غضبًا. فجلس على مضجعه، وقد قَرّ رأسه بين كتفيه وتمايل جسمه بعض الشيء في ثورة وحنق. وفجأة وثب من مجلسه وأدار فونوغرافه الكبير، وثبّت عليه أسطوانة، وأنزل عليها الذراع فلم ينطلق من مكبِّر الصوت غير خوارٍ ذي فحيح. وعندئذٍ رفع ذراع الفونوغراف، وأوقف الصحن المعدني الدائر، وانقلب إلى مضجعه من جديد.

ومن ناحية السُّلَّم سمع دوك وقع أقدام مضطربة، وما هي إلا لحظة حتى أطلّ عليه ماك من خلال الباب. كان وجهه أحمر. حتى إذا بلغ منتصف الغرفة وقف في تردد وارتباك، وقال:

ـ «دوك... أنا والغلمان...»

وانقضت لحظة بدا دوك وكأنما لم يره فيها. ولكنه ما لبث أن وثب على قدميه، وصاح في وجه ماك الذي ارتدّ إلى وراء:

ـ «أأنت الذي فعلت هذا؟»

ـ «حسنًا، أنا والغلمان...»

وانطلقت قبضة دوك الصغيرة القاسية وصفقت ماك على فمه. وبرقَتْ عينا دوك بحنَق بَهيميّ أحمر. وقعد ماك في وهنٍ على أرض الغرفة. كانت قبضة يد دوك قاسية وحادّة. فانشقّت شفتا ماك على أسنانه والتوت سنٌّ له أماميةٌ التواءَ حادًا إلى الداخل.

وصاح دوك:

ـ «إنهضْ!»

ونهض ماك متثاقلًا، واضعًا يديه على جانبيه. وسدّد إليه دوك لكمة أخرى جامدةً محكمةً على الفم. فانبجس الدم من شفتي ماك وسالَ على ذقنه. وحاول ماك أن يلعق شفتيه. ولكن دوك ما لبث أن صاح به:

ـ «إرفَعْ يديك. قاتِلْ إذا استطعتَ يا ابن الزانية!»

وضربه من جديد، وسمع بأذنيه صرير أسنانه المتهشمة.

وارتجّ رأس ماك، ولكنه كان مطوَّقًا الآن فليس يقع على الأرض في يُسر. وبقيت يداه على جانبيه، وقال في صوت مبحوح منطلق من بين شفتيه الجريحتين:

ـ «هيّا، دوك، تابع الضرب. لقد توقعتُ هذا.»

وأثقلت الهزيمة كَتِفَي دوك. وقال في مرارة:

ـ «أنت يا ابن الزانية! أوه، يا ابن الزانية القذر!»

وجلس على مضجعه، ونظر إلى مفاصل يده الموجَعة.

وجلس ماك على أحد الكراسي، وحدّق إليه. كانت عيناه واسعتين راشحتين بالألم. بل إنه لم يمدّ يده إلى ذقنه فيمسح الدم السائل منها. وفي رأس دوك بدأت تتشكّل مقدمة تلك القطعة الموسيقية التي صوّر فيها مونتيفيردي شوق «بترارك» المستسلم، السرمديّ الحزن، إلى صاحبته «لورا». ورأى دوك إلى فم ماك المهشَّم من خلال الموسيقى، تلك الموسيقى التي كانت تضجّ في رأسه وفي الهواء المطيف به. وقعد ماك في سكون كامل، وكأنما كان هو أيضًا يُصيخ إلى القطعة الموسيقية. وألقى دوك نظرةً على المكان الذي انطرح فيه الألبوم الخاصّ بأسطوانات مونتيفيردي، ولكنه ما لبث أن ذكر أنّ الفونوغراف مكسور.

ثم إنّ دوك نهض على قدميه وقال:

ـ «إذهبْ واغسِلْ وجهك.»

ومضى هابطًا السُّلَّم، عابرًا الشارع إلى دكان «لي تشونغ». ولم يتطلع الرجل الصينيّ إليه فيما كان يُخرج زجاجتي جعة من صندوق الثلج. لقد أخذ الثمن من غير أن يقول كلمة ما. ومضى دوك فعبر الشارع من جديد. وكان ماك في الحمّام ينظف وجهه الدامي حين رجع دوك. وفتح دوك إحدى الزجاجتين. وفي رِفق ملأ بالجعة كوبًا كان يمسك به على انحراف بحيث لم يرتفع إلى أعلاه غير قدر قليل جدًّا من الزبد. ثم ملأ كوبًا طويلًا آخر، وحمل الكأسين إلى الغرفة الأمامية. ورجع ماك وهو يربّت على فمه بمنشفة نديّة. فأشار دوك برأسه إلى الجعة. فما كان من ماك إلا أن فتح حلقومه وأفرغ نصف الكأس من غير أن يتجرّع الشراب. لقد تنهّد على نحوٍ انفجاريّ وحدّق إلى الجعة. وكان دوك قد أتى على كأسه الآن. فجاء بالزجاجة وملأ الكأسين جميعًا، وجلس على مضجعه متسائلًا:

ـ «ما الذي حدث؟»

ونظر ماك إلى أرض الغرفة، وسقطت قطرةٌ دم من شفتيه إلى كأسه. ومسح شفتيه المشرومتين كَرَّةً أخرى، وقال:

ـ «لقد أردت أنا والغلمان أن نعمل لك حفلة ساهرة. ولقد حسبنا أنك ستعود من رحلتك الليلة البارحة.»

فحنى دوك رأسه وقال:

ـ «لقد فهمت.»

وأردف ماك:

ـ «لقد أفلتت من أيدينا. وليس يُفيدك شيئًا أن أقول إنني آسف. فقد كنتُ آسفًا طَوالَ حياتي. وليس هذا الوضع بالشيء الجديد. تلك كانت حالي دائمًا.»

وكرع الشراب من كأسه كرعًا، واستطرد:

ـ «كانت لي زوجة، في يومٍ من الأيام، ولكن النحس حلّ عليّ فما أتَيْتُ عملًا إلّا أُصبت بالفشل. فلم تستطع أن تصبر عليّ طويلًا. كنت إذا عملتُ عملًا حسنًا سارع إليه الفساد بطريقة ما. وإذا قدّمتُ إليها هدية ظهرتْ لها في ما بعد علةٌ من العلل. وهكذا استاءت مني، ولم تستطع أن تحتمل أكثر مما فعلَتْ. ودامت هذه الحال حتى عملتُ مهرّجًا. أنا لا أعمل شيئًا اليوم، ولكني لم أعد أهرّج. أنا أُضحك أصحابي الغلمان.»

وحنى دوك رأسه كَرَّةً أخرى. لقد عادت الموسيقى تضجّ في رأسه من جديد، وفيها شكوى وفيها استسلام في آنٍ معًا. ثم قال:

ـ «أدري!»

وتابع ماك حديثه:

ـ «لقد شعرْتُ بالسرور حين ضربْتَني. وقلتُ لنفسي: «لعلّ هذا يعلّمني درسًا. لعلّي أتذكّر هذا.» ولكن يا لَلجحيم. أنا لن أتذكّر شيئًا! أنا لن أتعلّم شيئًا!»

وهنا صاح ماك:

ـ «دوك، الشيء الذي يبدو لي أننا كنا كلُّنا سعداء، نستمتع بوقت طيّب. وكنتَ أنت سعيدًا لأننا أقمنا لك حفلة ساهرة وكنا نحن سعداء. والذي يتراءى لي أنها كانت حفلة جيّدة.»

وأشار بيده إلى الحطام المنتثر على أرض الغرفة، وتابع:

ـ «الشيء نفسه وقع لي عندما تزوجت. إني أقلّب المسألة في ذهني، ولكنها لم تنتهِ يومًا إلى ما انتهت إليه هنا.»

فقال دوك:

ـ «أدري.»

وفتح زجاجة الجعة الثانية وملأ الكوبين حتى الشفة.

وقال ماك:

ـ «دوك، أنا والغلمان سوف ننظف الأرض هنا ـ وسوف نعوّض عليك قيمة الأشياء المكسورة. سوف نعوّض عليك ولو استغرق ذلك خمس سنوات بكاملها.»

وهزّ دوك رأسه في أناة، ومسح رغوة الجعة عن شاربيه، وقال:

ـ «لا. سوف أنظّف الأرض بنفسي. أنا أعرف المكان الذي ينبغي أن يوضع فيه كلُّ شيء.»

ـ «سوف نعوّض عليك خسارتك يا دوك.»

ـ «لا. لن تفعلوا. سوف تفكرون في الأمر ويركبكم الهمّ فترةً طويلة من الزمان، ولكنكم لن تعوّضوا عن الخسارة. فقد تبلغ قيمةُ الزجاج المتحفيّ المحطّم ثلاثمئة دولار. لا. لا تقل إنكم ستعوضون عليّ ذلك. ولعلّكم أن تحتاجوا إلى سنتين أو ثلاث سنوات لنسيان هذه الحادثة والشعور بالارتياح من جديد. وعلى أيّة حال فلن تعوّضوا عليّ خسارتي.

فقال ماك:

ـ «أحسب أنك على حق. لعنها الله، أنا أعلم أنك على صواب. ما الذي نستطيع أن نعمله؟»

فأجابه دوك:

ـ «لقد تغلبتُ على غيظي. هذه اللكمات على الفم هدّأت أعصابي. فلننسَ ما جرى.»

وكرع ماك بقيّة كأسه ونهض قائلًا:

ـ «إلى اللقاء، دوك!»

فقال دوك:

ـ «إلى اللقاء. ولكن قل لي ماك ـ ما الذي حلّ بزوجتك؟»

ـ فقال ماك:

ـ «لست أدري. لقد هربَتْ.»

وهبط السُّلَّم في اضطراب، وجاز الشارع في اتجاه الأرض الفضاء ليصعّد بعدُ نحو حظيرة الدجاج ومن ثَمَّ إلى «قصر فلوبهاوس». وتابع دوك مسيره من خلال النافذة. ثم نهض في كَلال وجاء بمكنسة كانت قائمة خلف سخّانة الماء، وأنفق النهار كلَّه في تنظيف المكان وترتيبه.

- 22 -

لم يكن هنري فرنسيًا ولم يكن اسمه هنري. ليس هذا فحسب، بل إنه لم يكن في الحقّ رسّامًا. لقد غمس نفسه في قصص «الضفة الغربية» من باريس إلى درجة تخيَّل للسامع أنه عاش هناك مع أنه لم يقصد إلى باريس في حياته قَطّ. وفي شوق محموم كان يتتبّع من طريق المجلّات أنباء الحركات والمذاهب الدادية(*)، ومظاهر التحاسد النسوي والتعصب المذهبي والنزعات الباطنية الغامضة في المدارس الفنّيّة الناشئة والمتقهقرة. كان يثور أبدًا على التقنيات والأدوات البالية. فهو يطّرح في أحد المواسم طريقة التصوير على صعيد منبسط يكشف عن الأبعاد والصلات المكانية. وهو يطّرح، في موسم تالٍ، اللون الأحمر كلّه، وأخيرًا اطّرح الرسم جملةً. وليس يُدرى ما إذا كان هنري رسامًا بارعًا أم لا، ذلك بأنه كان يستغرق في المذاهب الفنية الجديدة استغراقًا عنيفًا لم يدَعْ له متّسعًا من الوقت يقوم خلاله بأيّ نشاط في حقل الرسم.

(*) الداديّة **Dadaism** مذهب في الفن والأدب ازدهر أثناء الحرب العالمية الأولى والسنوات التي تلتها، وكان من همّه أن يزعزع الثقة بالفن السالف كلّه من طريق اللجوء إلى ما هو عَرَضيّ، بعيد عن الترابط والتناغم. (المعرِّب)

أجل كان ثَمَّةَ شكٌّ في قيمة رسومه، فليس في مَيْسور المرء أن يحكم له أو عليه من خلال نتاجه المخرَج بريش الدجاج ذي الألوان المختلفة وبقشور الجوز. أمّا كصانع مراكب وسفن فقد كان عظيمًا. كان صاحب صنعة مدهشًا. لقد عاش في إحدى الخيام منذ سنوات عندما شرع يبني سفينته وظلّ على ذلك إلى أن أتمّ إنشاء مطبخها وقمريّتها وصار في مَيْسوره الانتقال إليهما. ولكنه لم يكد يستقرّ فيها ويضمن البلل حتى راح يتأنى في العمل. والواقع أنّ السفينة نُحتت نحتًا ولم تُبْنَ بناء. كان طولها خمسة وثلاثين قدمًا، وكانت خطة إنشائها في حالة ميوعة دائمة. فهي حينًا ذات مقدّم أشبه بمقدّم المراكب الطائرة وذيل مِرْوَحيّ الشكل كأذيال المدمّرات. وهي حينًا تبدو وكأنها المراكب الصغيرة التي كان الإسبانيون والبرتغاليون يصطنعونها. وإذ لم يكن لدى هنري مال ما، فكثيرًا ما كان يحتاج إلى أشهر بكاملها للحصول على لوح خشب، أو قطعة من حديد، أو دزينة من البراغي النحاسية الصفراء. ولم يكن ذلك ليسوء هنري، فما كان راغبًا قَطّ في أن يُنجز سفينته.

وكانت تلك السفينة قائمة وسط شجرات الصنوبر في قطعة أرض استأجرها هنري بخمسة دولارات في العام. وكان هذا المبلغ كافيًا لدفع الضرائب وإرضاء المالك. وكانت السفينة تستقرّ في مهدٍ لها على آساس من الإسمنت. وكانت سُلّم من حبال تتدلّى على جانبها إلا حين يكون هنري في بيته. ففي مثل هذه الحال كان صاحبنا ينزع السُّلّم ولا يضعها إلا ساعة يُقبل الزائرون. وكان في قمريّته الصغيرة مقعد عريض محشوٌّ يحيط بثلاثة من جوانب الغرفة. على هذا المقعد كان هنري ينام، وعليه كان ضيوفه يجلسون. وكانت ثَمَّةَ طاولة تُطوى عند الحاجة، ومصباح نحاسيّ أصفر يتدلى من السقف. أمّا المطبخ فكان عجيبةً من أعاجيب الدقة والإحكام، ولكن كلّ قطعة من القطع القائمة فيه كانت ثمرة أشهر من التفكير والعمل.

وكان هنري داكن البشرة نَكِد الطبع. لقد ظلّ يلبس على رأسه «بيريه» بعد أن هجر الناس لبْسَها بزمن طويل. وكان يدخّن غليونًا مصنوعًا من القلباش(*)، وكان شعره الفاحم يتدلى على وجهه. وكان لهنري أصدقاء صنّفهم صنفين: أولئك الذين يستطيعون أن يُطعموه، وأولئك الذين كان يتعيّن عليه أن يطعمهم. ولم يكن لسفينته اسمٌ ما. وكان هنري يقول إنه سوف يسمّيها حين يُنجز بناءها.

لقد سلخ هنري عشر سنوات وهو يبني سفينته ويعيش فيها. وخلال تلك المدة تزوج مرتين وأنشأ صِلاتٍ غير شرعية مع عدد من النساء لم تعمِّر طويلًا. والواقع أنّ هاته النسوة جميعًا فارقْنَه للسبب نفسه. فقمريّة السفينة ذات السبعة الأقدام كانت أصغر من أن تتسع لشخصين اثنين. لقد كرهن أن يفدخن رؤوسهن كلّما وقفن، وليس من ريب في أنهن استشعرن الحاجة الماسّة إلى حمّام وكنيف. وكانت المراحيض البحرية غير صالحة للعمل في سفينة هي قيد الإنشاء ومع ذلك فقد أبى هنري أن يسوّيَ القضية باستعمال مرحاضٍ من المراحيض البرّيّة الزائفة. وهكذا تعيّن عليه وعلى الفتاة التي يتفق أن تكون عشيقته في فترة ما أن يمضيا إلى مكان قَصيّ وسط شجرات الصنوبر. وواحدة بعد واحدة، فارقَتْه معشوقاتُه وصواحبه.

وبعد أن فارقتْه الفتاة التي دعاها «أليس» مباشرةً حصل لهنري شيء عجيب جدًّا. كان كلّما غُودر وحيدًا ينتحب انتحابًا شكليًّا فترةً من زمان ولكنه يستشعر في الواقع ضربًا من الارتياح. ذلك بأنه كان في استطاعته أن يتمدّد في قمريّته الصغيرة وأن يأكل ما يرغب فيه من طعام. كان سعيدًا بأن يتحرر من الوظائف البيولوجية النسوية اللامتناهية، فترةً ما.

(*) القلباش ضرب من أشجار الهند الغربية يبلغ علوُّه نحو ثلاثين قدمًا، وثمره بيضيٌّ أو كرويُّ الشكل صلْب القشرة يُستعمل أقداحًا وأدوات منزلية. (المعرِّب)

وكان من عادته كلّما هجرته حبيبة جديدة أن يشتري غالونًا من الخمر، ويضطجع على المقعد القاسي المريح، ويسرف في الشراب حتى يغلبه السكر. وكان في بعض الأحيان ينتحب قليلًا في ما بينه وبين نفسه. ولكنها كانت بضاعة مترفة، وكان يستشعر في معَظم الأحوال ضرورة الإقلاع عنها. وعندئذٍ كان يقرأ شعر رامبو في صوت عالٍ ورطانة واضحة، وهو يكاد لا يقضي العجب من فصاحة لسانه وطلاقته.

وفي خلال إحدى انتحاباته الطقسية هذه لضياع «أليس» من يديه، أخذ ذلك الشيءُ الغريب يقع له. كان ذلك في أثناء الليل، وكان مصباحه مُضاءً، وكان السّكْر قد بدأ يصرعه عندما أدرك فجأة أنه لم يَعُدْ وحيدًا. لقد أجال عينه بكثير من الاحتراس في القمريّة، فإذا بشابٍّ شيطانيٍّ يجلس في الجانب الآخر، شابٌّ داكن الوجه مليح الصورة. كانت عيناه تلتمعان بالحِذق والحيوية والطاقة، وكانت أسنانه تومض. وكان شيء محبّبٌ جدًّا يطفو على وجهه. وإلى جانبه كان يجلس غلام صغير ذهبيّ الشعر، لم يكد يشبّ عن الطوق. وخفض الرجل بصره ناظرًا إلى الغلام، فتلفّت الغلام إلى الوراء، وضحك من حَبّة قلبه وكأنّ شيئًا عجيبًا كان على وشكِ أن يقع. ثم إنّ الرجل رنا إلى هنري وابتسم، ورجع بَصَرَه إلى الغلام كَرَّةً أخرى. ومن جيب صدريّته الشمالية العليا، سحب موسى عتيقة الزيّ مستقيمة الشُّقرة، وفتحها مشيرًا إلى الطفل بحركةٍ من رأسه. ثم إنه وضع إحدى يديه وسط غدائره، فضحك الطفل مرحًا. وبعدها أمالَ ذقنَ الغلام واحتزّ حنجرته، ومع ذلك فقد استمرّ الذبيح في ضحكه. ولكن هنري كان يولول رعبًا. ولقد احتاج إلى فترة طويلة من الوقت لكي يدرك أنّ أيًّا من الرجل والغلام لم يبقَ هناك إلى جانبه.

حتى إذا تحرر هنري من أثر الصدمة، بعض الشيء، اندفع من قمريّته ووثب فوق جانب السفينة وأنشأ يعدو هابطًا الكثيب عَبْرَ شجرات الصنوبر. لقد سار طَوالَ ساعاتٍ عدّة، وأخيرًا هبط إلى شارع السردين المعلّب.

وكان دوك في الدور الأرضي منهمكًا بقططه عندما اقتحم هنري المختبر. وواصل دوك عمله فيما كان هنري يروي له الخبر. حتى إذا انتهت روايته حدّق دوك إلى وجهه ليرى مبلغ ما ينطوي عليه من خوف حقيقيّ وخوف مصطنع. فإذا به يكتشف أنّ الذعر أغلبُ عليه حقًّا.

وسأله هنري:

ـ «أهي روح شرّيرة، في ما تعتقد؟ أهو انعكاسٌ ما لشيء قد وقع؟ أم هو ضَرْبٌ من الذعر الفريدويّ؟ أم أنني مخبّل أبله؟ لقد رأيتُ ذلك، أقول لك. لقد حدث أمامي مباشرةً، ولقد رأيتُه بعينيّ هاتين كما أراك الآن.»

فقال دوك:

ـ «لست أدري.»

ـ «حسنًا، أتحبّ أن تذهب معي وترى ما إذا كان ذلك الحادث سيتكرر؟»

فقال دوك:

ـ «لا. إذا رأيتُ ذلك المشهد فقد أكتشفُ أنها روح شريرة، وعندئذٍ يستبدّ بي روعٌ فظيع لأني لا أؤمن بالأرواح الشرّيرة. وإذا ما رأيتَهُ أنتَ مرّةً أخرى ولم أره أنا فقد يكون هَلْوَسَةً، وقد يعصف بك الذعر من جديد.»

فسأله هنري:

ـ «ولكن ما الذي ينبغي أن أفعله؟ أنا إن رأيتُ هذا المشهد بعد اليوم فلست أشكّ في ما سوف يقع ـ إنني سوف أموت. تلاحظ، إنه لا يبدو وكأنه سفّاح. إنه يبدو طيّبًا وكذلك يبدو الغلام طيّبًا، وليس من أمارة سوء تتراءى على وجهيهما. ولكنه احتزّ حنجرة الطفل. لقد رأيته بعيني رأسي!»

فقال دوك:

ـ «لست أدري. أنا لست اختصاصيًّا في معالجة الأمراض العقلية، ولست قانص سَحَرة. ولا أريد أن أبدأ ذلك الآن.»

وسُمع صوت فتاة تنادي:

ـ «هاي، دوك، أستطيع أن أدخل؟»

فقال دوك:

ـ «تعالَي!»

وكانت فتاة مليحة الوجه رشيقة الحركة إلى حدٍّ بعيد.

وقدّمها دوك إلى هنري، قائلًا:

ـ «إنّ لديه مشكلة. قد تكون روح شرّيرة زارته، وقد يكون ذا ضمير فظيع. إنه في حَيْرة من أمره. حدِّثْها عن ذلك يا هنري.»

وأعاد هنري القصة من أولها، فبرقت عينا الفتاة. حتى إذا أوفت القصة على غايتها قالت:

ـ «ولكن هذا مروِّع. أنا لم أشمّ في حياتي كلِّها رائحة أيٍّ من الأرواح الشرّيرة. لنذهب إلى هناك كي نرى ما إذا كانت تلك الروح ستعود من جديد.»

وأتبعَهما دوك نظره في شيء من النكد. فقد كان ـ بأية حالٍ ـ على موعد مع الفتاة.

ولم ترَ الفتاة أيَّما روح شرّيرة، ولكنها أولِعَت بهنري. وكان لها أن تقضيَ معه خمسةَ أشهر قبل أن تحملها القمريّة الضيّقة وعدمُ وجود الكنيف على فراقه.

- 23 -

كانت كآبة سوداء ترينُ على «قصر فلوبهاوس»، بعد أن زايله المرح كلُّه والبهجة كلُّها. لقد رجع ماك من المختبر مشرومَ الفم مكسّر الأسنان. وكضرْبٍ من التكفير، أبى ماك أن يغسل وجهه. لقد مضى إلى فراشه وسحب البطّانيّة إلى ما فوق رأسه، ولم ينهض طَوالَ ذلك النهار. كان قلبُه كليمًا مثل فمه. وطافت بذاكرته صنوف الأشياء الرديئة التي اقترفها في حياته. فبدا له أنّ كلّ ما عمله كان رديئًا. لقد استبدّ به حزن عميق الجذور.

وقعد هيوغي وجونز لحظةً يحدّقان إلى المدى، ولكنهما ما لبثا أن انطلقا، في نكد، إلى مصنع هيديوندو لتعليب السردين حيث التمسا عملًا وحصلا عليه.

واستشعر هاتزل وطأة الأسى إلى حدٍّ حمله على أن يمضي إلى مونتيري، ويتشاجر مع أحد الجنود ويخسر المعركة لغرضٍ في ذات نفسه. لقد نفى الحزنَ عن هاتزل أن يغلبه رجلٌ كان في مَيْسوره، هو هاتزل، أن يسحقه من غير ما مشقّة كبيرة.

وكانت «دارلنغ» هي وحدها السعيدة في ذلك المجتمع الصغير. كانت تنفق ساعات النهار تحت فراش ماك حيث تأكل حذاءه في نهم ولذة. إنها

كلبة بارعة ذات أسنان حادّة جدًّا. ومرتين اثنتين التقطها ماك ـ في يأسه الأسود ذاك ـ من تحت فراشه ووضعها إلى جانبه فوق الفراش ابتغاء أن يستأنس بها. ولكنها تملصت منه وعادت أدراجها لتأكلَ حذاءه من جديد.

وفي تكاسل مضى إيدي إلى بار «لا إيدا» وتحدّث إلى صديقه رجل المشرب. لقد فاز بشيء من الشراب، واستعار بضع قطع من ذوات الخمسة السنتات دفعها ثمنًا لسماع أسطوانة «الطفل الكئيب»، على الصندوق الموسيقي، خمس مرات متوالية.

كانت سحابة من الغم تجثم على صدور ماك والغلمان، وكانوا يعرفون ذلك، ويعرفون أنهم يستحقّون مثل هذا العقاب. لقد غدوا قومًا نبذهم المجتمع. وهكذا نُسيت مقاصدُهم الحميدة كلُّها. فلم يتحدث الناس بكلمة واحدة تشير إلى أنهم أقاموا تلك الحفلة تكريمًا لدوك، ولم يأخذوا هذه الحقيقة بعين الاعتبار. وذاعت القصة في الـ «بير فلاغ». وتحدّث بها الناس في مصانع التعليب، وفي بار «لا إيدا» ناقشها السكارى بروح من الفضيلة والصلاح. أمّا «لي تشونغ»، فأبى أن يعلّق بشيء. كان يشعر أنه أصيب بضربة مالية. وإليكَ كيف سارت القصة بين الناس: لقد سرق ماك والغلمان شرابًا ومالًا. ثم اقتحموا المختبر وخرّبوه تخريبًا نظاميًّا بدافعٍ من الحقد والشرّ الخالصَيْن ليس غير. وإنما أخذ بوجهة النظر هذه أولئك الذين كانوا في الحق، أوسع اطّلاعًا. وفكّر بعض السكارى في «لا إيدا» أن يذهبوا إلى «قصر فلوبهاوس» ليضربوا الجماعة كلَّها ويلقوا عليهم درسًا جهنّميًّا يُفهِم كلَّ فرد من أفرادها أنه لا يستطيع أن يعمل لدوك مثل هذا العمل.

ولم ينقذ ماك والغلمان من محاولات «الأخذ بالثأر» غير تكتُّلهم وقدرتهم على القتال. وكان ثَمَّةَ أناس لم يعرفوا منذ زمن طويل معنى للفضيلة ومع ذلك أخذتْهم هزّةُ الفضيلة لَدُنْ سمعوا بالحادث. وكان أشدّ

هؤلاء ضراوةَ توم شيليجان وهو الذي كان خليقًا بأن يشارك في تلك السهرة المنكودة لو بلغهُ نبأها.

ومن الناحية الاجتماعية كان ماك وصحبه خارج الحظيرة. لقد كفّ سام مالوي عن التحدث إليهم حين يمرّون بالمِرجَل الكبير. وانكمشوا هم على أنفسهم، ولم يكن في مَيسور أحد منهم أن يتكهّن متى ستنقشع هذه الغمامة الثقيلة التي تنغّص عَيْشهم. ذلك لأن للحَرْم الاجتماعيّ رَجْعَين اثنين: فإمّا أن يحمل المرء على أن يغدو كائنًا أفضل وأصفى وأكرم نفسًا، وإمّا أن يثيره فيتحدى العالم ويقدم على اقتراف ما هو أدهى وأسوأ. وهذا الرجْع الثاني أكثر شيوعًا من الأول.

وتأرجح ماك والغلمان بين الخير والشر. كانوا كرامًا لطافًا مع «دارلنغ»، وكانوا حُلَماء طِوالَ الأناة في علاقاتهم بعضهم ببعض. فلم تكد أولى آثار الصدمة تزايلهم حتى انصرفوا إلى تنظيف «قصرهم» على نحوٍ لم يُقدَّر له من قبل. فصقلوا نقوش الموقد الزاهية، وغسلوا جميع ملابسهم وبطّانيّاتهم. وكانوا قد غدوا، من الناحية المالية، قادرين على وفاء الديون. فقد كان هيوغي وجونز يشتغلان، وكانا يحملان أجورهما إلى المنزل، ويشتريان الموادّ الغذائية من «سوق الاقتصاد» لأنهما ما كانا بقادرَيْن على أن يحتملا عيني «لي تشونغ» الناضحتين بالتوبيخ.

وفي هذه الفترة بالذات لاحظ دوك ملاحظةً كان من الجائز أن تكون صحيحة. ولكن لمّا كان أحد العناصر مفقودًا في تفكيره فليس يدري أحدٌ أكان على صواب أم لا. وكان ذلك يوم الرابع من تموز. وكان دوك جالسًا في المختبر مع ريتشارد فروست. لقد احتسيا كؤوسًا من الجعة، واستمعا إلى مجموعة جديدة من موسيقى سكارلاتي، وأطلّا من النافذة. كانت أمام « قصر فلوبهاوس» قطعة من الحطب ضخمة قعد عليها ماك والغلمان

يستقبلون شمس الصباح الباكر، وينظرون إلى أدنى الكثيب المؤدي إلى المختبر.

وقال دوك:

ـ «أُنظرْ إليهم. أولئك هم فلاسفتك الحقيقيُّون. أنا أعتقد أنّ ماك والصبية يعرفون كلّ ما قد حدث في العالم، ولعلّهم أن يعرفوا كلّ ما سوف يحدث أيضًا. وأحسب أنهم خليقون بأن يعمَّروا في هذا العالم الخاصّ أكثر من غيرهم من الناس. فبينا ترى الناس يمزّقون أنفسهم إرْبًا إرْبًا بالآمال العريضة والنرفزة والجشع، تجدهم مسترخين ناعمي البال. إنّ كلّ أولئك الذين ندعوهم «رجالًا ناجحين أو مثرين» هم رجال مرضى: مِعَدُهم مريضة، وأرواحهم مريضة. أمّا ماك وصحبُه فأولو صحّة جيّدة وخُلق عجيب. في استطاعتهم أن يفعلوا ما يشاءون. وفي استطاعتهم أن يشبعوا شهيّاتهم من غير أن ندعوهم باسم آخر.»

وجفّف هذا الحديث حلْق دوك حتى لقد كرع كأسه كلَّها. ولوّح باثنتين من أصابعه في الهواء وابتسم وقال:

ـ «ليس ثَمَّةَ ما يشبه مذاق الجعة الأول.»

فقال فروست:

ـ «يخيَّل إليّ أنهم مثل غيرهم من الناس، تمامًا. كلُّ ما في الأمر أنهم لا يملكون شيئًا من المال.»

فقال دوك:

ـ «في إمكانهم أن يحصلوا عليه. في إمكانهم أن يُتلفوا حياتهم ويكسبوا المال. إنّ لِماك مواهب لا يملكها غير العباقرة. وهم جميعًا بارعون

جدًّا إذا أرادوا شيئًا. كلُّ ما هنالك أنهم يعرفون طبيعة الأشياء معرفة جيّدة جدًّا تعصمهم من أن يستسلموا لتلك الإرادة.»

ولو قد عرف دوك مبلغ الحزن الذي يرين على قلوب ماك والغلمان إذن لما قال العبارة التالية. ولكنّ أحدًا لم يخبره شيئًا عن الضغط الاجتماعي الذي خضع له رفاق «قصر فلوبهاوس».

لقد صبّ الجعة على مهلٍ، في كوبه، ثم قال:

ـ «أحسب أنّ في مَيْسوري أن أُرِيَك برهانًا على ذلك. أترى أيَّ وضع اختاروه لجلستهم؟ حسنًا ـ بعد نصف ساعة تقريبًا سيجتاز موكب الرابع من تموز «جادّة الفنار». إنّ في استطاعتهم بمجرّد لفتة من رؤوسهم أن يروا إلى الموكب، وبمجرّد وِقفة صغيرة أن يراقبوه، وبمجرّد خطوات معدودات أن يكونوا إلى جانبه. ومع ذلك فأنا أراهنك على زجاجة جعة أنهم لن يجشّموا أنفسهم حتى عناء الالتفات.»

فقال ريتشارد فروست:

ـ «ولنفرض أنهم لم يلتفتوا؟ فعلامَ يدلّ ذلك؟»

فقال دوك:

ـ «علامَ يدلّ ذلك؟ حسنًا؟ يدلّ على أنهم يعرفون ما الذي سيقع في هذا العرض. فهم يعلمون أنّ المحافظ سوف يتقدم الموكب في سيارة ينطلق نسيجُ البنطين من فوق غطائها المتحرك. وأنّ «لونغ بوب» سيتبعه على صهوة جواده الأبيض حاملًا علمًا، ومن بعدهما يسير مجلس بلدية المدينة، ثم كتيبتان من الجند من معسكر سان فرانسيسكو، ثم «الوعول» بمِظلّاتهم الأرجوانية، ومن ورائهم الفرسان الهيكليون وهم يحملون السيوف ويزدانون بريش النعام الأبيض، وفرسان كولومبس وهم يحملون السيوف أيضًا

ويزدانون بريش النعام الأحمر. إنَّ ماك والغلمان يعرفون ذلك. ويعرفون أنّ الجوقة الموسيقية سوف تعزف. لقد رأوا ذلك كلّه من قبل، وليست بهم حاجة إلى أن يروه كَرَّةً أخرى.»

فقال ريتشارد فروست:

ـ «ليس ثَمَّةَ إنسان على وجه الأرض لا يرغب في أن يتفرّج على موكبٍ من المواكب.»

ـ «إذن تُراهن؟»

ـ «أُراهن.»

وقال دوك:

ـ «لقد حيّرني هذا دائمًا وبدا غريبًا في نظري. الأشياء التي نُكبرها في الناس ككرم النفس، والسخاء، والصراحة، والأمانة، والفهم، والإحساس هي مُصاحِبات الإخفاق في النظام الذي نحيا في ظلّه. وتلك الخصال التي نمقتُها كالحدّة، والجشع، والنزعة إلى تملّك الأشياء، والضَّعة، وتمجيد الذات والاستغراق في المصالح الشخصية هي علامات النجاح الفارقة. وفيما يعجب الناس بمزايا الأولى، يحبّون ثمرات الأخرى.»

فقال ريتشارد فروست:

ـ «ومن ذا الذي يرغب في أن يكون صالحًا إذا كان الصلاح يعني الجوع؟»

ـ «أوه، إنها ليست مسألة جوع. إنها شيء مغاير بالكلّيّة. فَبَيْعُ الأرواح من أجل اكتساب العالم كلِّه إراديّ مئة بالمئة ويكاد يكون إجماعيًّا. ففي كلّ مكان من هذا العالم يوجد ماك وصحبُه. لقد رأيتُهم في شخصِ بائع

مرطِّبات في مكسيكو، وفي شخص أحد الألوشيّين(*) في آلاسكا. وأنت تعلم كيف حاولوا أن يُقيموا حفلةً على شرفي فوقع خللٌ ما. ولكنهم أرادوا أن يقيموا حفلةً من أجلي. ذلك كان حافزهم. إسمَعْ، أليست هذه هي الجوقة الموسيقية؟»

وفي سرعة صبّ دوك الجعة في كوبين، وتقدّم الرجلان نحو النافذة.

كان ماك والغلمان جالسين على جذع الشجرة اليابس محزوني الأفئدة، موجِّهين وجوههم شطر المختبر. كانت الموسيقى تنطلق من «جادّة الفنار»، وقرعات الطبول يتردد صداها من جوانب الأبنية. وفجأة بدت سيارة المحافظ وقد تطاير نسيج البنطين من جهاز التبريد فيها، وتبعها «لونغ بوب» على جواده الأبيض حاملًا علمًا، ومن ورائه الجوقة الموسيقية، فالجنود، فـ«الوعول»، فالفرسان الهيكليون، ففرسان كولومبس. وانحنى ريتشارد ودوك، في توفُّز، إلى الأمام، ولكنهما كانا يراقبان صفّ الرجال الجالسين على جذع الشجرة اليابس.

ولم تلتفتْ رأسٌ واحدة، ولم تشرئبّ عنق من الأعناق. لقد مرّ الموكب، من غير أن يتحرّك الغِلمان. وانتهى كلُّ شيء. فشرب دوك ثُمالةَ كأسِه، ولوَّح بأصبعين اثنتين تلويحًا رفيقًا في الهواء وقال:

ـ «هاه! ليس في العالم ما يشبه مذاق الجعة الأول.»

وانطلق ريتشارد نحو الباب وهو يسأل:

ـ «أيّ نوع من الجعة تريد؟»

فأجابه دوك في دَعَة:

(*) سكّان جزر «الألوشيان» Aleutian في المحيط الهادئ. (المعرِّب)

ـ «النوع نفسه.»

وتبسَّم رافعًا طرْفَه إلى ماك والغلمان.

إنه لَرائعٌ أن تقول: «الزمان يلأم الجراحات جميعًا، وهذا الجرح أيضًا سوف يندمل. الناس لا بدّ أن تنسى» وأشياء من مثل ذلك حين لا تكون لك صلة مباشرة بحادثٍ ما. ولكن حين يكون لك مثل هذه الصلة فليس ثَمَّةَ زمن يمسح الجراحات، وأناسٌ ينسون. ومن ثَمَّ تجد نفسك في غَمرة شيء لا يعتورُه التغيّر. والحق أنّ دوك لم يعرف أيَّ ألم وأيَّ نقد قاصم للذات كانا يسيطران على «قصر فلوبهاوس» وإلا لسعى إلى أن يعمل شيئًا لتسوية الأمر. وكذلك لم يعرف ماك والغلمان شيئًا عن شعوره نحوهم وإلا لرفعوا رؤوسهم كَرَّةً أخرى.

كانت فترة رديئة. لقد مشى الشرّ مرحًا في الأرض الفضاء. فتشاجر سام مالوي مع زوجته عدّة مرات، فهي تصيح وتبكي على نحوٍ موصول. وكانت الأصداء داخل المِرجَل تخيّل للمرء أنها تصيح وتبكي تحت صفحة الماء. وبدا ماك والغلمان وكأنهم عقدة البلاء كلّه. وطرد «القبضاي» الدمث المدافع عن بيت دورا أحد السكارى، ولكنه طرده بأعنف مما ينبغي وإلى أبعد مما ينبغي فقَصَم ظهره. ولقد اضطرّ ألفرد إلى أن يَمضيَ ثلاث مرّات إلى ساليناس قبل أن يُسدَل الستار على هذه الحادثة. ومع ذلك فلم يشعر ألفرد بالارتياح. فقد كان في الأحوال العاديّة طيّب القلب إلى درجة تَحول بينه وبين إيقاع الأذى بأحد. كان تركيبُه مزاجًا عجيبًا من التناغم واللطف.

وزاد الطينَ بِلّةً أنّ جماعة من سيدات البلدة الحميدات السجايا طالبن بأن تُغلَقَ أوكار الرذيلة حفاظًا على الناشئة الأميركية الطالعة. وكان ذلك يقع مرةً كلَّ عام تقريبًا في الفترة الميتة التي تمتدّ ما بين الرابع من تموز والموعد الذي تُقام فيه «سوق الولاية». وكان من عادة دورا أن توصد أبواب الـ«بير

فلاغ» أسبوعًا كاملًا حين يقع ذلك. ولم يكن في هذا كبير بأس. فقد كان كلّ امرئ ينعم بالإجازة في تلك الفترة، وكان في مَيْسور دورا أن تُفيد من هذه العطلة الجبريّة فترمّم الأنابيب والجدران. ولكن السيّدات خُضْنَ هذه السنة صليبيةً حقيقية. لقد أردن رأس امرئ ما. فقد كان ذلك الصيف فاترًا وكنّ في قلقٍ مضطرب وحَيْرة متبرّمة. ومن أمارات حماستهنّ في تلك الحملة أنهنّ طالبن بمعرفة المالك الحقيقيّ لكلّ بيت من بيوت الدعارة، والأجور المدفوعة، والمصاعب الطفيفة التي يمكن أن تنشأ عن إغلاق تلك الأوكار. إلى هذا الحدّ كنّ خطرًا جِدّيًا يحسب له حساب.

وأوصدَتْ دورا أبوابها، هذه المرة، أسبوعين كاملين. وعُقدت خلالَ ذلك ثلاثة مؤتمرات في مونتيري. ولكن المسألة ما لبثت أن شاعت فخسرت مونتيري خمسة مؤتمرات كان من المُنتظر أن تُعقد فيها السنة التالية. وجرت الأحوال على غير ما يرام في كلّ ناحية. فتعيّن على دوك أن يقترض من المصرف لكي يشتريَ بديلًا من القوارير التي حُطّمت في الحفلة الساهرة. وذهب إيلمير ريشاتي لينام على طريق الخط الحديدي فخسر قدميه الاثنتين. وهبّتْ عاصفة مفاجئة وغير متوقَّعة بالكلّيّة فأغرقت إحدى الشِّباك الطويلة وقطعت حبال ثلاثٍ من السفن وقذفت بها محطَّمة محزونة إلى شاطئ «ديل مونت».

وليس ثَمَّةَ تعليلٌ لمثل هذه السلسلة من الأرزاء. إنّ كلَّ امرئ لَيُنحي باللائمة على نفسه. ويتذكّر الناس، في عقولهم السوداء، الآثام التي اقترفوها سرًّا، ويتساءلون ما إذا كانوا هم المسؤولين عن تعاقب الشرور. وقد يعزوها رجلٌ ما إلى كُلف الشمس، في حين يلجأ آخر إلى قانون الاحتمالات فلا يصدّق ذلك. حتى الأطبّاء لم ينعموا بفترة صالحة آنذاك. فعلى الرغم من أنّ كثيرًا من الناس أصيبوا بأمراضٍ مختلفة فإنّ أيًّا من تلك الحالات المَرَضية

لم تكن من النوع الذي يعود على الطبيب بمبلغ محترم. كانت كلُّها حالات في مَيْسور المسهِّل الجيّد والدواء المسجَّل تعهُّدُها وشفاؤها.

وتُوِّجت لائحة المصائب بمرض «دارلنغ». كانت كلبة بدينةً جدًّا، وبالغة الحيوية عندما صرعها الداء. ولكنّ أيامًا خمسة من الحمّى أحالَتْها إلى هيكل صغير يغشاه الجلد. كان أنفها الكَبِديُّ اللون قرنفليًّا، وكانت لِثاتُها بيضاء. وتألّقت عيناها ببريق المرض، وشاعت الحرارة في جسدها كلِّه على الرغم من أنها كانت ترتجف في بعض الأحيان من البرد. لقد أقلعت عن الطعام، وأقلعت عن الشراب، وتقلّص بطنها البدين الصغير حتى لكاد يلتصق بعمودها الفقري. وحتى ذيْلها أمسى يشفّ عن مفاصله من خلال الجلد. كان واضحًا أنها مصابة بضرْبٍ من النزلة الوافدة.

واجتاح «قصر فلوبهاوس» الآن ذعرٌ حقيقي. كانت «دارلنغ» قد انتهت إلى أن تصبح شيئًا ذا أهميّة بالنسبة إلى سكان «القصر». فإذا بهيوغي وجونز يتركان عملهما، على نحوٍ موصول، لكي يبقيا إلى جانبها. وكانا يتناوبان العناية بها والسهر على راحتها، واضعَيْن قطعةً من قُماش بارد رطبة على جبينها، ومع ذلك فلم تكن الأيام لِتزيدَها إلا ضعفًا على ضعف. وأخيرًا انتُخب هاتزل وجونز، برغم إرادتهما، لزيارة دوك. فوجداه منصرفًا إلى جدول بيانيٍّ من جداول المدّ والجَزْر فيما كان يلتهم طبق دجاج كان خيار البحر(*) هو العنصر الرئيسيّ فيه لا الدجاج. وخُيِّل إليهما أنه رمقهما بنظرة باردة بعض الشيء. وقالا:

ـ «هي دارلنغ. إنها مريضة.»

ـ «ماذا أصابها؟»

(*) اسم حيوان بحريّ.

ـ «ماك يقول إنه ضرْب من النزلة الوافدة.»

فقال دوك:

ـ «أنا لست طبيبًا بيطريًّا. أنا لا أعرف كيف تعالَج هذه الأشياء.»

فقال هاتزل:

ـ «حسنًا، ولكن ألا تستطيع أن تُلقِي مجرّد نظرة عليها؟ إنها مريضة إلى حدٍّ جهنّميّ.»

وتحلّقوا حول دوك فيما كان يفحص «دارلنغ». لقد نظر إلى مقلتَيْها وإلى لِثَتِها، ومسّ أُذنها ليرى ما إذا كانت تشكو الحمّى، وأمرّ إصبعه على أضلاعها البارزة مثل قضبان الدولاب، وعلى عمودها الفقري البائس، ثم سأل:

ـ «هل تأكل شيئًا؟»

فأجابه ماك:

ـ «مطلقًا.»

ـ «ينبغي أن تُكرِهوها على الطعام. شورباء قويّة، وبيض وزيت كَبِد السمك.»

وخُيّل إليهم أنه كان جافًّا، وأنّ لهجته أشبه بلهجة الأطبّاء المحترفين. وما هي إلا لحظة حتى انقلب إلى جداوله البيانية وطبقه الحافل بخيار البحر ولحم الدجاج.

ولكن ماك والغلمان كان عليهم أن يعملوا شيئًا الآن. لقد غَلَوا مقدارًا من اللحم حتى غدا حادًّا كالويسكي. ووضعوا زيت كَبِد السمك على مؤخَّر حلْقها حتى ينزلق بعضُه إلى مَعِدَتِها. ثم إنهم أمسكوا برأسها واتخذوا من

شفتيها قمعًا صغيرًا وأفرغوا الشورباء الباردة في جوفها. كان عليها أن تختار بين ابتلاع الشورباء أو الاختناق. ومرّةً كلَّ ساعتين قدّموا إليها الغذاء وشيئًا من الماء. وكانوا من قبلُ يتناوبون النوم. أمّا اليوم فلم يعرف الغمضُ عيني أحد منهم. لقد قعدوا صامتين وقد توقّعوا أن تمرّ «دارلنغ» بأزمة قاسية.

ومع الصباح جاءت الأزمة. كان الغلمان نصف نائمين في كراسيهم، ولكنّ ماك كان مستيقظًا، وكانت عيناه مسمّرتين على الكلبة. لقد رأى إلى أذنيها تنتفضان مرتين، وإلى صدرها يعلو ويهبط. وفي وهنٍ لا نهائي نهضت في بطء على قدميها المستدقّتين، وجرجرت نفسها إلى الباب، وولغت في إناء الماء أربع وَلَغات ثم خرّت على الأرض.

وصاح ماك موقظًا رفاقه. ووثب راقصًا في ثقل. وصاح الغلمان في وجوه بعضهم بعضًا. وسمعهم «لي تشونغ» ونخرَ فيما كان يُخرج صفائح القاذورات. وكذلك سمعهم ألفرد قبضاي الـ «بير فلاغ» وظنّ أنهم يُحيون حفلة ساهرة.

وعند الساعة التاسعة كانت «دارلنغ» قد أكلتْ بنفسها بيضة نيئة ومقدارًا من الكريما المخفوقة. حتى إذا انتصف النهار كان واضحًا أنها أخذت تستعيد شيئًا من صحّتها المفقودة. ولم ينقضِ عليها نهارٌ كامل حتى شرعت تثب وتلعب، لتغدو عند نهاية الأسبوع في حال جيّدة.

وأخيرًا نشأت ثغرةٌ في جدار الشرّ. وقامت الأدلّة على ذلك في كلّ مكان. فظهرت الشبكة الطويلة وطَفَتْ على سطح الماء. ووردت على دورا كلمة تقول بأنه ليس ثَمَّةَ ما يَحول دون فتح أبواب الـ «بير فلاغ». والتقط إيرل ويكفيلد سمكة «سكولبين» ذات رأسين اثنين وباعها للمتحف بثمانية دولارات. لقد انثغر جدار الشرّ والانتظار، وتداعى إلى السقوط. وأُسدلت السجف تلك الليلةَ، في المختبر، وعُزفت الموسيقى الغريغورية حتى الساعة

الثانية، ثم صمتت الموسيقى، ولم يخرج أحدٌ من المكان. وعطفت قوةٌ ما فؤاد «لي تشونغ»، فسامح ماك والغلمان ـ في لحظةٍ من لحظات التسامي ـ وشطب على حساب الضفادع الذي سبّب له صداعًا نقديًا منذ البدء. ولكي يُثبت للغلمان أنه سامحهم تناول زجاجة من زجاجات «أحذية التنس العتيقة» وقدّمها إليهم. ذلك بأنّ شراءهم ما يحتاجون إليه من أغذية من «سوق الاقتصاد»، جرحَ مشاعرهُ، ولكن ذلك كلّه انتهى الآن. وتوافقت زيارة «لي» مع أُولى دفقات الصحة التي عرفَتْها «دارلنغ» بعد مرضها. والواقع أنها استعصت، منذ اليوم، على كلّ نظام، ولم يخطر ببال أحدٍ أن يحجزها. وهكذا ما كاد «لي تشونغ» يَفِدُ على «القصر» حاملًا هديّته حتى انصرفت، في رويّة وسرور، إلى إتلاف حذاء هاتزل المطّاطي ـ ولم يكن يملك غيره ـ فيما كان سادتُها السعداء بها يصفّقون ويهلّلون.

ولم يزُرْ ماك بيت دورا التماسًا لمتعة الجسد قَطّ. فقد كان ذلك خليقًا بأن يبدو له أشبه بعضَ الشيء بمضاجعة المحارم أو الأقربين. وعلى أيّة حال فقد كان يؤثر الاختلاف إلى بيتٍ قائمٍ قرب ملعب كرة المضرب (بيسبول). فما إن يتقدّم إلى المشرب الأمامي حتى يدركَ كلُّ امرئ أنه يريد شيئًا من الجعة.

واقترب ماك من ألفرد ذات يوم وسأله:

ـ «دورا هنا؟»

ـ «وماذا تريد منها؟»

ـ «عندي سؤال أريد أن أوجهه إليها.»

ـ «حول ماذا؟»

فقال ماك:

ـ «ليس ذلك من شأنك.»

ـ «أوكي! ليكن ما تريد. سأرى ما إذا كانت راغبة في أن تتحدث إليك.»

وبعد لحظة قادَ ماك إلى مَقْدِسها. كانت دورا جالسة إلى مكتب ذي غطاء خشبيّ يُفتح سَحْبًا، وكان شعرها البرتقاليّ مركومًا خواتمَ خواتم على رأسها، وكانت تضع على عينيها ظِلالةً خضراء. وبواسطة ريشة ثخينة الرأس انصرفت إلى ضَبط حساباتها وتسجيل دَخْلِها وخَرْجِها حتى اللحظاتِ الأخيرة في دفترٍ من صنف «الأستاذ» جيّدٍ عتيق مزدوج القيد. وكانت ترتدي ملاءة من الحرير القرنفليّ الفاتن موشّاة عند العنق والمعصمين. حتى إذا دخل عليها ماك استدارت على كرسيّها الطوّاف وواجهَتْه. ووقف ألفرد لدى الباب وانتظر. وظلّ ماك واقفًا حتى أغلق ألفرد الباب وانصرف.

وأنعمت دورا النظر إليه في ارتياب، وأخيرًا سألته:

ـ «حسنًا، ما الذي أستطيع أن أعمله من أجلك؟»

فقال ماك:

ـ «تَرَيْن يا سيدتي. حسنًا، أحسب أنكِ سمعتِ بما عملناه لدوك منذ مدة؟»

فرفعت دورا ظِلالَتها الخضراء إلى رأسها، ووضعت الريشة في مِمسكة عتيقة الزيّ ملتفّة الأسلاك، وقالت:

ـ «ياه! لقد سمعت.»

ـ «حسنًا، يا سيدتي، لقد فعلْنا ذلك لدوك. وقد لا تصدّقين ذلك. ولكنّا أردنا أن نقيم حفلة على شرفه. كلُّ ما في الأمر أنه لم يرجع إلى بيته في الوقت المناسب، وهكذا أفلتت من أيدينا...»

فقالت دورا:

ـ «هكذا سمعت. حسنًا، ما الذي تريد أن أفعلَه؟»

فقال ماك:

ـ «حسنًا، لقد فكّرتُ أنا والغلمان أن نسألَكِ. أنتِ تعرفين رأيَنا في دوك. لقد أردْنا أن نسألَكِ عمّا نستطيع أن نعمله من أجله لكي نُظهِرَ له محبَّتنا وتقديرَنا.»

ـ «همْمْ» قالت دورا ذلك، ثم ارتدّت بكرسيِّها المتحرّك إلى الوراء، وصالبَتْ قدميها وسوّت ملاءتها فوق ركبتيها. ثم إنها سحبت سيجارة وأشعلتْها وانشأت تفكّر. وأخيرًا قالت:

ـ «لقد أقمتم له حفلة لم يشهدها. فلماذا لا تقيمون له حفلةً يكون في مَيْسوره أن يشهدَها؟»

ـ «يا لَلمسيح!» كذلك قال ماك بعد ذلك للغلمان ـ «لقد كانت على مثل هذه السهولة. والآن، إنها امرأة جهنّميّة حقًّا. فلا عجبَ إذا ما غدت سيدة. إنها امرأة جهنّميّة حقًّا!»

- 24 -

كانت ماري تالبوت، أو مسز تالبوت، امرأة مليحة الوجه. كان لها شعر أحمر تسطع خلاله بعض الأضواء الخضراء. وكان جلدها ذهبيًّا ذا ظلّ أخضر، وكانت عيناها خضراوين مرقّشتين ببضع نقاط ذهبية صغيرة. أمّا وجهها فكان ذا شكل مستطيل، عريض عظمَيْ الوجنتين، واسع العينين، مستدقّ الذقن. كانت لها رجلان طويلتان كأرجل الراقصات، وقدمان كأقدام الراقصات أيضًا، وكانت تبدو وكأنها لا تمسّ الأرض حين تمشي. وكانت إذا ما اهتاجت وثارت ـ وكثيرًا ما كانت تهتاج وتثور ـ يشيع في وجهها لون الذهب. لقد أُحرقت جدّة جدّة جدّتها بوصفها ساحرة أو عرّافة.

وماري تالبوت مولعة بالحفلات أكثر من وَلوعها بأيّما شيء آخر في الدنيا. إنها تحبّ أن تقيم الحفلات لأصدقائها، وأن تشهد مثلها عندهم. وإذْ كان تالبوت رجلًا قليل المال فلم يكن في مستطاع ماري أن تُحييَ ليالي السمر على نحوٍ موصول. ومن أجل ذلك كانت تحاول أن تخدع الناس عن أنفسهم وتستدرجهم لإقامة حفلة ساهرة. وفي بعض الأحيان كانت تتلفن إلى صديقة لها وتقول في فظاظة:

ـ «أما آنَ لكِ أن تقيمي حفلةً ساهرة؟»

وكانت لماري ستة أعياد ميلاد في العام الواحد، وكانت تحيي سهرات أزياء، وسهرات مفاجآت، وسهرات أعياد. وكانت عشيّةُ الميلاد في بيتها شيئًا مثيرًا جدًّا. ذلك بأنّ ماري كانت تتوهج وتنفعل في الحفلات الساهرة، وكانت تحمل زوجها على أمواج اهتياجها ذاك.

وفي الأصائل، حين يكون توم في عمله، كانت ماري تدعو قطط الحيّ، في بعض الأحيان، إلى حفلة شاي. كانت تضع فناجين وصحونًا أُلعوبيّة على طاولة منخفضة، وتجمع القطط ـ وما كان أكثرها في الحيّ ـ ثم تجاذبها أطراف حديث مفصّلٍ متطاول. كان ذلك ضَرْبًا من العبث تؤثره وتستمتع به كثيرًا ـ ضَرْبًا من اللعب الساخر يحجب عن ماري هذه الواقعة، وهي أنها لا تملك ملابس بارعة، وأنّ زوجها فقير ليس عنده من المال شيء. كانا في الدرك الأسفل من الإفلاس، معظم أيام حياتهما. حتى إذا اجتمع لهما بعض المال من طريق الاقتصاد عمدت ماري إلى إحياء حفلة ساهرة من نوعٍ ما.

وكان في مَيْسورها أن تفعل ذلك. كان في مَيْسورها أن تُعديَ الجمْعَ كلَّه بالبهجة والمرح، وتصطنع موهبتها كسلاح تشهره في وجه الكآبة التي تكمن دائمًا خارج المنزل في انتظار الانقضاض على توم. تلك كانت مهمّة ماري كما تبدّت لها ـ أن تُقصيَ الكآبة عن تومٍ لأن كلّ امرئ يعرف أنه سوف ينعم بنجاح عظيم في وقتٍ ما. وكانت تُوفَّق، أكثر ما توفّق، إلى طرْد الأشياء القاتمة إلى الخارج، ولكنها كانت تنقضّ في بعض الأحيان على توم فتصرعه. وعندئذٍ يجلس ويستغرق في التفكير ساعاتٍ وساعاتٍ، فيما تُضرم ماري نارًا مضادّةً من البهجة والمرح.

وفي مطلع أحد الشهور، وكان توم قد تلقّى مذكرة قصيرة جافّة من شركة الماء، وتخلّف عن دفع إجارة البيت، ورُدَّت إليه المخطوطة من مجلة «كوليرز» والصور الكاريكاتورية من صحيفة الـ «نيو يوركر»، واشتدّت عليه

وطأة ذات الجنْب ـ في مطلع ذلك الشهر استلقى صاحبنا على الفراش صريع اليأس والكمد.

ووفدت ماري عليه، في تؤدة. ذلك بأنّ لون كآبته الرماديّ المزرقّ كان قد رشح من تحت الباب ومن ثَقب المفتاح. وكانت عندها باقة صغيرة من أزهار نبات من فصيلة الخردل في طوقٍ من الوشْي الورقيّ.

ـ «شُمّ،» كذلك قالت وقرّبت الباقة إلى أنفه. فاستروح الأزهار ولم يقل شيئًا. فسألتْه وراحت تفكر، في ضراوة، باحثةً عن شيء يجعل ذلك النهار نهارًا بهيجًا:

ـ «أتعرف أيّ يوم اليوم؟»

فقال توم:

ـ «لماذا لا نواجه الحقيقة مرةً واحدة؟ لقد أصبحنا على الأرض. لقد أفلسنا. أيّ فائدة تُرجى من خداعنا نفسينا؟»

فقالت ماري:

ـ «نحن لا نفعل. إننا قوم سحريون، وكذلك كنا دائمًا. أتذكر تلك العشرة دولارات التي وجدتها في أحد الكتب؟ أتذكر يوم أرسل إليك ابن عمك خمسة دولارات؟ ليس ثَمَّةَ سوء يمكن أن يصيبنا.»

فقال توم:

ـ «حسنًا، لقد أصابنا. أنا آسف. لست أستطيع أن أخدع نفسي هذه المرة. لقد مرضتُ من التظاهر بكل شيء. أني أتمنى لو يكون ما أتظاهر به حقيقيًّا ولو مرةً واحدة ـ ولو مرة واحدة ليس أكثر.»

فقالت ماري:

ـ «لقد خطر ببالي أن أحيي سهرة صغيرة هذه الليلة.»

ـ «وعلى ماذا؟ إنكِ لا تنوين أن تقصّي صورة لحم الخنزير المخبوز من إحدى المجلات، هذه المرة أيضًا، وتقدّميها إلى الضيوف على صينيّة ـ أليس كذلك؟ لقد مرضتُ من هذا الضَّرْب من الخداع. إنه لم يعد مضحكًا البتة. لقد أمسى محزنًا.»

فأصرّت الزوجة:

ـ «في مَيْسوري أن أُحييَ حفلة صغيرة. مجرّد حفلة بسيطة. إنّ أحدًا لن يرتديَ ملابس السهرة. إنها ذكرى مرور عام على تأسيس «عصبة بلومر»(*) يبدو أنك لا تذكر هذا أيضًا.»

فقال توم:

ـ «لا فائدة. أنا أعرف أنّ ذلك وضيع، ولكني غدوتُ أعجز من أن أحتمل. لماذا لا تَخرجين وتغلقين الباب تاركةً إيّاي وشأني؟ سوف أُخرجكِ بنفسي إذا لم تفعلي.»

وأنعمت النظر فيه فرأت أنه يعني ما يقول. وعندئذٍ خرجت ماري في تؤدة وأوصدت الباب، وانقلب توم على الفراش واضعًا رأسه بين ذراعيه. كان في استطاعته أن يسمع خشخشتها وهي تتحرك في الغرفة الأخرى.

لقد زيّنت الباب بأشياء عتيقة من لطائف عيد الميلاد، وبهارجه وكُراته الزجاجية، وعملت لوحة مكتوبًا عليها: «أهلًا بتوم، بَطَلِنا.» ثم إنها استرقت السمع من وراء الباب فلم تقع في أذنها كلمة ما. وفي شيء من الكآبة جاءت بالطاولة المنخفضة، ونشرت فوقها منديلًا، ثم وضعت باقة الزهور في

(*) البلومر زِيّ يتألف من بنطلون فضفاض تحت تنورة قصيرة اقترحتْه مسز بلومر للنساء سنة 1849 – 1850، ويُطلَق اللفظ على المرأة التي تصطنع هذا الزيّ أيضًا. (المعرِّب)

كأس على منتصف الطاولة، ووزّعت حولها أربعة أكواب وصحون. حتى إذا تمّ لها ذلك كلّه قصدت إلى المطبخ وألقت شيئًا من الشاي في الإبريق ووضعت ركوة الماء على النار، وانطلقت إلى فِناء الدار.

كانت الهرة «راندولف» تتشمس قرب السياج الأمامي، فنادتها ماري قائلة:

ـ «مس راندولف ـ عندي بضعة أصدقاء دعوتهم لحفلة شاي، فلعلّه يهمّكِ أن تحضري.»

فانفتلت راندولف على ظهرها في خمول، وتمطّت في الشمس الدافئة. وأردفت ماري:

ـ «لا تتأخري إلى ما بعد الساعة الرابعة. سوف أذهب أنا وزوجي إلى حفلة الذكرى المئوية التي تقيمها عصبة بلومر في الأوتيل.»

ثم إنها انعطفت حول البيت إلى الفِناء الخلفي حيث كانت عرائش العلّيق الأسود تتسوّر السياج. وهناك كانت هرة أخرى تُدعى «كاسيني» قاعدةً القرفصاء تبربر مخاطبة نفسها وتضرب الأرض بذنَبها ضربًا عنيفًا، فنادتها ماري قائلة:

ـ «مسز كاسيني...»

ولكنها ما لبثت أن كفّت عن الكلام بعد أن رأت إلى ما كانت الهرة تعمله. كانت في حوزة كاسيني فأرة، وكانت تربّت عليها في رفقٍ ولين بكفها غير المسلحة، فتتلوى الهرة وتنكمش في ذعر، ساحبةً قائمتيها الخلفيتين المشلولتين وراءها، وتركتها الهرة تمضي إلى عرائش العلَّيق الأسود، ثم تطاولت في رقة وقد برزت في كفّها براثن بيضاء، وطعنت الفأرة في ظهرها

طعنة تنضح بالمتعة وجرّتها متلوّية إليها، وأخذ ذنبها يخبط الأرض في ابتهاج عارم.

ولا بدّ أن يكون توم نصفَ نائمٍ على الأقلّ عندما سمع النداء باسمه مرةً بعد مرة. فوثب من فراشه صائحًا:

ـ «ما هذا؟ أين أنتِ؟»

وكان في مَيْسوره أن يسمع زوجته تصيح. فانطلق إلى الفناء ورأى إلى ما كان يجري فيه، فصاح:

ـ «أديري رأسكِ.»

وقتل الفأرة. وكانت «كيتي كاسيني» قد وثبت إلى أعلى السياج، حيث أنشأت تراقبه في غضب. والتقط توم حجرًا، وضربها به على مَعِدتها فأسقطها عن السياج.

وفي المنزل كانت ماري تصيح بعض الشيء، ما تزال. لقد صبّت الماء في إبريق الشاي وحملته إلى الطاولة. وقالت لتوم:

ـ «اجلس هناك.»

فقعد القرفصاء على الأرض، أمام الطاولة المنخفضة.

وسألها:

ـ «ألا أستطيع أن أحصل على كوب كبير؟»

فقالت ماري:

ـ «لا أستطيع أن ألوم كيتي كاسيني. أنا أعرف القطط. إنها ليست غلطتها. ولكن أوه، توم! سوف تزعجني دعوتها من جديد. وإني أعتزم أن لا أحبّها فترة من الزمان مهما نازعتني نفسي إلى ذلك.»

وأنعمت النظر إلى توم، فرأت أنّ جبينه لم يعد مقطّبًا، فقالت:

ـ «ولكني شديدة الانشغال بعصبة بلومر هذه الأيام. ولست أدري كيف سيكون في مقدوري أن أُنجز ذلك كلَّه.»

وذلك العام أحيت ماري تالبوت سهرة حَمْلٍ. وقال كلُّ امرئ:

ـ «يا إلٰهي، إنّ غلامًا تضعه مسز تالبوت جديرٌ بأن يستمتع في المستقبل بقدر كبير من الدعابة.»

- 25 -

ليس من شك في أنّ شارع السردين المعلّب كلّه، وأنّ مونتيري كلّها في أغلب الظن، استشعرا أنّ تغيّرًا قد وقع. ومن الجميل أن لا يؤمن المرء بالحظّ وبالفأل والشؤم. إنّ أحدًا لا يؤمن بها. ولكن من غير المفيد أن يغامر المرء معها، وليس ثَمَّةَ امرؤ يغامر. وشارع السردين المعلّب، ككلّ موطن آخر، ليس يؤمن بالخرافات، ولكنه يُحجم عن السيْر تحت سُلَّم وعن فَتْحِ مظلّة في المنزل. وكان دوك عالمًا بالمعنى الصحيح، وكان بعيدًا عن سلطان الخرافة، ومع ذلك فحين رجع إلى المختبر في ساعة متأخرة من ذات ليلة ووجد صفًّا من الأزهار البيضاء عَبْرَ عتبة الباب، أخذه الهمّ واضطراب البال. ولكن معظم الناس في شارع السردين المعلّب لا يؤمنون بمثل هذه الأمور ثم يوجّهون حياتهم وَفْقَها.

ولم يخامر ماك ريبٌ في أنّ سحابةً سوداء كانت جاثمة على صدر «قصر فلوبهاوس». لقد درس السهرة المخفِقة دراسة تحليلية فوجد أنّ نحسًا ما قد تسلّل إلى كلّ فجوة فيها، وأنّ الحظ العاثر قد برز كالمرض الجلدي على صفحة ذلك المساء. وكلّما اعتادك مثل هذا التفكير النمطيّ الرتيب فخير ما تفعله أن تمضي إلى الفراش وتمكث فيه حتى يُعتقك. إنك لا تستطيع أن تعانده. وليس مردّ ذلك إلى أنّ ماك كان يؤمن بالخرافات.

وكان ضَرْبٌ من البهجة قد شرع يتسرب إلى شارع السردين، وينتشر منه إلى ما حوله. فقد وُفّق دوك توفيقًا يكاد يكون خارقًا مع جمهرة من السيدات الزائرات. إنه لم يَقُم بأيّ محاولة أو مسعى. وكانت كلبة «القصر» تنمو مثلَ اللوبياء المُسنَدة إلى ركائز قائمة، وإذ كانت تجرّ وراءها ألف جيل من التدريب فقد شرعت تدرّب نفسها. صارت تشمئزّ من التبويل على أرض «القصر» فهي تمضي إلى الخارج لقضاء تلك الحاجة. كان واضحًا أنّ «دارلنغ» سوف تغدو كلبةً صالحةً فاتنة. ولم تُصَبْ بداء الرقص السنجي (خوريا) نتيجةً للنزلة الوافدة.

وانتشرت النفحة السعيدة كالغاز في شارع السردين كلِّه. لقد انتهت إلى دكان هيرمان الذي يبيع شرائح البقر المشوية المطبوخة، وانتشرت حتى أوتيل سان كارلوس. لقد استروحها جيمي إيفيا، وكذلك جوني السَّقّاء أو رجل المَشرب. وأحسّ بها سباركي إيفيا فخاض مبتهجًا غمار معركة مع ثلاثة من رجال الشرطة الجُدد الغرباء عن البلدة. بل لقد بلغت سجن المقاطعة في ساليناس حيث كان غاي يستمتع بحياة ناعمة بسببٍ من أنه كان يترك آمر السجن يغلبه في لعبة الدّاما، فإذا به ينقلب فجأةً إلى رجل متشامخ مغرور، ليس يُغلب في دورة من دورات اللعب أبدًا. صحيح أنه خسرَ، إثر ذلك، امتيازاته الأولى، ولكنه استشعر أنه عاد رجلًا كاملًا كَرَّةً أخرى.

واستروحها أُسود البحر أيضًا، فاتخذ زئيرها جَرْسًا خليقًا بأن يوقع البهجة في قلب القديس فرنسيس. والواقع أنّ الفتيات الصغيرات المنصرفات إلى حفظ دروس الدين كنّ يرفعن رؤوسهن فجأةً ويقهقهن لغير ما سبب على الإطلاق. ولعلّ أداةً كهربائية كاشفةً كان يمكن أن تُصنع، على غاية من الدقة والحساسية، لتعيين مصدر هذا الابتهاج الغامر كلِّه، وهذا السعد العميم كلِّه. ولعلّ البحث يردّ ذلك، في أغلب الظن، إلى «قصر فلوبهاوس وغريل». فليس من ريب في أنّ «القصر» كان مصابًا بهذا

«الوباء» الجديد. كان ماك والغلمان يتفجّرون بِشْرًا ونشاطًا. فجونز يثب من على كرسيه لا لشيء إلّا ليَرقص رقصة «تابينغ» خاطفة ثم يعود إلى مجلسه من جديد. وهاتزل يبتسم ابتسامة غامضة لغير شيء على الإطلاق. لقد عمّ الحبور وانتشر إلى درجة تعذّر معها على ماك أن يركّزه ويوجّهه نحو غايته. وكان «إيدي» الذي لازم العمل على نحوٍ نظاميّ، أو يكاد، في بار «لا إيدا» قد وُفّق إلى أن يجمع مقدارًا صالحًا من ضروب الشراب، مقدارًا خليقًا بأن يكون له في المستقبل شأن عظيم. إنه لم يعد يُضيف الجعة إلى إبريقه. ذلك بأنّ الجعة كانت تعطي المزيج مذاقًا تافهًا لا نكهة له، كما كان يقول.

وكان سام مالوي قد زرع شيئًا من «أمجاد الصباح» رجاةَ أن تنموَ فوق المِرجَل. وكان قد أقام خيمة صغيرة فهو يجلس تحتها مع زوجته، في مَوْهِنٍ من الليل. كانت تطرّز غطاءً للفراش.

ودبّ البِشْر والمرح إلى بيت دورا أيضًا. كان العمل ناشطًا. وكانت رِجل فيليس ماي في سبيلها إلى الشفاء، فهي توشك أن تستأنف عملها من جديد. ورجعت إيفا فلاناجان من «إيست سان لويس» وهي على أعظم السرور بالعودة. كان الجوّ حارًّا جدًّا في «إيست سان لويس» ولم يكن رائعًا كما عرفَتْهُ من قبل. ولكنها رجعت أكثر فِتاءً وأنضرَ عودًا بفضل ما استمتعت به هنالك من دعابة ولهو.

ولم تكن معرفة القوم بحادث المختبر أو إدانتهم للغلمان شيئًا مفاجئًا. إنها لم تنطلق على نحوٍ متفجر. لقد عرف الناس قصة الحفلة الساهرة ولكنهم تركوها تنمو وئيدًا وئيدًا، كحشرة في طور نموّها الثاني، في شرانق خيالاتهم.

وكان ماك واقعيًّا في المسألة، فقال للغلمان:

ـ «لقد أكرهنا المناسبة، تلك المرة، إكراهًا. وليس في استطاعتك أن تحييَ حفلة ساهرة على هذه الشاكلة. ينبغي أن تتركها هي تسعى إليك.»

فتساءل جونز في فروغ صبر:

ـ «حسنًا، ومتى سنحييها؟»

فقال ماك:

ـ «لست أدري.»

فسأل هاتزل:

ـ «وهل ستكون سهرة مفاجئة؟»

فأجاب ماك:

ـ «يجب أن تكون. هذا هو النوع الأفضل.»

وحملت إليه «دارلنغ» كرة تنس عثرت عليها، فألقى بها إلى الأعشاب النابتة في الخارج. فما كان من «دارلنغ» إلا أن عَدَتْ في أثرها.

وقال هاتزل:

ـ «لو عرفنا متى يصادف عيد ميلاد دوك، لأقمنا له حفلة خاصة بتلك المناسبة.»

وفغر ماك فاه. لقد أذهله هاتزل إذهالًا موصولًا. ثم قال:

ـ «وحقّ الإله يا هاتزل، إنها فكرة وجيهة، أجل، يا سيدي، إذا أقمناها في عيد ميلاده فسوف يكون هناك هدايا. هذا هو الشيء الذي نريد. كلّ ما يتحتم علينا الآن أن نكتشف متى يصادف عيد ميلاده.»

فقال هيوغي:

ـ «هذه مسألة بسيطة. لماذا لا نسأله؟»

فقال ماك:

ـ «يا لَلجحيم! إذا فعلنا فعندئذٍ يُفهم كلّ شيء. إنك إذا سألتَ شخصًا عن عيد ميلاده، وخاصةً إذا كنتَ قد أقمتَ له سهرة كالتي أقمناها، يدرك في الحال السبب الذي دفعك إلى السؤال. لعلّ من الأفضل أن أنطلق وأستروح الحقائق من غير أن أدع أحدًا يفهم ما نعتزم القيام به.»

فقال هاتزل:

ـ «سوف أذهب معك.»

ـ «لا، إذا ذهب اثنان منا فقد يتصور أننا نريد أمرًا.»

ـ «حسنًا، إلى الجحيم، لقد كانت الفكرة فكرتي.»

فقال ماك:

ـ «أدري. وعندما يتمّ ذلك، فلسوف أُخبر دوك أنها فكرتك. ولكني أعتقد أنّ من الخير أن أذهب وحدي.»

فسأل إيدي:

ـ «كيف هو ـ لطيف؟»

ـ «مؤكد، إنه على ما يرام.»

وحين قصد ماك لمقابلة دوك ألفاه في الدور الأسفل من المختبر. كان يرتدي مئزرًا مطّاطيًّا كبيرًا، وقفّازين مطّاطيّين يقي بهما يديه من غاز الفورمالديهايد. وكان يلقّح أوردة بعض كلاب البحر الصغيرة وشرايينها ببعض المستحضرات الملوّنة. وكانت طاحونته الكُرِيّة الصغيرة تدور وتدور مازجةً المستحضر الأزرق. أمّا السائل الأحمر فكان قد وُضع قبل ذلك في

مدفع الضغط. وعملت يدا دوك البارعتان في إحكام، فهما تغرزان الإبرة في موضعها وتضغطان على زناد الهواء الذي يُقحم اللون في الأوردة. حتى إذا فرغ من إحدى السمَكات وضعَها على نضيدةٍ نظيفة، لكي يعود إليها بعدُ فيُفرِغ المادّة الحمراء في شراييِنها. لقد أثبتت كلاب البحر أنها نماذج تشريحية ناجحة.

وقال ماك:

ـ «هاي، دوك، يبدو أنك مشغول دائمًا؟»

ـ «مشغول كما أريد. كيف الكلبة؟»

ـ «في حالٍ حسنة. لولاك لماتت من غير شك.»

وغمرت دوك، لحظةً، موجةٌ من حذَر، ولكنها ما لبثت أن انحسرت. ذلك بأنّ كلمة الثناء تجعله يقِظًا، في العادة، شديد الاحتراس. لقد عرَف ماك وعاملَه فترةً طويلة من الزمان، ولكنّ جَرْسه لم يكن ينطوي على شيء غير الاعتراف بالجميل. وكان عالِمًا بحبّ ماك للكلبة وجزَعه عليها.

ثم إنه سأله:

ـ «كيف تجري الأحوال هناك، في القصر؟»

ـ «ممتازة، دوك، ممتازة. لقد حصلنا على كرسيّين جديدين. وأنا أرجو أن تشرّفنا بزيارة. صار كلّ شيء جميلًا، هناك، الآن.»

فقال دوك:

ـ «سوف أفعل. ألا يزال إيدي يرجع بإبريقه حافلًا بالشراب؟»

فأجابه ماك:

ـ «طبعًا، ولكنه لم يعد يضع فيه شيئًا من الجعة. وأحسب أنّ الصنف صار أحسن من ذي قبل. لقد أصبح أكثر قوة.»

فقال دوك:

ـ «لم يكن ذلك ينقصه في ما مضى.»

وانتظر ماك في صبر، فلا بدّ أن يقتحم دوك المسألة، عاجلًا أو آجلًا. وإذن فليعتصم بالأناة. ولو طرق دوك الموضوع بنفسه إذن لكان ذلك أدعى إلى أن لا تُثار ظنونه. تلك كانت طريقة ماك دائمًا.

ـ «أنا لم أرَ هاتزل منذ مدة. إنه ليس مريضًا، أليس كذلك؟»

فقال ماك، وافتتح الحملة:

ـ «لا. هاتزل في حالٍ حسنة. إنه وهيوغي يخوضان معركة جهنّميّة. لقد انقضى على بدء هذه المعركة أسبوع، ولا تزال مستمرة.»

وضحك ماك ضحكة مكتومة ثم أردف:

ـ «والطريف أنّ المعركة تدور حول شيء لا يعرف أحدٌ منهما شيئًا عنه. ولقد بقيتُ خارجَ نطاقها لأني لا أعرف شيئًا عنها أيضًا، ولكن ليس عنهما.»

فسأله دوك:

ـ «وعلامَ هذه المعركة كلّها؟»

فقال ماك:

ـ «حسنًا، يا سيدي، إنّ هاتزل يشتري طولَ النهار هذه الجداول ويبحث عن أيام السعد وعن النجوم وما أشبه. ويقول هيوغي إنها كلَّها حزمةٌ من الدجل والبهتان. فيردّ عليه إيدي قائلًا: إذا عرفتَ ميلاد إنسان استطعتَ

أن تعرف أحواله. ولكن هيوغي لا يقتنع ويقول إن هاتزل ينفق المال على شيء لا يفيد دافعًا خمسة وعشرين سنتًا ثمنًا لكلّ جدول من تلك الجداول. أمّا أنا فلستُ أعرف شيئًا عن ذلك. فما رأيك أنت يا دوك؟»

فقال دوك:

ـ «أنا مع هيوغي في ما ذهب إليه.»

وهنا أوقف الطاحونة الكُرِيّة، وغسل محقنة الألوان، وملأها بالمستحضر الأزرق.

فقال ماك:

ـ «لقد احتدمَت المعركة تلك الليلة أيضًا. وسألاني متى وُلدت فقلت في 12 نيسان. فمضى هاتزل واشترى جدولًا من تلك الجداول وبحث فيها عن أحوالي. حسنًا، لقد بدا لي أنّ الجدول أصاب في بعض المواضع. ولكنّ كلّ شيء كان جيّدًا تقريبًا، والشخص يميل إلى أن يصدّق الأشياء الجيّدة عن نفسه. لقد قال إني شجاع، ذكيّ، عطوف على أصدقائي. ولكن هاتزل يقول إن الأمر كلَّه صحيح. متى يقع عيد ميلادك، يا دوك؟»

لقد بدا السؤال، بعد هذه المناقشة كلِّها، شيئًا طارئًا. ولكن ينبغي أن يُذكر أنّ دوك عرفَ ماك فترةً طويلة من الزمان. ولو أنه لم يفعل إذن لكان جديرًا بأن يقول «18 كانون الأول» الذي هو تاريخ ميلاده ـ بدلًا من « 27 تشرين الأول» الذي لم يكن تاريخ ميلاده. وهكذا أجابه:

ـ «27 تشرين الأول. إسأل هاتزل ما الذي ينكشف له من أحوالي.»

فقال ماك:

ـ «لعلّها محشوّة بالكذب والبهتان. ولكن هاتزل يؤمن بها جديًّا. سوف أساله أن يستطلع وَضْعَك، يا دوك.»

حتى إذا غادر ماك المختبر تساءل دوك عمّا يكمن وراء هذا كلِّه. ذلك أنه أدرك أنّ في الأمر خدعة. فهو يعرف أسلوب ماك وطريقته. وهو يتساءل فيمَ سيُفيد ماك من هذا الجواب. ولم يحلّ دوك مَغالق القضية كلَّها إلا عندما تسامع ببعض الإشاعات السائرة بين الناس. وعندئذٍ تنفّس الصعداء بعضَ الشيء، ذلك لأنه حسب بادئ الأمر أنّ ماك كان يريد أن يسأله بعضَ المال.

- 26 -

ظلّ الغلامان الصغيران يلعبان في الفِناء الخاصّ ببناء السفن حتى تسوّرت قطةٌ السياج. وعندئذٍ سارعا إلى مطاردتها عبر الخط الحديدي، وهناك التقطا الحجارة الغرانيتية من مِهادِ السكة وملآ جيوبهما بها. واختفت القطة عن ناظريهما وسط الأعشاب الطويلة، ولكنهما احتفظا بالحجارة لأنها كانت صالحة للقذف، كاملة الوزن والشكل والحجم. فأنت، بعدُ، لست تدري أبدًا متى تحوجك المناسبة إلى حجر مثل هذه. ثم إنهما انعطفا هابطيْن نحو شارع السردين المعلّب، ورميا حجرًا على مدخل «مصنع التعليب الحديث» المنشأ من صفائح حديدية متغضّنة. فأطلّ رجلٌ منذهلٌ من نافذة المكتب واندفع نحو الباب، ولكنّ الغلامين كانا أسرع من أن يلحق بهما. فلم يكد يبلغ الباب حتى كانا قد اضطجعا خلف ناظمٍ خشبيّ في قطعة الأرض المجاورة. وما كان له أن يعثر عليهما ولو فتّش طَوالَ مئة عام.

وقال جوي:

ـ «أراهن على أنه لو بحث عنا طولَ عمره لما استطاع أن يجدنا.»

وملّا الاختباء، بعد فترة، وليس من يفتّش عنهما. فنهضا وتقدّما نحو شارع السردين المعلّب. ووقفا برهةً طويلة يتأملان واجهة دكان «لي تشونغ»،

واشتهيا الكلّابات، والمناشير القاطعة للمعادن، وقبّعات المهندسين، والموز. ثم اجتازا الشارع وقعدا على الدرجة السفلى من السُّلَّم المؤدّية إلى الدور الثاني من المختبر.

وقال جوي:

ـ «أتدري؟ هذا الرجل عنده أطفال صغار في زجاجات؟»

فسأله ويلارد:

ـ «أيّ نوع من الأطفال؟»

ـ «أطفال عاديّون، ولكن قبل ولادتهم.»

فقال ويلارد:

ـ «لست أصدّق ذلك.»

ـ «سواءٌ أصدَّقت أم لم تصدِّق فإنّ ما أقولُه صحيح. لقد رآهم «سبراغ» الصغير، وقال إنهم ليسوا أكبر من هذا، وإنّ لهم أيديًا صغيرة وأرجلًا وعيونًا.»

فتساءل ويلارد:

ـ «حسنًا، إنّ «سبراغ» الصغير لم يقل شيئًا عن الشَّعر.»

ـ «كان ينبغي أن تسألَه. أنا أعتقد أنه كذاب.»

فقال جوي:

ـ «من الأفضل أن لا تدعه يسمعك تقول هذا الكلام.»

ـ «حسنًا، في استطاعتك أن تخبره أني قلت ذلك. أنا لست خائفًا منه، ولستُ خائفًا منك. أنا لست خائفًا من أحد. أتريد أن تقاتل؟»

ولم يُجب جوي بشيء. فأعاد ويلارد سؤاله:

ـ «حسنًا، أتريد؟»

فقال جوي:

ـ «لا. كنت أفكّر لماذا لا نصعد ونسأل الرجل هل صحيح أنّ عنده أطفالًا في زجاجات؟ لعلّه يرينا إيّاهم ـ أقصد إذا كان عنده شيء من ذلك فعلًا.»

فقال ويلارد:

ـ «هو ليس هنا. إنه حين يكون هنا تكون سيارته هنا أيضًا. لقد ذهب إلى مكان ما. وأحسب أنها كذبة. أحسب أنّ «سبراغ» الصغير كذاب. بل أحسب أنك أنت كذاب. أتريد أن تقاتل؟»

كان نهارًا كسولًا. وكان على ويلارد أن يبذل جهدًا شاقًّا لإثارة رفيقه. فقال:

ـ «وأعتقد أنك جبان أيضًا. هل تريد أن تقاتل من أجل هذه الكلمة؟»

ولم يُجب جوي أيضًا. فغيّر ويلارد تكتيكه، وسأله في لهجة تحديثية:

ـ «أين أبوك الآن؟»

ـ «مات.»

ـ «أوه صحيح؟ لم أسمع بذلك. من أيّ شيء مات؟»

وصمت جوي لحظة. كان يعرف أنّ ويلارد يعرف، ولكنه لم يكن في مَيْسوره أن يتظاهر بهذا من غير أن يخوض معركة مع ويلارد. وكان جوي يهاب ويلارد ويخشاه.

وأخيرًا قال جوي:

ـ «لقد قتَلَ... نفسه.»

فقطَّب ويلارد جبينه وقال:

ـ «ياه؟ وكيف فعل ذلك؟»

ـ «لقد أخذ سمَّ الفار.»

فقهقه ويلارد وقال:

ـ «وما ظنّ نفسه ـ فأرة؟»

وضحك جوي للنكتة ضحكة صغيرة ـ أجل ضحكة صغيرةً ليس غير.

و صاح ويلارد:

ـ «لا بدّ أنه ظنّ نفسَه فأرة. هل راح يدبّ هكذا ـ أُنظرْ جوي ـ هكذا؟ هل جعّد أنفه هكذا؟ هل كان له ذَنَبٌ كبير طويل؟»

وضحك ويلارد ضحكًا مجلجلًا، ثم أردف:

ـ «ولكن لماذا لم يأتِ بمصيدة فيران ويضع رأسه فيها؟»

وضحكا معًا لهذه النكتة. ثم إنّ ويلارد التمس نكتة أخرى فقال:

ـ «كيف بدت هيئته عندما أخذ السمّ ـ هكذا؟» وحَوَلَ عينيه، وفتح فمه، وأخرج لسانه.

وقال جوي:

ـ «كان ـ مريضًا طولَ النهار. إنه لم يمت إلا عند منتصف الليل. لقد آذاه السمُّ كثيرًا.»

فقال ويلارد:

ـ «ولماذا فعل ذلك؟»

ـ «لقد بحث عن عمل فلم يجد. وهكذا ظلّ سنةً تقريبًا عاطلاً عن العمل. هل تصدّق هذا الشيء المضحك إذا قلتُه لك؟ لقد جاءه في اليوم التالي رجلٌ يعرض عليه عملًا!»

وحاول ويلارد أن يضبط نكتته، ثم قال:

ـ «أظنّ أنه أدرك آخِرَ الأمر أنه فأرة.»

ولكنها أخفقت، فلم يضحك لها حتى ويلارد نفسه.

ونهض جوي، ووضع يديه في جيبيه. لقد رأى بريقًا نحاسيًّا صغيرًا في البالوعة، فتقدّم نحوه. ولكنه لم يكد يبلغه حتى دفعه ويلارد جانبًا والتقط البنس. فقال جوي:

ـ «لقد رأيتُه قبلك!... إنه لي!...»

فقال ويلارد:

ـ «أتريد أن تجرّب وتقاتل من أجله؟ لماذا لا تذهب وتأخذ شيئًا من سمّ الفار؟»

- 27 -

كان ماك والغلمان هم الفضائل وهم مُنْطَلَقُ السعادة والجمال. كانوا ينزلون في «قصر فلوبهاوس»، وكانوا بمثابة الحجر أُلقي به في البركة، والمحرِّك الذي يُطلق مويجاته إلى شارع السردين المعلّب كلِّه وما وراءه، إلى أيكة الباسيفيك، إلى مونتيري، بل عَبْرَ الكثيب إلى «كارميل».

وقال ماك:

ـ «هذه المرّة ينبغي أن نتأكد من أنه سوف يحضر السهرة. إذا لم يأتِ إلى هناك فلن نحييها.»

فسأله جونز:

ـ «أين سنحييها هذه المرة؟»

فارتدّ ماك بكرسيّه نحو الجدار وأسند ظهر الكرسيّ إليه، ثم عقفَ رجلَيْه حول قائمتَيْه الأماميّتَيْن، وقال:

ـ «سوف أفكّر في هذا كثيرًا. في استطاعتنا طبعًا أن نقيم السهرة هنا. ولكن من العسير علينا جدًّا أن نفاجئه بها هنا. ودوك يحبّ بيته كثيرًا. إنّ عنده هناك أسطواناته الموسيقية.»

وزوى ماك ما بين عينيه وأجال بصره في الغرفة. ثم أضاف:

ـ «لست أدري مَن الذي كسر فونوغرافه في المرة الأخيرة. ولكن إذا حاول أحد أن يضع إصبعه عليه هذه المرة فسوف أرفس الجحيم وأُخرجُها من جِلده!»

فقال هيوغي:

ـ «يُخيَّل إليّ أنّ علينا أن نحيِيَها في بيته.»

ولم يُحَطِ الناسُ علْمًا بالسهرة ـ لقد نمتْ معرفتُهم بها نموًّا وئيدًا في ذات أنفسهم. ولم يُدْعَ إليها أحد، ولكن كلّ امرئ كان ينوي أن يَشهَدَها. وطُوِّق يوم السابع والعشرين من تشرين الأول بدائرة ذهنيّة حمراء. وإذْ كانت السهرة مُقامةً لمناسبة عيد ميلاد الرجل فقد فكّر كلٌّ منهم في ما ينبغي أن يختار من هدية.

خذ البنات العاملات في بيت دورا مثلًا. لقد ذهبت كلٌّ منهنّ، في وقتٍ من الأوقات، إلى المختبر تلتمس وصيةً أو دواءً، أو صحبةً لا صلة بها بالحرفة على الإطلاق. ولقد رأين إلى فراش دوك. كانت تعلوه بطّانيّة حمراء قديمة ناصلة اللون ملأى بعشب «ذَنَب الثعلب» والحجارة الصوّانية والرمل، ذلك بأنه كان يصحبها في رحلاته البحرية كلِّها. وكان إذا ما اجتمع لديه شيء من مال اشترى به بعضَ المُعدَّات الضروريّة للمختبر. ولم يخطر له قَطّ أن يشتريَ بطّانيّة جديدة لفراشه. وكانت بنات دورا يصنعنَ دِثارًا مؤلّفًا من قُماش موصَّل مختلفِ ألوانُه ـ دِثارًا حريريًّا جميلًا. وإذْ كانت كثرة تلك القطع الحريرية منتزعةً من الثياب التحتيّة ومن ثياب السهرة، فقد ازدهى الدثار بسيورٍ لامعة بيضاء قرنفلية، وأرجوانية، وصفراء شاحبة، وحمراء فاتحة. لقد انصرفن إلى صنعه في ساعات الصباح الأولى وفي الآصال قبل أن يَفِدَ عليهنّ الغلمان من أسطول صيد السردين. وفي ظلٍّ وارف من العمل

المشترك تلاشت بالكلّيّة تلك المشاجرات وضروب الحسد والبغضاء التي تَعْمُرُ بيوت الدعارة دائمًا.

وخرج «لي تشونغ» وتفحّص كمّيّةً من المفرقعات الناريّة وكيسًا كبيرًا من بُصَيْلات الزنبق الصينيّ. فقد كانت هذه ـ بالنسبة إلى طريقة تفكيره ـ أحسن ما يستطيع حمْلَه إلى حفلةٍ من الحفلات.

وكانت لسام مالوي نظريّات في العاديات(*). كان يعرف أنّ العتيق من الأثاث والزجاج والخزف الذي لم يكن نفيسًا جدًّا في زمانه غدت له على مَرِّ الأيام قيمة مالية، وأضحى الناس يتنافسون في اقتنائه تنافسًا لا يتفق بحالٍ من الأحوال مع جماله أو مقدار الحاجة إليه. وكان يعرف أنّ كرسيًّا من الكراسي بيع بخمسمئة دولار. ومن هنا جمع سام قِطَعًا من سيّارات تاريخية، واقتنع أحسن الاقتناع بأنّ مجموعته سوف تتربع، بعد أن تجعله غنيًّا جدًّا، على المخمل الأسود في عدد من أشهر المتاحف. والواقع أنّ سام أَوْلى أمر السهرة قدرًا صالحًا من التفكير، ثم مضى إلى كنوزه التي كان يحفظها في صندوق مقفل ضخم قائم خلف المِرجَل. واعتزم أن يقدّم إلى دوك إحدى قطعه البالغة الروعة والنفاسة ـ قضيب ربطٍ ومكباس من سيارة من طراز «تشالميرز 1916». ثم إنه فرك هذه التحفة الجميلة وصقلها حتى التمعت مثلَ سلاح عتيق. وصنع لها صندوقًا صغيرًا ولفّها بقطعة من الجوخ الأسود.

وفكّر ماك والغلمان في المشكلة تفكيرًا كثيرًا، فانتهوا إلى أنّ دوك كان أبدًا في حاجة إلى قطط، وأنه كان يلقى مشقةً في الحصول على ما يبتغي منها. فجاء ماك بقفصه المزدوج. واستعار الغلمانُ قطّةً في حال مشوِّقة، ونصبوا شَرَكهم تحت شجرة السرو القائمة عند قمة الأرض الخالية. وفي

(*) النفائس الأثرية.

زاوية «القصر» أنشأوا قفصًا من أسلاك. وأخذوا يُلقون فيه صيدهم من ذكور القطط، فإذا بتلك المجموعة المُغضَبة الهائجة تتعاظم ليلةً بعد ليلة. وكان على جونز أن يرحل مرتين في اليوم إلى مصانع التعليب التماسًا لرؤوس السمك التي كان الغلمان يغذّون بها صيْدهم ذاك. واعتبرَ ماك مُوَفَّقًا أنّ خمسة وعشرين هرًّا تشكّل، بالنسبة إلى إمكانيّات الغلمان، هدية حسنة تُرفع إلى دوك في عيد ميلاده. ثم إنه قال:

ـ «لا زينات أو زخارف هذه المرة. ولكن مجرّد سهرة مكينة جيّدة مع كثير من الشراب.»

وتسامع غاي بحديث السهرة وهو في محبسه هناك بساليناس، فاتفق مع ناظر السجن على أن يسمح له بالخروج تلك الليلة، واستعار منه دولارين ليشتريَ بهما بطاقة ذهاب وإياب في الأوتوبوس. والحقّ أنّ غاي كان لطيفًا جدًّا مع ناظر السجن، وهو رجل ما كان لِينسى ذلك، خاصّةً وأنّ الانتخابات أمست على الأبواب، وأنّ في استطاعة غاي ـ أو هكذا قال هو ـ أن يجمع له أصواتًا كثيرة. وإلى ذلك كلِّه، فقد كان في مَيْسور غاي أن يشوّه سمعة سجن ساليناس لو شاء.

وكان هنري قد قرر، فجاءةً، أنّ حشيّة الدبابيس العتيقة كانت شكلًا فنّيًّا ازدهر وبلغ أوْجَه في العقد الأخير من القرن الماضي، ثم أُهمِل واطُّرِح منذ ذلك الحين، واعتزم أن يُحيِيَ ذلك الشكل من جديد، مبتهجًا بأن يرى ما الذي يمكن أن يُصنع بالدبابيس الملوّنة. ولم تُستكمَل الصورة قَطّ ـ كان في استطاعتك أن تغيّرها بترتيب الدبابيس في أوضاع جديدة. وكان يُعِدّ مجموعةً من هذه القطع لمعرضٍ يشهده رجل واحد عندما جاءه نبأ الحفلة الساهرة، فما كان منه إلا أن هجر عمله وأنشأ يصنع لدوك حشيَّة دبابيس ضخمة. وقد أرادها أن تمثّل رسمًا غامضًا مثيرًا بدبابيس خضراء وصفراء

وزرقاء ـ ألوان كلّها هادئ بارد، وأن يجعل اسمها «ذكرى العهد الجيولوجي قبل الكامبريّ.»

أمّا إريك صديق هنري ـ وكان حلاّقًا مثقفًا يجمع الطبعات الأولى من آثار المؤلفين الذين لم تُطبَع كتبُهم طبعةً جديدة أو لم يَنْشُروا في الناس كتابًا ثانيًا ـ فقد اعتزم أن يُهدِيَ دوك آلة تمرين رياضيّة حصل عليها، يومَ أفلسَ أحدُ الزبائن، لقاء ديونٍ له عليه تراكمت طَوالَ ثلاثٍ من السنين. وكانت آلة التمرين تلك في حالٍ ممتازة. إنّ أحَدًا لم يتمرن بها كثيرًا. بل إنّ أحدًا لا يستعمل آلة للتمرين.

واتسعت «المؤامرة»، وتكاثرت الزيارات ههنا وههناك، واحتدم النقاش حول الهدايا، وصنوف الشراب، وحول موعد البدء، وضرورة التحفّظ وعدم إخبار دوك بشيء.

ولم يعرف دوك متى شعر، أوّلَ ما شعر، بأنّ شيئًا يهمّه شخصيًّا كان يُعَدّ ويُهيّأ. ففي دكان «لي تشونغ» كانت الأحاديث تنقطع حالَ دخوله. ولقد بدا له، بادئ الأمر، أنّ الناس يقفون منه موقفًا باردًا، حتى إذا سألَتْهُ نصفُ دزينة من الناس ـ على الأقلّ ـ ما الذي سيعمَلُه في 27 تشرين الأول أخذه عجبٌ ذاهلٌ، ذلك بأنه نسِيَ ما سلَفَ منه حين قال لماك إنّ عيد ميلاده يقع في ذلك اليوم. والواقع أنه كان راغبًا في استطلاع سُعوده ونحوسه من خلال تاريخ ميلادٍ كاذب. ولكن ماك لم يُشِر إلى ذلك كَرَّةً ثانية، فنسي دوك المسألة بالكلّيّة.

وذات مساء عرّج دوك على «حانة هافواي» ـ وكان يؤثرها لجعتها الجيّدة المحفوظة في جوٍّ حراريٍّ ملائم. حتى إذا كرع كأسه الأولى واستقرّ على كرسيّ ليستمتع بالثانية سمع سكّيرًا يتحدث إلى رجل المَشرب ويقول:

ـ «أذاهبٌ أنت إلى الحفلة؟»

ـ «أيّ حفلة؟»

فأجابه السكّير في ثقة:

ـ «حسنًا، أنت تعرف دوك، هناك في شارع السردين المعلّب.»

ورفع رجل البار بصره إلى أعلى المَشرب ثم أداره إلى الوراء.

وأردف السكّير:

ـ «حسنًا، إنهم سيُقيمون له حفلة هائلة في عيد ميلاده.»

ـ «مَنْ هم؟»

ـ « كلُّ إنسان.»

وقلّب دوك هذا كلَّه في ذهنه. إنه لم يعرف السكّير قَطّ.

ولم يكن أثر الفكرة في نفسه سهلًا. لقد استشعر حماسة قويّة ومشاركة وُجدانية بالغة لأنهم أرادوا تكريمه، ولكنه ارتجف داخليًّا ـ في الوقت نفسه ـ وقد ذكر الحفلة الأخيرة التي أقاموها على شرفه.

وهكذا اتّضح الآن كلُّ شيء وتفسّر كلُّ شيء ـ سؤال ماك، والكتمان الذي كان يُصطنَع حيثما ذهب. وتلك الليلة فكّر دوك في ذلك تفكيرًا طويلًا، وهو جالس إلى جانب مكتبه. وأجال بصره في ما حوله، وراح يسائل نفسه أيّ الأشياء ينبغي أن يُقفَل عليها. لقد أدرك أنّ الحفلة سوف تكلّفه غاليًا.

وفي اليوم التالي شرع يتخذ أُهبته الخاصة للحفلة. فنقل خير تسجيلاته الموسيقية إلى الغرفة الخلفيّة حيث يكون في مَيْسوره إغلاق الباب دونها. كما نقل جميع الأدوات القابلة للكسر إلى تلك الغرفة أيضًا. لقد عرف أيّ مجرًى ستتخذه السهرة: إنّ ضيوفه سوف يكونون جوْعى، وإنهم لن يحملوا معهم شيئًا يأكلونه. إنهم سيستنفدون الشراب في ساعة مبكرة. وفي شيء

من الكَلال مضى إلى «سوق الاقتصاد» حيث كان جزّار طيّبٌ حسن الفهم. وتناقشا حول اللحم فترةً من زمان، وأخيرًا اشترى دوك خمسة عشر رطلًا من شرائح البقر، وعشرة أرطال من الطماطم، واثنتي عشرة خسّة، وستة أرغفة من الخبز، ومرطبانًا كبيرًا من زبدة فستق العبيد، وآخَر من مربّى الفريز، وخمسة غالونات من الخمر، وأربع زجاجات من ويسكي جيّدة قويّة ولكنها غير ممتازة جدًّا. لقد أدرك أنه سيلاقي متاعب مع المصرف أول الشهر. وقال في ذات نفسه إن ثلاث حفلات من هذا الطراز، أو أربعًا، خليقة بأن تُفقده المختبر.

وفي الوقت نفسه كانت حُمّى الاستعداد، في شارع السردين المعلّب، قد استفحلت شيئًا بعد شيء. وكان دوك مصيبًا، فإنّ أحدًا من الناس لم يفكّر في الطعام، ولكنّ كثيرًا من زجاجات الشراب ادُّخِرت لتلك الليلة الموعودة. كانت مجموعة الهدايا تتعاظم وتتضخم، وكانت لائحة الضيوف ـ إذا كان ثَمَّةَ لائحة ـ تشبه بعض الشيء جداول إحصاء النفوس. وفي الـ «بير فلاغ» كان النقاش يحتدم أبدًا حول الملابس التي يَحسن بالبنات أن يرتدينها. وإذْ كنّ سيتحرَّرن من العمل تلك الليلة، فقد رغبنَ عن ارتداء الثياب الجميلة الطويلة التي كانت لباسَهنّ الرسمي، وقرّرن أن يرتدين ثياب الطريق. ولكنّ ذلك لم يكن سهلًا كما قد يبدو. فقد أصرّت دورا على أن يظلّ فريق منهن في البيت لكي يَقُمْن بواجب العناية بالنظاميّين من الزبائن. وهكذا قسمنَ أنفسهنّ إلى فوجين، يذهب أحدُهما إلى الحفلة، ويلازم الآخرُ البيت، إلى أن يعود الفريق الأول. وكان عليهنّ أن يقرّرن أيّهنّ سوف يذهبن إلى الحفلة أولًا. ذلك بأن أعضاء الفريق الأول سوف يَرَيْنَ إلى وجه دوك عند تقديم غطاء الفراش الجميل إليه. لقد وضعنه ضمن إطار في غرفة الطعام، وكان مُنْجَزًا تقريبًا. وأزاحت مسز مالوي غطاء فراشها المزركش جانبًا، فترةً من زمان. وكانت قد انصرفت إلى تطريز ستة مناديل لكؤوس الجعة ابتغاء

إهدائها إلى دوك. لقد زايلَ الاهتياج الأول شارع السردين، الآن، وحلّ محلّه تشوّقٌ متراكم بالغٌ الغاية. كان ثَمَّةَ خمسة عشر هرًّا في القفص القائم في «قصر فلوبهاوس»، وكان مُواؤها يورِث ماك شيئًا من العصبية في مَوْهِنٍ من الليل.

- 28 -

كان لا بدّ لفرانكي من أن يتسامع بخبر السهرة عاجلًا أو آجلًا. ذلك بأنّ فرانكي كان ينساب في الشارع مثل سحابة صغيرة. كان أبدًا في ذيل كلّ جماعة أو جَمهرة من الناس. ولم يكن أحد لِيلاحظَه أو يُلقي بالًا إليه. وما كان في مَيْسورك أن تحزر أيسمع الحديث حقًّا أم لا. ولكنّ فرانكي تسامع بنبأ السهرة، وبحديث الهدايا، فغلب عليه شعور بالامتلاء، وتوقٌ مريض.

وفي واجهة العرض بمحلّ جاكوبز الجواهري كان أجمل شيء في الوجود. كان هناك منذ زمن طويل، وكان ساعةً سوداء من حجر الجزع ذات وجه ذهبيّ، ولكنّ الجمال الحقيقيّ كان في أعلاها. ذلك أنه كان عند قمّتها تمثال من البرونز ـ القديس جورج يفتك بالتنّين. وكان التنّين منطرحًا على ظهره وقد أنشب براثنه في الهواء، وغُيِّبَ في صدره رمح القديس جورج. وكان القديس يرتدي درعًا كاملة، وقد رفع قناع خوذته، وكان يمتطي صهوة جواد بدين ضخم العَجُز. لقد سمّر التنينَ برمحه في الأرض. ولكنّ أروع ما في التمثال أنّ القديس كان ذا لحية مستدقّة، وكان يشبه دوك بعض الشيء.

وكان فرانكي يمضي إلى «آلفارادو ستريت» عدّة مرات في الأسبوع الواحد لكي يقف أمام واجهة العرض ويكحّل طَرْفه برؤية تلك التحفة

الرائعة. بل لقد حلم بها أيضًا، حلمَ بأنه يُمِرّ أصابعه على برونزها النفيس الناعم. وكانت أشهرٌ عديدة قد انقضت على اكتشافه إياها عندما جاءه نبأ السهرة والهدايا.

ووقف فرانكي ساعةً في الطريق المعبّد قبل أن يَلِج المحلّ، حتى إذا رآه مستر جاكوبز داخلًا نقّل بصره فيه فتبدّى له أنّ الغلام لا يحمل على كتفيه ما قيمته خمسة وسبعون سنتًا، ثم قال:

ـ «نعم؟»

فسأله فرانكي في صوت أجشّ:

ـ «بكم هذه؟»

ـ «أيّها؟»

ـ «هذه.»

ـ «أنت تعني الساعة؟ خمسون دولارًا ـ ومع التمثال خمسة وسبعون دولارًا.»

وغادر فرانكي المحلّ من غير أن يجيب. وقصد إلى الساحل الرمليّ حيث دبّ تحت زورق شراعيّ مقلوب رأسًا على عقب، وراح يسترق النظر إلى الأمواج الصغيرة. كانت التحفة البرونزية تستغرق ذهنه إلى درجة بدت معها وكأنها ماثلة أمام ناظرَيْه. واستحوذ عليه إحساس مسعور. إنّ عليه أن يفوز بهذه التحفة. ومارت عيناه بالضراوة حين فكّر في ذلك.

ومكث النهارَ كلَّه تحت الزورق، حتى إذا هبط الليل انسلّ من مَجْثَمه وعاد أدراجَه إلى «آلفارادو ستريت». وفيما كان الناس يقصدون إلى دور السينما ويخرجون منها إلى «الخشخاش الذهبي»، أخذ يذرع الشارع جيئةً

وذَهوبًا، غير شاعرٍ بشيء من التعب أو النعاس لأنّ التحفة الجميلة كانت تضطرم في ذات نفسه مثلَ نارٍ موقدة.

وأخيرًا قلّت الأرجل في الشارع ثم اختفت شيئًا بعد شيء، وغادرت السيارات مواقفها، واستعدّت البلدة للرقاد.

وأنعم شرطيٌّ النظر في فرانكي، ثم سأله:

ـ «ماذا تفعل هنا؟»

فولّى فرانكي فِرارًا، وانعطف حول الزاوية ليختبئ خلف برميلٍ قائمٍ في المجاز الضيّق. وعند الساعة الثانية والنصف زحف إلى محلّ جاكوبز فإذا هو موصَد. وعندئذٍ انقلب فرانكي إلى المجاز الضيّق، وقعد خلف البرميل وأنشأ يفكّر. لقد رأى إلى جانب البرميل قطعة من الإسمنت مكسورة فالتقطها.

وأبلِغ الشرطيُّ أنه سُمع أصداء تحطيم، فهرع إلى مصدره. كانت واجهة جاكوبز قد كُسِرت، وكان المقبوض عليه يعدو هاربًا، فطارده وهو لا يدري كيف استطاع ذلك الغلام أن يركض هذه المسافة كلَّها، وفي مثل هذه السرعة، وهو يحمل ساعة وتمثالًا يَزِنان خمسين رطلًا. ومع ذلك فقد كاد ينجو بنفسه. ولولا أن اعترض سبيله شارع لا منفذ له إذن لَوُفِّق إلى النجاة فعلًا.

وفي اليوم التالي استدعى مفوَّض الشرطة دوك وقال له:

ـ «تفضّل. أنا أريد أن أتحدث إليك.»

واستاقوا فرانكي في حالٍ بائسة من القذارة والنتانة. كانت عيناه حمراوين، ولكنه لم يفتح فمه قَطّ ولم يتشكَّ أو يتوجّع. بل إنه ما كاد يرى إلى دوك حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة ترحيبًا به.

وسأله دوك:

ـ «ما المسألة، فرانكي؟»

فقال المفوّض:

ـ «لقد اقتحم محلّ جاكوبز الليلةَ البارحة وسرق بعض البضاعة. لقد اتصلنا بأمه فقالت إنها ليست خطيئتها لأنه يختلف إلى مختبرك كلَّ يوم.»

فقال دوك:

ـ «فرانكي، كان ينبغي أن لا تفعل شيئًا مثلَ هذا!»

واستشعر أنّ حجر المسؤوليّة يُثقل فؤاده، فالتفت إلى المفوّض وسأله:

ـ «ألا تستطيع أن تُطلِقَ سَراحَه على عُهدتي؟»

فقال المفوّض:

ـ «لست أظنّ أنّ القاضي يُقِرّ ذلك. إنّ عندنا تقريرًا عقليًّا. هل تعرف العلّة التي يشكو منها؟»

فقال دوك:

ـ «أجل، أعرف.»

ـ «وتعرف ما يُحتمل أن يقع له عندما ينتهي إلى سنّ البلوغ؟»

فقال دوك:

ـ «أجل، أعرف.»

وتعاظم ثِقلُ الحجر على قلبه تعاظمًا مروِّعًا.

ـ «يرى الطبيب أنّ من الخير أن نتخلّص منه. ولم يكن في مَيْسورنا أن نفعلَ ذلك من قبل. أمّا الآن وقد ارتكب هذه الجريمة الفظيعة فمن الخير لنا أن نفعل.»

وفيما كان فرانكي يستمع إلى هذا الحديث مات الترحيب في عينيه.

وسأل دوك:

ـ «وما الذي أخذه؟»

ـ «ساعة كبيرة ثمينة، وتمثال من البرونز.»

ـ «سوف أدفع ثمنهما.»

ـ «أوه لقد استرجعناهما. ولست أظنّ أنّ القاضي يوافق على ذلك. إنه سوف يعود إلى مثلها مرةً ثانية. أنت تعرف ذلك.»

فقال دوك في لين:

ـ «أجل، أنا أعرف ذلك. ولكن لعلّ له عذرًا.»

ثم التفت إلى الغلام وسأله:

ـ «فرانكي، لماذا أخذتَ الساعة؟»

فحدّق فرانكي إلى وجهه برهةً غيرَ قصيرة، ثم قال:

ـ «أنا أحبك.»

وانطلق دوك، فامتطى سيارته ومضى ليجمع بعض الحيوانات البحرية في الكهوف القائمة تحت «بورت لوبوس».

- 29 -

في الساعة الرابعة من اليوم السابع والعشرين من تشرين الأول أنجز دوك وضع مجموعة من السمك الهلامي (قنديل البحر) في قوارير خاصة. فغسل إبريق الفورمالين، ونظّف كَلاليبه، ورش الذَّرورَ على قفّازَيْه المطّاطيّين ونزعهما من يديه. ثم إنه ارتقى السُّلَّم، وأطعم الفئران، ونقل مجاهره وعددًا من أحسن أسطواناته إلى الغرفة الخلفية، وأوصد الباب عليها. وكان بعض الضيوف البارزين يرغب أحيانًا في اللعب مع الأفاعي المجلجلة. ومن طريق النفاذ بثاقب النظر إلى مختلف الاحتمالات، واتخاذ ضروب الاستعدادات رجا دوك أن يجعل تلك الحفلة أقلّ ما تكون أذًى وخطرًا من غير أن يتطرّق إليها البرود والجفاف.

وأعدّ ركوة القهوة، ووضع قطعة «الفيوغ الكبير» على الفونوغراف. ودخل الحمّام ليغتسل. ثم إنه خرج وارتدى ملابس نظيفة مصطنعًا في ذلك كلِّه سرعةً بالغة ساعدَتْه على أن يفرغ لتناول فنجان قهوته قبل أن تستتمّ القطعة الموسيقية.

وتطلّع من خلال النافذة إلى الأرض الخالية، ورفع بصره إلى «القصر»، ولكنه لم يرَ إنسانًا يتحرك. والواقع أنّ دوك لم يعلم مَن سيشهد حفلته أو

عدد الذين سيشهدونها ولكنه علم أنه موضع المراقبة، فقد كان واعيًا ذلك طَوالَ النهار. صحيح أنه لم يرَ أحدًا ولكنّ واحدًا من الناس، أو جمهرة منهم، كان لا يفتأ يُتبِعه بصرَه. وإذن فسوف تكون السهرة من النوع المفاجئ. وإذن فلا بأس في أن يفاجَأ. إنه سوف يلزم روتينه المعتاد، وكأنّ شيئًا ما كان يحدث. وهكذا قصد إلى دكان «لي» واشترى زجاجَتي جعة. ولقد بدا له أنّ ثَمَّةَ اهتياجًا شرقيًا مكبوتًا في دكان «لي» ذاك، فأدرك أنّ القوم سيشهدون الحفلة أيضًا. وانقلب دوك إلى المختبر وصبّ شيئًا من الجعة في كأسه. وكرع الكأس الأولى إطفاءً لظمأه، ثم كرع الثانية اختبارًا لمذاقها. وكان الشارع مهجورًا ما يزال. وكذلك قطعة الأرض الخالية.

كان ماك والغلمان في «القصر»، وكان الباب موصدًا. لقد هدر المَوْقِدُ طَوالَ ساعات الأصيل، مسخِّنًا الماء للاغتسال. حتى دارلنغ أُعطِيَت حمّامًا وأُلبِستْ طَوْقًا أحمر حول عنقها.

وتساءل هاتزل:

ـ «متى تظنّ أنّ علينا أن نذهب؟»

فقال ماك:

ـ «لست أظنّ أننا سنذهب قبل الساعة الثامنة. ولكني لا أرى ما يحول دون أخذنا قدحًا صغيرًا لكي ندفّئ قلوبنا.»

فقال هيوغي:

ـ «وما رأيكم في إدخال الدفء على قلب دوك؟ لعلّ من الخير أن أحمل إليه زجاجةً مثل هذه.»

فقال ماك:

ـ «لا. لقد قصد دوك الآن إلى دكان «لي» واشترى شيئًا من البيرة.»

فسأله جونز:

ـ «أتظنّ أنه فهم شيئًا؟»

فقال ماك:

ـ «وكيف يستطيع؟»

وفي القفص الموضوع في الزاوية، استهلّ هرّان مناقشةً حادّة. وعلّق سكّان القفص كلُّهم على المناقشة بضروبٍ من المُواء وبظهور متقوّسة. لقد كان ثَمَّةَ واحد وعشرون هرًّا ليس غير، بعد أن عجز الغلمان عن الحصول على العدد الذي كانوا يبتغون.

وتساءل هاتزل:

ـ «لست أدري كيف سنحمل هذه القطط إلى هناك. نحن لا نستطيع أن نُمِرّ هذا القفص الضخم من خلال الباب.»

فقال ماك:

ـ «لا، لن نفعل. أذكروا ماذا حصل للضفادع. لا. سوف نكتفي بأن نُخبر دوك عنها. وفي استطاعته أنْ يأتيَ إلى هنا ويأخذها.»

ونهض ماك وفتح أحد أباريق إيدي الخمريّة، وقال:

ـ «في استطاعتنا أن ندفّئ قلوبنا قليلًا.»

وعند الساعة الخامسة والنصف هبط الصينيّ العجوز الكئيب، مارًّا بالقصر، مطقطِقًا بقدميه. ثم إنه جاز قطعةَ الأرض الخالية، وجاز الشارع، وغاب عن الأبصار بين المختبر البيولوجي ومصنع هيديوندو.

وفي الـ «بير فلاغ» كانت البنات يتأهبن للذهاب. وكنّ قد نظّمن مناوبةً تمكّنهن من الجمع بين الاستمتاع بالحفلة والنهوض بعبء واجباتهن

المهنية. وكان من المتفَق عليه أن لا تبقى المتخلّفات في البيت أكثر من ساعة واحدة ضمن جدرانه.

وكانت دورا آيةً في الروعة. كان شعرها المصبوغ منذ قريب باللون البرتقالي معقوصًا، مركومًا فوق رأسها. وقد لبست في أحد أصابعها خاتم زفافها، وعلى صدرها حلية ماسيّة (بروش) ضخمة. أمّا ثيابُها فكانت من حرير أبيض ذي نقوش خيزرانية سوداء. وفي غرف النوم كانت البنات ينهجن نهجًا معاكسًا لمنهجهنّ اليومي المعتاد...

فأمّا اللواتي كُتب عليهنّ البقاء فارتدين ثياب سهرة طويلة، وأمّا اللواتي تهيأن للذهاب فارتدين فساطين قصيرة من قُماش مزخرف بالرسوم، ظهرنَ فيها على غايةِ الملاحة. وكان غطاء الفراش المنجَز ينتظر في صندوق كرتونيٍّ ضخم في البار. وبربر حامي البيت «القبضاي» بعض الشيء بعد أن انعقد الرأي على أنّ من المتعذّر عليه أن يشهد السهرة. كان لا بدّ من بقائه لصيانة البيت. وخلافًا للأوامر الصادرة، خبأت كلُّ واحدة من البنات زجاجةً، وترقّبت الإشارة لتحصّن نفسها قليلًا للسهرة المرتقبة.

وفي أُبَّهة وجلال أوسعت دورا الخطى إلى مكتبها وأوصدت الباب. ثم إنها فتحت الدُّرْجَ الأعلى من منضدتها ذات السحّاب، وأخرجت زجاجة وكأسًا، وصبّت لنفسها جرعة. ومسّت الزجاجةُ الكأسَ مسًّا رفيقًا. وكانت إحدى البنات تسترق السمع من وراء الباب، فالتقطت ذلك الصوت وأذاعت النبأ في الجماعة. إنّ دورا لن تقدر على أن تشمّ أنفاس البنات، الآن. وهكذا اندفعن إلى غرَفهنّ وأخرجن زجاجاتهن. وكان الغسق قد ران على شارع السردين المعلّب، وحلّت الفترة الرَّبْداء الفاصلة ما بين ضوء النهار ونور الشارع. واسترقت فيليس ماي النظر من خلال الستائر في غرفة الاستقبال الأمامية.

وسألتها دوريس:

ـ «هل تستطيعين أن تريه؟»

ـ «أجل، لقد أضاء الأنوار. وهو قاعدٌ هناك وكأنه يقرأ. يا لَلمسيح! كيف يقرأ ذلك الرجل!... يُخيّل إليكِ أنه سيُتلف عينيه. ولقد وضع زجاجة من الجعة إلى جانبه.»

فقالت دوريس:

ـ «حسنًا. من الخير لنا أن نرشف جرعةً صغيرة نحن أيضًا.»

وكانت فيليس ماي لا تزال تعرج بعض الشيء، ولكنها خُلقت في الواقع خَلقًا جديدًا، ففي مَيْسورها ـ كما زعمت ـ أن تفرض ذاتَها على رجال المجلس البلدي أنفسهم. وقالت:

ـ «إن ذلك لَيبدو مضحكًا. هو ذا قاعدٌ هناك من غير أن يدري ما الذي يجري من حوله.»

فقالت دوريس في جَرْس محزونٍ بعض الشيء:

ـ «إنه لا يجيئنا أبدًا.»

فأجابتها فيليس ماي:

ـ «كثيرٌ من الناس لا يحبون أن يدفعوا. إنّ ذلك يكلّفهم أكثر، ولكنهم يتصورون الأمر على نحوٍ مغاير.»

ـ «حسنًا، ولكن... لعلّه يحبهنّ.»

ـ «يحبّ من؟»

ـ «البنات اللواتي يذهبن إلى هناك.»

ـ «أوه، أجل ـ لعلّه يفعل. لقد كنتُ هناك، ولكنه لم يعرّج عليّ يومًا.»

فقالت دوريس:

ـ «إنه لا يفعل. ولكن هذا لا يعني أنكِ لو لم تعملي هنا لَما كان عليكِ أن تناضلي نضالًا عسيرًا حتى تفوزي بِبُغْيَتِكِ.»

ـ «تعنين أنه لا يحبّ حِرْفَتَنا.»

ـ «لا، لست أعني ذلك على الإطلاق. ولكن لعلّه يتصور أنّ البنت المشتغلة لها موقفٌ خاص.»

وارتشفتا جرعةً صغيرة أخرى.

وفي مكتبها، ملأت دورا لنفسها كأسًا أخرى، وكرعتها، وأقفلت جرّار المنضدة. ثم إنها سوّت شعرها الكامل أمام مرآة الحائط، وألقت نظرة على أظافرها الحمراء اللامعة، وقصدت إلى المشرب. كان ألفرد الحارس متبرّمًا متذمّرًا. إنه لم ينبس ببنت شَفَة ولم تكن أسارير وجهه كريهة، ولكنه برغم ذلك كان يتبرّم ويتذمّر. ونظرت دورا إليه في فتور، وقالت:

ـ «يُخيَّل إليَّ أنك تشعر وكأنك ستُساق إلى المِشنقة قريبًا، أليس كذلك؟»

فقال ألفرد:

ـ «لا. لا. كلُّ شيء حسن.»

فصاحت دورا:

ـ « كلُّ شيء حسن؟ إنَّ عندكَ وظيفة أيّها السيد. أتريد أن تحافظ عليها أم لا؟»

فقال ألفرد في برود:

ـ «إنه حسن جدًّا. أنا لا أشكو ولا أتذمّر.»

ووضع مِرفقه على المشرب ودرس وجهه في المِرآة. ثم استطرد:

ـ «إذهبي ومتّعي نفسكِ. سوف أُعنى بكلّ شيء هنا. لا داعي لأن تقلقي أبدًا.»

ورقّ فؤاد دورا لألم ألفرد وقالت:

ـ «أُنظر. أنا لا أحبّ أن أترك البيت من غير رجل. فقد تعصف الخمر برأس أحد الزبائن فتعجز الفتيات عن كبحه. ولكن في استطاعتك أن تلحق بنا بعد قليل، وأن تراقب البيتَ بطريقةٍ ما، من خلال النافذة. ما قولُك في ذلك؟ إنه يساعدك على أن ترى ما قد يحصل.»

فقال ألفرد، وقد سرّى إذْنُها عن نفسه:

ـ «حسنًا، أنا أحبّ أن أذهب. وفي ما بعد، قد أعود إلى البيت دقيقةً أو دقيقين. كان ثَمّةَ سكّيرٌ حقيرٌ الليلةَ الماضية. ولست أدري، يا دورا، لقد فقدتُ جرأتي حين ضربتُ ذلك الشخص على ظهره. ولست واثقًا من نفسي بعد اليوم. إنني سوف أصوّب ضربةً إلى أحد الناس، في ليلة من الليالي، فأبوء بالفشل والخسران.»

فقالت دورا:

ـ «أنت في حاجة إلى راحة. لعلّي أستطيع أن أكلّف ماك الحلول محلّك كي تستريح أسبوعين اثنين.»

لقد كانت دورا سيدة رائعة حقًّا.

وهناك، في المختبر، احتسى دوك شيئًا من الويسكي بعد الجعة. كانت خفّة الطرب قد تمشّت في أوصاله، بعضَ الشيء، وكان سعيدًا بأن يُعنى

القوم بتكريمه على هذا النحو. ونهض إلى الفونوغراف فأدار «رقصة إلى أميرة ميتة» فغمرَتْه موجةٌ من الانفعال واستشعر قليلًا من الحزن. وبسببٍ من هذا الشعور أتبع ذلك التسجيل بأسطوانة «دافنيس وكلو»، وكان فيها مقطع يذكّره بشيء آخر. فقد أبلغ المراقبون في أثينا، قبل ماراثون(*)، أنهم رأوا موجة عظيمة من الغبار تجوز السهل وسمعوا قعقعة السلاح، والغناء الأيلوزيسي(**). لقد كان جزء من تلك الموسيقى يذكّره بهذه الصورة.

حتى إذا انتهت الموسيقى إلى غايتها، صبّ دوك مقدارًا آخر من الويسكي، ونازعَتْهُ نفسُه إلى سماع الـ «براندنبورغ» فذلك خليقٌ به أن ينتشله من الجوّ الحلو الذابل الذي أوشك أن يستغرقه. ولكن أيّ بأس في الجوّ الحلو الذابل؟ إنه شيء سائغ على أيّة حال. وقال دوك في صوت مرتفع:

ـ «في مَيْسوري أن أدير أيَّما أسطوانة أشاء. في مَيْسوري أن أُدير «ضوء القمر» و«الفتاة ذات الشعر الكتّاني.» أنا رجل حرّ.»

وصبّ في كأسه شيئًا من الويسكي، واحتساه على أنغام «سوناتا ضوء القمر». كان في استطاعته أن يرى أضواء النيون تغمز بأعينها فوق بار «لا إيدا». وبعد ذلك أقبل ضوء الشارع المواجه لبيت دورا.

واقتحمت الضوء كتيبة من الخنافس الضخمة السمراء، ثم سقطت على الأرض، وحرّكت أرجلَها، وتلمّست ما حولها بقرونها أو ملامِسِها. وطافت قطةٌ طوافًا متوحدًا قرب البالوعة التماسًا لمغامرة ما. وتساءلت عمّا دهى

(*) ماراثون سهل في أتيكا على نحو عشرين ميلاً إلى الشمال الشرقي من أثينا. وفيه هزم الأثينيون الفُرْس سنة 490 ق. م. (المعرِّب)

(**) نسبةً إلى مدينة أيلوزيس اليونانية القديمة في أتيكا، وكانت تُقام فيها احتفالات خاصّة تكريمًا لسيريس Ceres ابنة زحل وإلٰهة الحنطة والحراثة. (المعرِّب)

جميع الهِرَرَة الذكور الذين جعلوا الحياة العامة ماتعة، قبل اليوم، وجعلوا الليالي مخيفة ثائرة.

وحدّق مستر مالوي من باب المِرجَل وهو جاثٍ على يديه وركبتيه ليرى ما إذا كان أحدٌ قد قصد إلى المختبر ليشهد الحفلة. وفي «القصر» قعد الغلمان، على قلق واضطراب، يراقبون ذراعَي الساعة المنبِّهة السوداوين.

- 30 -

إن طبائع الحفلات لم تُدرس درسًا كاملًا. وأيًّا ما كان فجمهرة الناس تعتقد أنّ للحفلة باثولوجيا(*) خاصة، وأنها أشبه ما تكون بالفرد، وأنها كثيرًا ما تكون فردًا جَموحًا ضالًّا إلى أبعد الحدود. وتذهب جمهرة الناس كذلك إلى أنّ الحفلة نادرًا ما تتخذ السبيل التي تُرسَم لها. ويُستثنى من هذا الحكم الأخير تلك الحفلات الاستعبادية الموحشة التي تُضبط وتجلد بالسياط، والتي تحييها المُضيفات المحترِفات الشبيهات بالغيلان الخرافية الآكلة لحم البشر. تلك ليست حفلات بحالٍ، ولكنها تمثيل ومظاهرات تكاد تكون عفوية كالحركة الديدانية الخاصة بالأمعاء، ماتعة كنتاجها النهائي.

ولعلّ كلّ امرئ في شارع السردين المعلّب قد أعمل مخيِّلَتَه ليتمثّل الوجهَ الذي ستتّخذه الحفلة ـ هُتافات الترحيب، والتهنئات، والضجّة، والمشاعر الطيّبة. ولكنها لم تُستهلّ على هذه الشاكلة قَطّ. ففي تمام الساعة الثامنة، حمل ماك والغلمان ـ بعد أن اغتسلوا ورجّلوا شعرهم ـ أباريق الشراب ومضوا لسبيلهم هابطين حظيرةَ الدجاج، مجتازين طريق السكة الحديدية، إلى قطعة الأرض الخالية، ومنها إلى الشارع فالمختبر البيولوجي

(*) الباثولوجيا علم الأمراض.

الغربي. وران الارتباك عليهم جميعًا. وكان دوك قد ترك الباب مفتوحًا، فدخله الغلمان، وألقى ماك خطبة قصيرة:

ـ «لمّا كان هذا اليوم عيد ميلادك فقد ارتأيتُ أنا والغِلمان أن نتمنى لك عيدًا سعيدًا، وها قد حملنا إليك واحدًا وعشرينَ هرًّا كهديّة.»

ووقف عند هذا الحدّ، ووقف الصحاب جميعًا على السُّلَّم، متجهّمين عابسين:

وقال دوك:

ـ «تفضّلوا. ولكنْ... ولكني فوجئت. أنا لم أعرف شيئًا حتى مجرّد أنكم تعرفون متى يقع عيد ميلادي.»

فقال هاتزل:

ـ « كلُّ هذه الهررة ذكور، إنّا لم نأتِ بها معنا.»

وجلسوا بكِياسة في الغرفة القائمة إلى اليسار. وران عليهم صمت طويل. ثم قال دوك:

ـ «حسنًا، الآن أنتم هنا، فما قوْلُكم في قليلٍ من الشراب.»

فقال ماك، وأشار إلى الأباريق الثلاثة التي كان إيدي قد جمعها:

ـ «لقد حملنا معنا جرعة صغيرة.»

وسارع إيدي إلى القول:

ـ «ليس فيها شيء من الجعة.»

وأخفى دوك الشعور المريض الذي استحوذ عليه بُعيد هبوط الليل، وقال:

ـ «لا. ينبغي أن تشربوا معي. لقد اتفق أني كنتُ أحتسي شيئًا من الويسكي.»

وما كاد المقام يستقرّ بهم، ويشرعون في ارتشاف الويسكي ارتشافًا ينطوي على كثيرٍ من الكياسة والرقّة حتى أقبلتْ دورا والبنات. وقدّمن هديتهنّ إلى دوك، فنشَرَها على الفراش، فإذا هي جميلة رائعة. ودعاهنّ دوك إلى جرعة صغيرة فلم يعارضن. وبعدهنّ وفد مستر ومسز مالوي ومعهما هديتّاهما.

وقال سام مالوي وهو يُبرز مِكباسَ سيارة تشالميرز وقضيبَها الرابط اللذين يرجع عهدهما إلى سنة 1916:

ـ «كثيرٌ من الناس لا يعرفون أيّ قيمة سوف تكون لهذه التحفة. لعلّه لم يبق غيرُ ثلاثة مثلها في العالم كلّه.»

وتوافد القوم زَرافاتٍ زَرافات. وأقبل هنري حاملًا حشيّته الدبابيسيّة الضخمة البالغ طولها أربعة أقدام وعرضها ثلاثة. ولقد رغب في أن يُلقيَ محاضرة عن طريقته الفنّية الجديدة، ولكن الجوّ الرسميّ كان قد تداعى الآن. ووفدَ مستر ومسز غاي. وقدّم «لي تشونغ» مفرقعاته الناريّة وبُصَيْلات زنابقه الصينية. وعند الساعة الحادية عشرة التهمَ أحدُهم البُصَيْلات الزنبقيّة، ولكنّ المفرقعات النارية عُمِّرت فترةً أطول. وقَدِمت مجموعةٌ من الغرباء، نسبيًّا، من بار «لا إيدا». وزايلَ الجفاف والتصلّب الحفلة على نحوٍ سريع. واستوت دورا على شبه عرش، وقد اشتعل شعرها البرتقالي وتوهّج. وأمسكت بكأس الويسكي في تأنّق، ناشرةً أصبعها الصغرى، مراقِبةً البنات مراقبةً موصولة لكي تتأكد أنهنّ يسلكنَ مسلكًا صالحًا. وأدار دوك موسيقى الرقص على الفونوغراف، ومضى إلى المطبخ ليقليَ شرائح اللحم.

ولم يكن الشجار الأول رديئًا. ذلك بأنّ واحدًا من مجموعة الوافدين من بار «لا إيدا» عرض على واحدةٍ من بنات دورا عرضًا غير أخلاقي. فاحتجّت. وعصف الغضب برأس ماك ورؤوس الغلمان لهذا الانتهاك لحرمة اللياقة، فقذفوا بالرجل إلى الخارج من غير أن يكسروا شيئًا. وغمرتْهم السعادة، بعد ذلك. فقد استشعروا أنهم أسهموا بشيء.

وهناك في المطبخ كان دوك يقلي شرائح اللحم في أوعية ثلاثة. لقد فرمَ الطماطم وركم الخبز المقطّع أقمارًا. والواقع أنه استشعر البهجة والنشاط. فقد كان ماك يُعنى بأمر الفونوغراف بنفسه. وكان قد وجد مجموعةً من ثلاثيّات بيني غودمان. وبدأ الرقص، وأخذت الحماسة سبيلها إلى الحفلة. فمضى إيدي إلى المكتب وأنشأ يرقص «تابينغ» قارعًا الأرض بِعَقِبَيْه. وكان دوك قد حمل زجاجة من الويسكي إلى المطبخ فهو يكرع منها مباشرةً. لقد أخذَتْه خفّة الطرب أكثر فأكثر. حتى إذا قُدِّمت شرائح اللحم استبدّ الدهش بالجميع. إنّ أحدًا منهم لم يكن جائعًا حقًّا، ومع ذلك فقد التهموا الأطباق في الحال. وخلع الطعام على الحفلة جوًّا من الكآبة الهضمية الدسِمة. وكانت الويسكي قد نفدت، فأخرج دوك غالونات الخمر.

وقالت دورا من على عرشها:

ـ «دوك، أسمِعنا شيئًا من هذه الموسيقى الرائعة. لقد مرضتُ أفظع المرض، وحقِّ المسيح، من ذلك الصندوق الموسيقي الذي عندنا هناك.»

وأدار دوك «آردو» و«آمور» من موسيقى مونتيفيردي. ورانَ الصمت على القوم وانقلبت أعينُهم إلى باطن. وعبقت دورا بأنفاس الجمال. وتسلّق قادمان جديدان السُّلَّم ودخلا في سرعة. وكان دوك يستشعر حزنًا ذهبيًّا عذبًا. وكان القوم صامتين حين سكتت الموسيقى. وأخرج دوك كتابًا وأنشأ يقرأ في صوتٍ صافٍ عميق:

«حتى في هذه اللحظة،

«إذا ما تمثَّلَتِ المليحةُ ذاتُ الصدر الكِبادي،

«المصبَّغةُ بالذهب ما تزال، وقد أضاء وجهُها مثل نجومنا الليلية،

«واشتعل جسدُها باللهب،

«وجرَحَها نصْلُ الحب المتألّق،

«فعندئذٍ يدفن قلبي حيًّا وسط الثلج.

«حتى في هذه اللحظة،

«إذا ما وَفَدَتْ عليَّ محبوبتي بعينيها الشبيهتين بزهرة اللوتس،

«وقد ناء جسدُها تحت وطأة الحب النضر الغالية،

«فعندئذٍ أطوّقها بهاتين الذراعين التوأمين الجائعتين،

«وأرشفُ من فمها الخمرَ الثقيلة،

«كما تسرِقُ النحلةُ القرصانةُ المترنّحةُ في سهولةٍ مضطربة،

«الشهدَ من زَهْر النيلوفر.

«حتى في هذه اللحظة،

«إذا ما رأيتُها مستلقيةً مُشرَعةَ العينين،

«وقد تطاول خدُّها، وشكا

«جانبُها الشاحبُ من حُمَّى بعادي،

«فعندئذٍ يصبح حبي لها مثلَ حِبالٍ من الزهور،

«ويغدو المساءُ عاشقًا فاحمَ الشعر على صدر الصباح.

«حتى في هذه اللحظة،
«ترسم عيناي المطفأتان وترسم
«وجوهًا لفتاتي الضائعة. إيهِ أيّتها الخواتم الذهبية
«التي تقرع خدودَ أوراقِ شجرة الماغنوليا الصغيرة!
«إيهِ أيّها الرقّ الأبيض الناعم
«الذي خطّت عليه شفتاي المطلَقتان مقطوعاتٍ
«رائعةً من القُبَل ولن تَخُطَّ منذ اليوم.

«حتى في هذه اللحظة،
«يبعث إليَّ الموتُ بتذبذبِ أجفانها المذرورة
«فوق عينين ضاريتين، وإشفاق جسدها النحيل
«الذي حطّمه كَلال البهجة،
«لكي تكون زهرتا صدرها الحمراوان الصغيرتان روحًا لي
«وهما تتحركان فوق الوشاح. ويبعث لحزني وشقائي
«شفتين قرمزيّتين نديّتين كانتا من قبلُ ملكي.

«حتى في هذه اللحظة،
«يتحدّثون عن ضعفها في السوقين،
«هي التي كانت من القوّة بحيث تحبّني. والرجال الصغار
«الذين يبيعون ويشترون الرقيقَ الحيّ بالفضة
«يغضّنون الدهنَ حول أعينهم. ومع ذلك
«فما من أميرٍ من أمراء «مدن البحر» أخذها إلى فراشه الكالح.
«ايهِ أيّتها الصغيرة المتوحدة،
«أنتِ تلتصقين بي كما يلتصق الثوب. يا فتاتي!»

«حتى في هده اللحظة،
«أحبّ العيونَ الطويلة السوداء التي تداعب كالحرير
«العيونَ الحزينةَ أبدًا الضاحكةَ أبدًا،
«التي تُلقي أجفانُها حين تغتمضُ ظِلالًا حُلْوَةً إلى هذا الحدّ
«لأني أجد فيها نظرةً حُلوَةً جديدةً من نَظَراتِها.
«أنا أحبّ فمًا رَخْصًا، آهِ فمًا عَطِرًا،
«وشَعرًا متموّجًا رقيقًا كالدخان،
«وأصابعَ رشيقةً، وضَحِكَ الجواهرِ الخضراء.

«حتى في هذه اللحظة،
«أذكرُ أنكِ أجبتِ في لينٍ كثير،
«وإذ كنّا روحًا واحدة، فقد كانت يدُك على شَعري
«وقد دَوَّرَتِ الذكرى المشتعلةُ شفتيْكِ الدانيتَيْن.
«لقد رأيتُ أميراتِ راتي يرشُفْنَ رحيقَ الحبِّ عند الظهيرة،
«ثم يضطجعنَ في إهمالٍ وَسْطَ قاعةٍ حافلةٍ بالسجّاد،
« يتدلّى من سقفها مصباحٌ ذهبيٌّ ساطع،
«ويستسلمن للرُّقاد في أيِّما مكان.»(*)

وحين أتـمّ دوك تـلاوة القصيدة كـانت فيليس مـاي تبكي في غير ما تستّر، وكانت دورا نفسُها تكفكف عبَراتِها. وفُتن هاتزل بأصوات الكلمات إلـى درجـةٍ جعلته لا يُصيخ لِمعانيها. ولـكنّ غـمامـةً صغيرة من الحزن طغتْ عليهم جميعًا. فقد تذكّر كلُّ امرئ حبًّا ضائعًا، وتذكّر كلّ امرئ نداء.

(*) «الأقاحي السود» وقد ترجمها عن السنسكريتية إلى الإنكليزية ت. بوويز مازيرز.
T. Powys Mathers

وقال ماك:

ـ «وحقِّ المسيح هذا شيء رائع. إنه يذكّرني بسيدة...»

وترك الجملة معلَّقة في الهواء. وملأوا أقداح الخمر، وأخذوا بأسباب الهدوء. كانت كآبة عذبة تستغرقهم جميعًا. وانطلق إيدي إلى المكتب ورقص بضع رقصات «تابينغ»، ثم عاد فاتخذ مجلسه من جديد. وكاد النعاس يغلب على القوم عندما سُمع وقعُ أقدامٍ على السُّلَّم. وصاح صوت عريض:

ـ «أين البنات؟»

ونهض ماك، في شيء من السعادة، واندفع نحو الباب.

وأضاءت بسمةُ ابتهاجٍ وجهَيْ هيوغي وجونز. وسأل ماك الجماعة:

ـ «أيّ بنات تعنون؟»

ـ «أليس هذا ماخورًا؟ لقد قال لي سائق العربة إنّ ثَمَّةَ ماخورًا هنا.»

فقال ماك في صوت مستبشر:

ـ «لقد أخطأتَ، أيّها السيد.»

ـ «حسنًا، ومَن هؤلاء السيدات اللواتي أَراهنّ هنا؟»

عندئذٍ نشبت المعركة. وكان الوافدون هم بحّارة أحد مراكب الصيد العاملة في سان بدرو، وكانوا رجالًا طيّبين، قُساةً، سعداء، يُحسنون القتال. فما هي إلا جولة حتى اقتحموا الحفل. وخلعت كلٌّ من بنات دورا فردةَ حذائها وأبقتها عالقةً بمقدَّم رِجْلها، حتى إذا احتدمت المعركة كان في مَيْسورها أن تصفعَ واحدًا من البحّارة على رأسه بعَقِبِ الحذاء ذي المسامير. ووثبت دورا إلى المطبخ ثم رجعت هادرةً وبين يديها مِفرمة لحم. وحتى

دوك كان سعيدًا. لقد أخذ يضرب المجتاحين بمكباس تشالميرز من طراز 1916 وقضيبه الرابط.

كانت معركة طيبة. لقد زلّت القدم بهاتزل ورُفس على وجهه مرتين قبل أن يوفَّق إلى النهوض من جديد. وتحطّم مَوْقِدُ فرانكلين في دويّ. وإذ حُشر الوافدون الجدُد في إحدى الزوايا فقد أنشأوا يدافعون عن أنفسهم بالكتب الضخمة يتلقفونها من الخزائن. ولكنهم أُكرهوا على التراجع شيئًا بعد شيء. وحُطِّمتْ النافذتان الأماميّتان. وفجأة هجم ألفرد ـ وكان قد سمع أصداء المعركة عبر الشارع ـ من وراء، حاملًا سلاحه المفضّل: مضرب من مضارب الكرة المنزليّة. ونشب العراك على سُلَّم المختبر ثم في الشارع وعَبْرَه عند قطعة الأرض الخلاء. وخُلع الباب الأماميّ وظلّ عالقًا بأحد مفاصله شأنه في المرّة السالفة. ومُزّق قميص دوك وسال الدم من كَتِفِه الهزيلة القويّة. وكان العدوّ قد طُرِدَ إلى قلب قطعة الأرض الخالية عندما دوّت صفّارات الإنذار، فسارع المحتفلون بعيد ميلاد دوك إلى دخول المختبر، وأغلقوا الباب المكسور، وأطفأوا الأنوار قبل أن تُقبل سيارة الشرطة. ولم يجد رجال البوليس شيئًا. ولكنّ القوم كانوا قاعدين في الظلام يقهقهون في حبور ويحتسون الخمر. وبعد قليل غادر فريقٌ من بنات دورا المختبر ليحلّ محلّهن فريق من زميلاتهن، وأمدّت الدفعة الجديدة تلك الحفلة الساهرة بدمٍ جديد. وعندئذٍ نجحت السهرة حقًّا. ورجع رجال الشرطة أدراجهم، وألقوا نظرة على المكان، وتمطّقوا بألسنتهم، وشاركوا في الحفلة. واصطنع ماك والغلمان سيارة البوليس المجهّزة بتلفون يصلها بمركز الشرطة لكي يمضوا إلى حانة جيمي بروشيا التماسًا لمزيد من الخمر، فما كان من جيمي إلا أن عاد معهم. ولقد كان في مَيْسورك أن تسمع هدير المحتفلين حيثما كنتَ في شارع السردين المعلّب كلّه. وكانت لتلك الحفلة الساهرة خيرُ ميزات الليالي الصاخبة التي يقضيها الجند وراء المتاريس.

وانقلب بحّارة مركب الصيد العامل في سان بدرو على أعقابهم في اتّضاع وشاركوا في الحفلة أيضًا. لقد عانقهم القوم وأُعجبوا بهم. وقصدت إحدى النساء النازلات غير بعيد جدًّا من المختبر إلى مركز الشرطة لتحتجّ على هذه الجلَبة الغامرة فلمْ تُلْفِ فيه أحدًا. وأبلغ رجال البوليس أنّ سيارتهم نفسها قد سُرقت، ثم وجدوها على الساحل الرمليّ. وتبسّم دوك، وقد جلس متصالب القدمين على الطاولة، وربّت بأصابعه في رفق على إحدى ركبتيه. وكان ماك وفيليس ماي يتصارعان مصارعةً هندية على الأرض. وهبّت رياح الخليج الباردة من خلال النوافذ المحطمة. وعندئذٍ فقط أشعل واحدٌ من القوم حُزمةَ المفرقعات النارية التي حملها «لي تشونغ» إلى دوك.

- 31 -

كان غوفرٌ(*) نامٍ قد اتخذ له مقرًّا في دَغَل من أعشاب الخُبّازى في قطعة الأرض الخالية بشارع السردين المعلّب. كان موطنًا ممتازًا. وكانت الخُبّازى الخضراء المفرِطة في الحلاوة ترتفع رشيقةً غزيرة، حتى إذا أينعت تدلّت ثِمارُها الصغيرة على نحوٍ مثير. وكانت الأرض أصلح ما تكون لجُحر غوفر أيضًا، فهي سوداء ناعمة، ومع ذلك فليس فيها غيرُ قليل من الطين مما يعصمها من التفتّت ويعصم الأنفاق من التقوّض والانهيار. وكان الغوفر سمينًا صقيلًا. وكان يحمل دائمًا قدرًا صالحًا من الطعام في جيوب خدَّيه. وكانت أذناه الصغيرتان نظيفتين حسنتي الانتصاب، وكانت عيناه سوداوين سوادَ رؤوس الدبابيس التي شاعت قديمًا، وفي مثل حجمها تقريبًا. وكانت يداه الحافرتان قويّتين، والفرو الذي على ظهره أسمر لامعًا. أمّا الفرو الذي على صدره ـ والشبيه لونه بلون الغزال ـ فكان ناعمًا غزيرًا إلى حدٍّ لا يصدّق. وكانت له أسنان طويلة منحنية صفراء، وذَنَب قصير بعضَ الشيء. وعلى الجملة فقد كان غوفرًا جميلًا وفي ريّق شبابه.

(*) حيوان شبيه بالسنجاب.

لقد وَفَدَ إلى المكان برًّا، فألفاه حسنًا، وأنشأ يبني جُحره فوق مرتفَع صغير كان يستطيع أن يُطِلّ منه، بين أعشاب الخُبّازى، ويرى إلى السيارات تذرع شارع السردين المعلّب جيئة وذَهوبًا. كان في مَيْسوره أن يراقب أقدام ماك والغلمان وهم يجوزون قطعة الأرض الخالية إلى قصر فلوبهاوس. وكان كلّما أوغل في حَفْرِ الأرض الفحميّة السوداء تعاظم إعجابه بهذا الموقع. ذلك بأنه كانت تقوم، تحت التربة، صخور ضخمة. وحين فرغ لإنشاء الغرفة الكبيرة التي أرادها مخزنًا لطعامه آثر أن يجعلها تحت واحدة من هذه الصخور لكي لا تتقوّض أو تنهال، مهما كان المطر شديدًا غزيرًا. كان مكانًا يستطيع أن يستقرّ فيه ويرعى أيَّما عدد من الأسر، وكان في إمكان الجحر أن يتّسع من أقطاره جميعًا.

ولَشَدَّ ما كان رائعًا ذلك الصباحُ الباكر الذي أخرج رأسه فيه، أوَّلَ مرة، من الجُحر. لقد صَفَّتْ أعشابُ الخُبّازى الضوءَ الأخضرَ فوقه، وتسرَّب أوّلُ شُعاع من أشعّة الشمس المشرقة إلى جُحره فأضاءه وبعث فيه الدفء، فهو مضطجعٌ هناك يستمتع بالرضا والرفَه.

وبعد أن احتفر غرفته الكبيرة، ومخارجه الأربعة التي ينطلق منها عند المفاجآت، والغرفة التي على الماء في حال الطوفان، شرع الغوفر يخزن مؤونته. لقد قطع جذوع الخُبّازى الكاملة ليس غير، وهذّبها وفقًا للقياس الذي يبتغيه تمامًا، وهبط بها إلى الجُحر ورصفها في عناية ونظافة، في غرفته الكبيرة، بحيث لا تتخمر أو تحمض. لقد وقع على المسكن الأمثل. فليس حوله ههنا حدائق، ومن أجل ذلك فلن يخطر في بال أحد أن ينصب له شَرَكًا. صحيح أنه كان ثَمَّةَ قطط ـ قطط كثيرة ـ ولكنها كانت مُتخمة برؤوس السمك وبالأحشاء التي تطّرحها مصانع التعليب إلى حدٍّ جعلها تهجر القنص منذ زمن بعيد.. وكانت التربة رملية بقدر كافٍ، جعل المياه لا تركد قَطّ، أو تملأ ثَقبًا فترةً طويلة. وعملَ الغوفر وعملَ، حتى غصّت غرفتُه

الكبيرة بالطعام، ثم إنه أنشأ غُرَفًا جانبيّة ضيّقة لِصغاره. ففي بضعِ سنين قد ينبثق من هذا البيت الأصليّ آلافٌ وآلافٌ من ذَراريه.

ولكنّ صبر الغوفر بدأ ينفد مع الأيام، لأنّ أنثى واحدة لم تَبدُ له. لقد قعد في الصباح عند مدخل جُحره وأطلق صيحات نافذة ما كان في وسْع الأذن البشرية أن تسمعها، ولكنها كانت تبلغ آذان سائر الغوافر القاطنة تحت الأرض، قويةً صارخة. ومع ذلك فلم تبرز أيُّما أنثى. وأخيرًا نفد صبره بالكلّيّة. فانطلق عَبرَ السكة الحديدية إلى أن وجد جُحر غوفر آخر. وهناك سمع خشخشةً، واشتمّ رائحة أنثى. وما هي إلا لحظة حتى طلع من الجُحر غوفرٌ ذكرٌ ضرّسَتْه الحروب، وانقضّ عليه ضاربًا إيّاه ضَرْبًا مبرِّحًا جعله ينقلب على عَقِبَيْه إلى منزله حيث اضطجع في غرفته الكبيرة أيامًا ثلاثة، استردادًا لعافيته، وكان قد فقدَ في تلك المعركة اثنين من براثنه.

ومن جديد عاد ينتظر ويصيح عند مدخل جُحره الجميل، في ذلك المَوْطن الجميل. ولكنّ أيًّا من الإناث لم تَفِد عليه. وبعد قليل، اضطرّ إلى أن يهجر منزلَه ذاك، وينتقلَ مصعِّدًا في الكثيب إلى إحدى الحدائق حيث ينصبُ الناس كلَّ ليلة شَرَكًا.

- 32 -

وأفاق دوك في كثير من البطء والتثاقل مثلَ رجلٍ بدينٍ خارجٍ من بركة للسباحة. لقد تنبّه عقلُه ثم استغرق في الرُّقاد مرّات عديدة. وكان على لحيته أثرٌ من أحمر الشفاه. وفتحَ إحدى عينيه، ورأى إلى ألوان الغطاء الساطعة، ثم أغمضها في سرعة. ولكنه ما لبث أن فتحها كَرَّةً ثانية ونظر إلى ما حوله. وانتقلت عينه من غطاء الفراش، إلى أرض الغرفة، إلى الطبق المحطّم في الزاوية، إلى الكؤوس القائمة على الطاولة المقلوبة على الأرض، إلى الخمر المسفوحة وإلى الكتب وكأنها فراشات مثخنة بالجراح. وكانت تغمر المكان قُصاصاتٌ من ورقٍ أحمر متموّج، ورائحة المفرقعات النارية الحادّة. ومن خلال باب المطبخ كان في مَيْسوره أن يرى إلى أطباق شرائح اللحم مكدّسةً بعضها فوق بعض والمقالي غارقة في الدهن. كانت مئاتٌ من أعقاب السجاير المَدوسة منثورةً على الأرض. وتحت رائحة المفرقعات النارية، كان مزاجٌ رائع من الخمر والويسكي والعطر. وتمهّلت عينه لحظةً عند رُكامٍ صغير من دبابيس الشعر في منتصف الغرفة.

واستدار في بطء، واستند إلى أحد مِرفَقَيْه وألقى نظرة من النافذة المحطّمة. كان شارع السردين المعلّب هادئًا مشمسًا. وكان باب المِرجَل

مفتوحًا. وكان باب قصر فلوبهاوس مغلقًا. ونام رجل في أمن وسلام وسط أعشاب الأرض الخالية. وكان باب الـ «بير فلاغ» محكم الإيصاد.

ونهض دوك، وقصد إلى المطبخ، وأشعل سخّانة الماء الغازيّة في طريقه إلى الحمّام. ثم إنه رجع، وجلس على حافة فراشه، وحرّك أصابع قدميه بحيث يحتكّ أحدهما بالآخر فيما هو يستعرض الحُطام. ومن أعلى الكَثيب كان في مَيْسوره أن يسمع أجراس الكنائس تُقرع. حتى إذا شرعَت السخّانة الغازيّة تدمدم انقلب إلى الحمّام واغتسل، ثم لبس بنطلونًا أزرق، وسترة من الفلانلّا. كانت دكان «لي تشونغ» موصَدة، ولكنّ الرجل الصينيّ رأى إلى دوك بالباب ففتح له. وقصد إلى الثلّاجة وأخرج زجاجة جعة من غير أن يُسأل. ودفع دوك الثمن إليه.

ـ «سهرة جيّدة؟» كذلك سأله «لي». كانت عيناه السمراوان ملتهبتين بعضَ الشيء في مِحْجَرَيْهما.

فقال دوك:

ـ «سهرة جيّدة.»

وانقلب بالجعة المثلّجة إلى المختبر. وأعدّ شطيرةً من زبدة فستق العبيد ليأكلَها مع البيرة. كان كلُّ شيء هادئًا في الشارع. فليس من أحد يمضي فيه على الإطلاق. وسمع دوك إلى موسيقى تضجّ في رأسه ـ تعزفها ضروبٌ من الكمنجات كما قد تراءى له. كانت موسيقى باردة، ناعمة، مسكِّنة ليس فيها شيء كثير يميّزها. وأكل شطيرته، وارتشف جعته، وأصاخ إلى الموسيقى. حتى إذا شرب آخر قطرة في الكأس، قصد إلى المطبخ فأبعد الصحون القذرة عن البالوعة، وأجرى عليها ماء ساخنًا، وصبّ برادة صابون تحت المياه الجارية حتى لقد انتصبت الرغوة عاليةً بيضاء. ثم إنه راح يجمع كلَّ الكؤوس التي نجت من الكسر. ووضعها في ماء الصابون الحارّ. وكانت

أطباق لحم البقر مركومة على الموقد وقد ألصقها عصيرُها الأسمر ودُهْنُها الأبيض بعضها ببعض. وأفرغ دوك للكؤوس النظيفة مكانًا على الطاولة، فيما كان يغسلها. ثم فتح باب الغرفة الخلفية وأخرج أحد ألبومات الموسيقى الغريغورية الكنسية وأدار بعض أسطواناتها ـ «حَمَل اللّه»، و«الصلاة الربانية» ـ على الفونوغراف. وملأت الأصوات الملائكية المتحررة من الجَسَد أرجاء المختبر. كانت صافية عذبةً إلى حدٍّ لا يصدَّق. وواصل دوك غسل الكؤوس في احتراس بالغ حتى لا يصدم بعضُها بعضًا فتُفسِد جمالَ الموسيقى. وحملت أصوات الأطفال النغمَ عاليًا وسافلًا، في بساطة ويُسر، ولكن في غنًى ليس يوجد في أيِّما ضَرْب آخرَ من الغناء. حتى إذا بلغت الأسطوانة غايتَها، مسح دوك يديْه وقلبَها على وجهها الآخر. لقد بَصُرَ بكتابٍ ملقًى تحت فراشه، فتناوله، وقعد على حافة الفراش. وقرأ، فترةً ما، قراءةً صامتة، ولكنّ شفتيه ما لبثتا أن تحرّكتا، فأنشأ يتلو في صوت مرتفع تلاوةً وئيدة، متمهلًا عند نهاية كلّ بيت:

«حتى في هذه اللحظة،
«أَذْكُرُ أحاديثَ الحُكَماءِ المُقبلين مِنَ الأبراج
«حيثُ فكّروا في أيّامِ شبابهم، ولكنّي لمْ أجدْ
«وأنا أسمعُ،
«مُلَحَ هَمَساتِ فتاتي،
«وهَمْهَماتِها المضطربةَ الألوانِ، ونحنُ مضطجعانِ على وَشْك الرُّقاد،
«وكَلِماتِها الحكيمةَ الصغيرةَ وكَلِماتِها الظريفةَ الغَضّة،
«الطَّروبةَ كالماء، المغموسةَ بِشَهْدِ الحرارةِ والشّوْق.»

وفي البالوعة خمدت الرغوة الشاهقة البيضاء وتكتكَتْ فيما انفجرت الفقاقيع. وعند رصيف الميناء كان المدّ قد ارتفع ارتفاعًا بالغًا، وتكسّرت الأمواج على صخورٍ لم ترقَ إليها منذ عهد طويل.

«حتى هذه اللحظة،
«أذكُرُ أنني أحببتُ السَّرْوَ والورود،
«الجبالَ الكبيرةَ الزرقاءَ، والتلالَ الصغيرةَ الرمادية،
«وهديرَ البحر. وذاتَ يوم،
«رأيتُ عَيْنَيْنِ غريبتَيْنِ ويَدَيْنِ مِثْلَ فراشَتَيْن.
«ومِنْ أجلي طارتِ القَنابرُ مِنَ الصَّعْتَر،
«ووَفَدَ الأطفالُ ليغتسلوا في الجداولِ الصغيرة.»

وأغلق دوك الكتاب. كان في مَيْسوره أن يسمع الأمواج تتلاطم تحت أعمدة الميناء، والفيرانَ البيضَ تعدو في محاذاة شريط الأقفاص. ثم إنه مضى إلى المطبخِ، ودسّ إصبعه في المياه الآخذة في الفتور، وأضاف إليها شيئًا من الماء الحارّ. وخاطب البالوعة، والفيرانَ البيض، وذاتَ نَفْسِه، بصوتٍ عالٍ:

«حتى في هذه اللحظة،
«أنا أدري أنني ذُقْتُ طعمَ الحياةِ الحارّ،
«رافعًا كؤوسًا خضراءَ ذهبيّةً في العيدِ الكبير.
«وطَوالَ مدّةٍ قصيرةٍ ومَنْسِيَّةٍ ليسَ غير،
«استطاعت عيناي أن تتملّيا من حبيبتي،
«أنْصَعَ تدفّقٍ للنورِ الأزَلي...»

ومسح عينيه بظاهر كفّه. وعَدَتِ الفيرانُ البيضُ وعَدَتْ في أقفاصها. وخلْفَ الزجاج اضطجعت الأفاعي المجلجلة هادئة ساكنة، وحدّقَتْ إلى المدى بأعْيُنِها المغْبَرَّة العابسة.

عن الكتاب والكاتب

شارع السّردين المُعلَّب شارع عجيب تحيط به البيوت والأكواخ والبراميل الصّدئة، ويعيش فيه خليط من النّاس يجمع ما بينهم شيء واحد على الأقل هو البؤس. وهو في الحق - كما قال المؤلف - قصيدة ونتانة وضجّة ذات صرير، ودرجة من الضّوء، ونغم، وعادات، وحنين إلى الوطن، وحلم من الأحلام في آن معًا. إنّه مجموعة من الصّفيح والحديد والصّدأ والخشب الموصّل والأرصفة المتشققة وأكوام النّفايات من ورق وخِرَق ومعادن وزجاج ومصانع تعليب السّردين والحانات الرّخيصة والمطاعم والفنادق الحقيرة...

أمّا جون شتاينبيك فأحد عمالقة الكُتّاب الأميركيّين المعاصرين. وقد اشتغل قبل أن يحترف كتابة القصّة عاملا في مزرعة، ومساعد نجّار، ومعاون رسّام، وعاملًا كادحًا، وصحفيًا. وقد فاز بجائزة نوبل في الآداب فأصبح علمًا من أعلام الأدب العالميّين في العصر الحديث.

www.malayin.com


978-614-63-0010-5 01104
9 786146 300105